

تأليف

الدكتور مصطفى العبداني

أستاذ التاريخ القديم
بجامعة الإسكندرية وبيروت العربية

الامبراطورية الرومانية النظام الامبراطوري ومصر الرومانية

دار المعرفة الجامعية

٤١٣-١٦٣ شارع سويفت، الزارطة - ٤١٣

٨٧ - ٥٩٧٣١٤٦ شارع جمال الدين، السخنة - ٨٧



الأمبراطورية الرومانية

الأميرة طويرة الرومانية

النظام الأميرة طويرة ومصر الرومانية

تأليف

الدكتور مصطفى العبداني

أستاذ التاريخ القديم
بجامعة الإسكندرية وبيت المقدس

٩٢٦.٥٦

الخزائن الملكية

الأميرة طويرة الرومانية

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية	
رقم التصنيف	٣٨٧٤
رقم التسجيل	٣٨٧٤

١٩٩٩

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش. مرسى - الإسكندرية
٤٨٤٠١٦٣ : ت

إهداء

أقدم هذا العمل المتواضع إلى ذكرى أستاذي .

ميوجو جونز

الذي أُعْتُبِرَ مع روستفنز أعظم من اهتم بدراسة الإمبراطورية الرومانية في القرن العشرين ولقد كان لي شرف العمل معه في حقل الإمبراطورية الرومانية على مدى عدة سنوات ، فأفدت منه علماً ومنهجاً .
وإن في دأبي على العمل في الميدان الذي أحبه ووهب له حياته ، لنوع من الوفاء لذكراه ومواصلة للسير على الدرب .

مصطفى العبادي

البَابُ الْأَوَّلُ النَّظَامُ الْأَمْبَرَاطُورِي

شكر

تم انجاز هذا العمل في ظروف « بيروتية » استثنائية ، ولولا مساعدة زوجتي في كتابة مخطوطة الكتاب ، وإشراف تلميذتي وزميلتي ، دكتورته نبيله حسن محمد ، على تصويب البروفات ، لما خرج الكتاب في الوقت المقدر له ولا في هذه الصورة فلهما مني خالص الشكر وصادق التقدير .

كما أتوجه بالشكر إلى كثيرين ممن أعانوني في هذا العمل وخاصة المشرفين على مكتبة جامعة بيروت العربية ، وأخيراً وليس آخراً ، كل من أشرف على النشر والطباعة الذين لم يدخروا وقتاً أو جهداً في اتمام العمل بسرعة وكفاءة عالية وروح سمحة كريمة .

المؤلف

مقدمة

ينقسم تاريخ روما القديم إلى ثلاثة عصور تقليدية : العصر الملكي ويشمل الفترة الأولى (منذ تأسس المدينة ، ويفترض له عرفاً عام ٧٥٣ ق.م.) ، حتى عام ٥٠٩ ق.م. ، حين يبدأ العصر الجمهوري نتيجة لثورة وطنية . وتستمر الجمهورية الرومانية نحواً من خمسة قرون ، إنتهت بسلسلة من الصراعات الحزبية والحروب الأهلية ، حتى وضع أوكتافيانوس لها حداً في عام ٢٧ ق.م. وذلك باستحداث نظام دستوري وسياسي جديد عُرف بالنظام الرئاسي . ورغم أن أوكتافيان حافظ على هيكل النظام الجمهوري في جميع مظاهره من حيث استمرار الانتخابات لجميع مناصب الحكم ، وبقاء المجالس التشريعية ، إلا أنه اتخذ لنفسه منصباً جديداً خارج ذلك الهيكل الجمهوري ، وهو منصب المواطن الأول ، أو بعبارة أخرى رئيس الدولة *Princeps Civitatis* ويصفته «رئيساً» ، اصطلاح على تسمية النظام الجديد الذي أقامه أوكتافيان باسم النظام أو فترة الحكم الرئاسي (*Principate*) . وفي واقع الأمر أصبح أوكتافيانوس ، أو أغسطس *Augustus* - كما سيلقب فيما بعد - هو الحاكم الفعلي والمتصرف في جميع شئون الدولة ؛ فجمع في يديه كل سلطة سياسية وقضائية وعسكرية. ونظراً لأن سلطة القيادة العسكرية المطلقة

imperator ، أصبحت أخطر صفة ملازمة لشخصية رئيس الدولة الجديد ، فقد غلب على المؤرخين أن يطلقوا على العصر الذي بدأه أغسطس اسم الامبراطورية الرومانية . وتبدأ الامبراطورية على هذا الاساس مع تأسيس النظام الرئاسي الجديد عام ٢٧ ق.م . على يدي أغسطس ويستمر في الضرب حتى سقوط روما سنة ٤١٠ ميلادية . ورغم سقوط مدينة روما في القرن الخامس الميلادي أمام غزوات القبائل المتبربرة في الغرب ، استمرت الامبراطورية الرومانية في الشرق في مدينة القسطنطينية . ولكن سلطان القسطنطينية يتقلص عن معظم أملاكها في الشرق مع قيام الدولة العربية الاسلامية في القرن السابع الميلادي . أما القسطنطينية ذاتها وممتلكاتها الأخرى في آسيا الصغرى وشرق أوروبا فتستمر عدة قرون بعد ذلك فيما اصطلح على تسميته بالامبراطورية البيزنطية ، التي تسقط نهائيا في يدي محمد الفاتح سنة ١٤٥٢ ميلادية .

لكن الامبراطورية الرومانية لم تبقى محافظة على النظام الأغسطسي طيلة تاريخها القديم ، ولكن طرأت عليها تعديلات جوهرية في النظم والدين غيرت من شخصيتها تغيرا بعيدا . ولذلك اتفق المؤرخون على تقسيم الامبراطورية الرومانية إلى مرحلتين متميزتين . المرحلة الأولى تشمل القرون الثلاثة الأولى ، أي من ٢٧ ق.م . إلى ٢٨٤ ميلادية ، وهي بداية حكم الامبراطور دقلديانوس ، الذي أعاد تنظيم الامبراطورية ، ولذلك يعتبر مؤسس الفترة الثانية من الامبراطورية . ولكن هناك من المؤرخين من يؤثر اعتبار عام ٣٢٤ ميلادية ، وهي بداية حكم الامبراطور قسطنطين الذي أعلن المسيحية دينا رسميا للدولة ، بداية أيضا للفترة الثانية من الامبراطورية ، على أساس أن أهم ما يفرق بين الفترتين هو اختلاف الدين ، ففي الفترة الأولى كانت الديانة الوثنية هي السائدة ، وفي الفترة الثانية سادت المسيحية .

وكما انقسمت الدولة إلى فترتين متميزتين من حيث أوضاعها الاجتماعية

والاقتصادية والادارية والدينية ، كذلك اختلفت مصادر كل من الفترتين ، كما سيتضح فيما بعد . ونحن في دراستنا للامبراطورية الرومانية سنقسمها إلى موضوعين رئيسيين : الأول يتناول النظام الامبراطوري كما أقامه أغسطس في روما ، وأخضع له الامبراطورية ، والثاني دراسة تطبيقية على إحدى الولايات وهي مصر في العصر الروماني .

الفصل الأول

المصادر التاريخية

للإمبراطورية الرومانية مصادرهما التي يعتمد عليها الباحث الحديث ، للتعرف على نظمها السياسية وأوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والادارية .. وسوف نحاول أن نعرض لأهم هذه المصادر بأنواعها المختلفة حسب الحقب التاريخية ، مبتدئين بعصر الامبراطور أغسطس أولاً . ورغم أننا عادة نبدأ عرض المصادر بتقديم أعمال المؤرخين (أو ما اصطلح على تسميته بالمصادر الأدبية) أولاً ، إلا أننا سنقدم لعصر أغسطس بالنقش الذي قام هو بكتابته بنفسه في نهاية حياته ليكتب على ضريحه . وهو سجل بأعماله يسمى : « أعمال أغسطس المقدس *Res Gestae Divi Augusti* » ونظراً لأهمية هذا النقش ، كتب من عدة نسخ ونقش على المباني العامة في عدد من المدن . وظل هذا السجل بأعمال أو منجزات أغسطس مجهولاً ، حتى اكتشفت نسخة مهشمة منه في مدينة أنقره ، استكملت بأجزاء عثر عليها في انطاكية وأماكن أخرى . ومنذ اكتشاف نقش أنقره في نهاية القرن الماضي ، أصبح يطلق عليه اصطلاحاً « أثر أنقره *Monumentum Ancyranum* » ، وتوفر العلماء عليه دراسة ويبحثوا نظراً لأنه صدر عن الامبراطور أغسطس نفسه لينشر على الناس ، وليقلل بينهم شاكها على ما قدم للدولة والبشرية من خدمات . وفي الواقع يعتبر أثر أو

نقش أنقره من أهم ما نمتلك من الوثائق التاريخية على الإطلاق ، ليس فقط بسبب أهمية كاتبه وهو أغسطس ، ولكن بسبب أهمية ما اشتمل عليه من المعلومات . فهو مكتوب على طريقة « كشف الحساب الختامي » عن حكم أغسطس في كل أوجه النشاط التي شارك فيها ، وما أكثرها : في المال والادارة والسياسة والنظم والحرب والمنشآت العامة ، وغيرها . وهو شديد الاهتمام بالشئون المالية ، وخاصة ما أنفقه على الدولة من ماله الخاص ، ويتعمد ذكر الأرقام والتفصيلات ، ونظرا لأن الإيجاز هو الطابع الغالب على لغته وتعبيراته ، فقد قام العديد من كبار العلماء بالتوفر على دراسته وشرحه ، ويأتي على رأسهم العالم الألماني الكبير تيودور مومسن Theodor Mommsen ، الذي يعتبر أهم من ساهم في نشر النقوش اللاتينية في العالم ، وقد أفاد منها كثيرا في دراسته المشهورة عن الدولة الرومانية . ويمكننا أن نضيف في هذا المجال مجموعة الوثائق التي تمّ تجميعها عن عصر أغسطس واعتنى بنشرها العالمان جونز وإهرنبرج .

V. Ehremberg / A.H. M. Jones

باتيركولوس

وقد وصلتنا من عصر أغسطس بعض كتابات المعاصرين له ، منها خمسة وثلاثون فصلا كتبها فيليوس باتيركولوس (Velleius Paterculus) ، الذي تولى منصب البريتور - وهو في سن الثلاثين - عندما توفي أغسطس سنة ١٤ ق.م. أي أنه ولد ونشأ في حكم أغسطس ، وقام بكتابة مختصرة لتاريخ روما . ويعيب كتابة باتيركولوس شدة حماسه للإمبراطور ، مما يدل على مدى شعبية أغسطس ونجاح أساليبه الدعائية حتى بين أفراد طبقة النبلاء في المجتمع الإيطالي الذي كان ينتمي إليهم هذا المؤرخ . ويكفي للدلالة على مدى إعجاب باتيركولوس بأعمال أغسطس بعد عودته منتصرا إلى روما سنة ٢٩ ق.م. قوله : « لم يعد هناك حاجة لصلاة أو دعاء ، إذ لم يبق شيء يرجوه البشر من الآلهة أو تستطيع الآلهة أن تمنحه للبشر ، إلا

وقد منحها أغسطس للدولة وللعالَم أجمع بعد عودته إلى المدينة . ورغم ما تكشفه هذه العبارة من الإعجاب الشديد والجنوح إلى المبالغة المفرطة في وصف أعمال أغسطس ، إلا أن باتيركولوس يتمتع بصفة المعاصرة ، فهو يصف أعمالا وإنجازات شاهدها أو كان قريبا منها ، ولذلك أهمية بالغة بالنسبة للدارس الحديث .

استرابون :

وهناك مصدر معاصر آخر وهو كتاب استرابون الجغرافي . فقد عاش استرابون في فترة حكم أغسطس وتييريوس من بعده وتوفي حوالي سنة ٢١ م . ورغم أنه كتب كتابا في وصف العالم جغرافيا ، وينقسم إلى سبعة عشر جزءا وزع عليها أقاليم العالم ، إلا أن كتابته هي من نوع الجغرافيا التاريخية ، فهي تهتم بوصف المكان بقدر ما تهتم بوصف الإنسان الذي يعيش فيه . ونظرا لأنه أمضى معظم حياته فيما بين سقوط الجمهورية وقيام الامبراطورية (٦٤ ق.م . - ٢١ م) ، يعتبر كتابه من أهم السجلات المعاصرة لتلك الحقبة الخطيرة . ونظرا لثقافته الواسعة ، وخبرته الكبيرة ، في أرجاء الامبراطورية الرومانية التي زار كثيرا من أقاليمها ، فإنه كان ملما بالأحوال والنظم التي سادت في نهاية الجمهورية ومدركا لكثير من التغيرات التي استحدثت مع قيام الامبراطورية . وإذا علمنا أن إسترابون كان من أتباع المدرسة الرواقية في الفلسفة والأخلاق ، وهي مدرسة توصي بدرجة عالية من ضبط النفس وميل إلى الزهد وإيمان بوحدة الجنس البشري ، لذلك لم يكن غريبا إن وجدنا كتابة استرابون تتميز بالموضوعية وأحيانا بدرجة عالية من الجفاف والبعد عن العاطفة . وكل هذا يزيد من قيمة كتابته في نظر المؤرخ الحديث . ويكفي أن نقارن بين لغته ولغة باتيركولوس في وصف أعمال أغسطس فيما يعرف بتسوية ٢٧ ق.م . يقول استرابون « كانت الولايات قد قسمت بطرق مختلفة ، أما الآن ، فهي كما نظمها قيصر أغسطس . فعندما عهد إليه وطنه بقيادة

الامبراطورية ، ومُنح السلطة في الحرب والسلم مدى الحياة ، قسم أملاك الرومان إلى قسمين ، قسم لنفسه ، والآخر للشعب ، لنفسه أخذ كل الولايات التي تحتاج إلى حامية عسكرية . . . ومنح القسم الآخر للشعب وهو القسم الآمن ، سهل الحكم ، وظل بغير قوة عسكرية . هذه لغة تختلف كل الإختلاف عن أسلوب معاصره باتيركولوس . ونحن نجد عند استرابون مادة تاريخية حقيقية وليس فقط مجرد أوصاف وتعميمات مرسله .

ومن الطريف أن استرابون زار ، كما ذكرنا ، معظم ولايات العالم الروماني ووصفها ، وأحيانا شارك في بعض أحداثها ، فمن ذلك أنه حضر إلى مصر في سنة ٢٤ ق.م . . وأقام بها أربع سنوات ، ويعتبر وصفه لمصر وللمدينة الاسكندرية بالذات من أهم مصادر معلوماتنا عن الأوضاع فيها في تلك الفترة . ولما خرج والي مصر آنثد « إيلبوس جالوس » في حملة ضد الجزيرة العربية ، وأورد وصفا للحملة في كتابه . ويعتبر هذا الفصل أقدم وصفا تمتلكه عن بعض أقاليم الجزيرة العربية ، كتبه شاهد عيان بنفسه . وهو يورد كثيرا من أسماء المدن والقبائل كما يصف معالم البلاد . ومن هذه الأمثلة القليلة نرى أهمية كتاب استرابون كمصدر تاريخي للفترة الأولى من قيام الامبراطورية الرومانية ، فقد كان ملما بأحوال مدينة روما وشئون الحكم فيها ، وهي التي يفتخر بأنه زارها عدة مرات ، كما كان لديه دراية مباشرة بمعظم ولاياتها نتيجة لرحلاته المتعددة إليها .

شعراء العصر الأغسطسي :

ويهتم الدارس لعصر أغسطس بنوع آخر من المصادر ونقصد به أعمال الشعراء الذين عاشوا تحت حكمه نظرا لحرص أغسطس على استخدام الشعر والشعراء لأغراض الدعاية لعهد الجديد ، بحيث أصبح هناك ما اصطلح على تسميته « الأغسطسية Augustanism » وهي فلسفة

الحكم الجديدة والتي حاول بعض الشعراء أن يشرحوا بها وأن يمتدحوها ، طمعا في الفوز برضاء الامبراطور عنهم أو تجنباً لسخطه عليهم . ويأتي على قمة هؤلاء الشعراء « فيرجيليوس » Vergilius ، صاحب أشهر ملحمة رومانية وهي « الإنيادة » Aeneid التي كتبها بتكليف من أغسطس نفسه . ورغم أن موضوع الملحمة هو تأسيس روما القائم على أسطورة قديمة ، ولكن التصور الفني لها هو أنه إذا كان « رومولوس » قد أسس مدينة روما في القرن الثامن قبل الميلاد ، فإن أغسطس هو الذي رد لها الحياة بعد أو أشكت الحروب الأهلية أن تقضي عليها . ونجد شخصية روما وشخصية أغسطس ماثلتين في الملحمة بوضوح كامل وتعتبر الإنيادة مثلاً من أمثلة الالتزام السياسي في ذلك العصر .

وبعاصره شاعر آخر « هوراتيوس » Horatius الذي لا يعتبر شاعراً سياسياً مثل فيرجيليوس ، ولكنه كان شاعراً ملتزماً على أي حال . ويظهر ولاءه للعهد الجديد في عدد من قصائده وخاصة فيما يعرف بالأناشيد (Odes) التي اشتهرت باسم « القصائد الرومانية » والتي يمجّد فيها الفضائل الرومانية القديمة التي كان يدعو ويشرحها الامبراطور أغسطس ، وأهم هذه الفضائل هي ، الاعتدال والشجاعة والوطنية وبساطة المعيشة والعدل والتقوى . وإن دعوة هوراتيوس لهذه الفضائل باعتبارها المنقذ الوحيد لروما ، فإنه يكون قد سبق ومهد لسياسة أغسطس في الإصلاح الاجتماعي بخمس سنوات على الأقل .

هذه نماذج من الحياة الأدبية في العصر الأغسطسي والتي تساعد المؤرخ على الإحساس بمشاعر العصر واساليه . ورغم أنها لا تقدم معلومات تاريخية عن أحداث أو تشريعات أو إنجازات ولكن المؤرخ يجد فيها أصداً لما يحدث في المجتمع ، وكثير منها يفيد في فهم الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، فحين نجد فيرجيليوس أو هوراتيوس ، يتحدثان عن حياة الريف . فهما يتحدثان عن تجربة حقيقية ويمثلان هنا طبقة ملاك الأرض ولو أنها كانا أصحاب ملكية محدودة منحها لهما

أغسطس . وكذلك حين نلمح في كتابات هوراتيوس إشارات إلى بعض المعاصرين وعلى رأسهم الوزير « مايكيناس » ، نستطيع أن نتعرف على الطبقة الحاكمة وأصحاب النفوذ في ذلك العصر ، ومن هنا كانت أهمية الأعمال الأدبية في نظر المؤرخ .

تاكيتوس :

أول مؤرخ عظيم في العصر الامبراطوري هو « تاكيتوس » Tacitus (٥٥ - ١١٥ م) في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي الذي ينتمي إلى دوائر السناطوس وكتب في عصر الامبراطور تراجان . ويحكم انتمائه للسناطوس ودوائره فقد كان شديد الحساسية للشئون السياسية كما كان على علم بأعمال ووثائق هذه الهيئة السياسية الخطيرة . ومن أهم المصادر التي اعتمد عليها ، مجموعة وثائق السناطوس المعروفة اصطلاحا باسم Acta Senatus ، وهي بمثابة محاضر جلساته ، وتتضمن المناقشات وخطب الأعضاء والأباطرة ، وكذلك النشرة اليومية Acta diurna التي كانت تصدر عن الادارة الحكومية متضمنة أهم أحداث اليوم وجميع القرارات والبيانات الرسمية . كما اطلع على جميع أعمال المؤرخين السابقين . من هذا نجد ان تاكيتوس قد اتاحت له فرصة اللامام باكثر قدر من المعلومات عن الامبراطورية الرومانية خلال القرن الأول . فاذا اضعفنا الى هذا مشاركته الشخصية في الحياة العامة ، وقيامه بزيارة بعض الولايات مثل بريطانيا وجرمانيا ، سواء بحكم صلاته العائلية ، او صفته الرسمية ، فنجد ان تاكيتوس ، جمع بين الخبرة الشخصية والدراسة ، وقد كتب عدة كتب من اهمها « أجريكولا » Agricola حاكم بريطانيا الروماني وكان تاكيتوس قد تزوج ابنته . وكتابه الثاني عن جرمانيا التي ذهب إليها مرافقا لاحدى الحملات واهتم بوصف سكانها اهتماما خاصا . على أن أهم كتبه في التاريخ من غير شك « الحوليات » Annales وكتاب « التواريخ » Historiae ويتناول كتاب الحوليات تاريخ روما نسيا

بين حكم تيسيريوس وفسباسيان أو ما بين ١٤ ، ٦٦ ميلادية ، مع بعض الثغرات فيما بينها . اما كتاب التواريخ فهو يهدف إلى أن يتناول الفترة من ٦٩ الى ٩٦ ميلادية أي من فسباسيان الى تراجان . ولكن لسوء الحظ ، فقد معظم اجزائه ولم يصلنا سوى الجزء الخاص لسنة ٦٩ - ٧٠ م وهي السنة المعروفة باسم « الأباطرة الأربعة » وقد اوردها في شيء كثير من التفصيل . ورغم ما يتمتع به تاكيتوس من منزلة رفيعة بين مؤرخي الامبراطورية لنظراته الناقدة وتحليلاته الذكية ومعلوماته الدقيقة واحساسه المرهف بشئون السياسة الرومانية وضوابطها ، إلا انه مؤرخ سياسي قبل كل شيء ومؤرخ حزبي بالدرجة الأولى . فالجوانب السياسية هي أوضح اجزاء في كتاباته وخاصة فيما يتعلق بالأساليب السياسية التي كان يتبعها الأباطرة والحكام ، وفي ثنايا كتاباته نتعرف على كثير من مراكز القوى واصحاب النفوذ . ولكن يعيب كتابة تاكيتوس انه ملتزم في تاريخه بسياسة الحزب الذي ينتسب اليه وهو حزب السناتوس . وتكشف كتاباته وألفاظه عن كراهية شديدة للأباطرة وخاصة للأسرة الحاكمة التي أوجدها اغسطس والتي تعرف باسم اسرة يوليوس وكلوديوس . وتصل كتابته في « الحوليات » حد الاسفاف والمهاترة حين يكتب عن الامبراطور نيرون ، فيطلي لقلمه وخياله العنان لتصوير الفساد والانحراف داخل قصر هذا الامبراطور وحياته الشخصية . وما يزيد في خطورة كتابات تاكيتوس هو مهارته الشديدة في الكتابة والتحليل ، هذا الى استخدامه لأسلوب لاتيني رفيع يعتبر من ارقى الاساليب الأدبية في اللغة اللاتينية . ولكنه احيانا يولع بالغموض ويتمثل ذلك في « الحوليات » حين يعتمد إلى الالغاز في التهجم والنيل من بعض الشخصيات وتوصف هذه العبارات بلفظ innuendo (التورية والتلميح) . وفي الواقع أن تاكيتوس يمثل اتجاهًا سائدًا بين بعض المؤرخين الرومان الذين يمثلون سياسة السناتوس ويتطلعون الى احلام غامضة في عودة النظام الجمهوري .

سويتونيوس :

عاش « سويتونيوس » Suetonius فيما بين ٦٩ - ١٥٠م وعمل في القصر الامبراطوري سكرتيرا للامبراطور . وقد عالج الكتابة التاريخية على طريقة كتابة « السير » وقد وصلنا من أعماله سير الأباطرة الإثني عشر Vitae Duodecem Caesarum باللغة اللاتينية ، ويتناول فيه سير الأباطرة ابتداء من يوليوس قيصر (Divus Julius) حتى دوميتيانوس ، أي انه ينتهي في سنة ٩٦ ميلادية . وكتابته ذات طابع قصصي وولع بايراد الأخبار الغريبة ، وتصويره لشخصيات الأباطرة ، يغلب عليها طابع الإثارة فهو يجعل يوليوس قيصر مثلاً ، يتفاخر بأنه ينحدر من نسل الآلهة الخالدة . وفي عرضه لسير أباطرة أسرة يوليوس كلوديوس ، يفرق في وصف الانحرافات والقصص ذات الإثارة الجنسية إلى جانب أعمال العنف والقسوة . ورغم ذلك فبحكم موقعه في القصر الامبراطوري فقد استطاع ان يستمد معلومات كثيرة قيمة من « دار حفظ الوثائق الرسمية » . ويجب هنا ان ننبه إلى أن هؤلاء المؤرخين من أمثال تاكيوس وسويتونيوس لم يهاجموا الأباطرة الذين عاشوا في ظلهم ، وكانوا يطلقون لأقلامهم العنان في مهاجمة الأباطرة السابقين وخاصة أولئك الذين ينتمون إلى أسرة انقرضت من الحكم .

بلوتارخ :

وهو من كتاب القرن الثاني الميلادي واشتهر بكتابه الخالد عن « سير عظماء اليونان والرومان » ورغم أنه لم يكتب عن الأباطرة إلا أن السيرتين اللتين أوردهما عن يوليوس قيصر وماركوس انطونيوس تفيدنا كثيراً في فهم ظروف نهاية الجمهورية وقيام الامبراطورية ، خاصة وأن حياة انطونيوس السياسية تتصل اتصالاً مباشراً بحياة اغسطس ، وما يزيد من أهمية هاتين السيرتين أنه اعتمد اعتماداً كبيراً على ما كتبه كاتب معاصر لهما هو « أسينيوس بوليو » Asinius Pollio الذي عاش وكتب أحداث الحرب

الأهلية فيما بين ٦٠ - ٤٢ ق م وقد فقد الآن تاريخ بوليو عن الحرب الأهلية الرومانية ولا نعرفه إلا عن طريق هاتين السيرتين لبلوتارخ وما كتبه مؤرخ آخر من القرن الثاني الميلادي أيضاً وهو « ابيانوس » Appianus الذي استخدم اللغة اليونانية (مثل بلوتارخ) في كتابه عن الحرب الأهلية .

كتاب سير الأباطرة :

ويعرف اصطلاحاً باسم Historia Augusta ، وهو عبارة عن مجموعة سير لأباطرة القرنين الثاني والثالث فيما بين هادريان ودقلديانوس وقد كتبها مؤلفون مختلفون ويزعم جامعها أنها وضعت في عصر دقلديانوس وقسطنطين ، ولكن من المحتمل أنها كتبت بعد ذلك . ورغم أنها من تاريخ متأخر إلا أنها ذات قيمة ، لاعتمادها على مصادر جيدة بالنسبة لأباطرة القرن الثاني وبداية القرن الثالث ، أي حتى عصر كراكلا (٢٣٨ ميلادية) ، أما بعد ذلك تفقد سير الأباطرة حتى دقلديانوس أية قيمة تقريباً . ومن الواضح أن كتاب هذه السير المتأخرة (للفترة ٢٣٨ - ٢٨٤) لم يكن لديهم مصادر معاصرة يستمدون منها مادتهم التاريخية ؛ ولذلك أطلقوا لحيالهم العنان لملء الفجوات في معلوماتهم . وهكذا تختلف قيمة هذه المجموعة من السير حسب اختلاف كتابها وزمان الأباطرة ؛ ولذلك يجب أن يتعامل معها الدارس الحديث بحذر شديد .

بلنيوس الكبير :

بلنيوس Plinius من كتاب القرن الأول الميلادي . ولم يكن مؤرخاً ولكنه تصدى لكتابة موسوعة علمية أسماها « التاريخ » الطبيعي « Historia Naturalis » وهي عبارة عن مزيج من المعلومات المختلفة ذات الطابع العلمي أحياناً ، مثل الدراسات المستفيضة التي يقدمها عن النباتات والحيوانات ، أو ذات طابع إقتصادي مثل ما يورده من أخبار

الصناعة والتجارة ، هذا الى معلومات كثيرة في وصف البلاد والشعوب . ورغم انه لا يتحدث عن التاريخ والنظم أو عن السياسة والإدارة ، إلا ان حرصه الشديد على اضافة معلومات جديدة مهما كلفه ذلك من استطراد وخروج عن الموضوع ، جعل كتابه العظيم مصدرا مفيدا لمؤرخ الجوانب الاجتماعية والاقتصادية من التاريخ ، وخاصة بالنسبة للفترة التي عايشها وهي القرن الأول من الجمهورية .

بلينيوس الصغير :

وهو ابن أخت الكاتب السابق ، وعاش في عصر الامبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) وكان على صلة وثيقة به وتعتبر الرسائل التي تبادلها بلينيوس الصغير مع هذا الامبراطور من المصادر التي تلقى ضوءاً على جانب العلاقات الشخصية بينهما . ورغم أن بلينيوس الصغير يقابل صداقة الامبراطور بولاء وتأييد ، تصل إلى حد المدح والاطراء ، إلا أن بعض رسائله تفيد مؤرخ الحياة الاجتماعية عن طريق الأشخاص الذين يرد ذكرهم في الخطابات مثل احد رسائله الى الامبراطور يطلب اليه ان يمنح طبيباً مصرياً عاجله من مرض عضال ، المواطنة الرومانية . فيرد الامبراطور بأنه لا يملك ذلك ، لأن الطبيب من طبقة المصريين الذين يلزم ان يمنحوا مواطنة الإسكندرية أولاً حتى يمكن ان يُمنحوا المواطنة الرومانية بعد ذلك . فمثل هذه الرسالة تدلنا على مدى الانقسام الطبقي الذي نظمته القانون في بعض الولايات الرومانية مثل مصر . وفي خطاب آخر نجد بلينيوس يرجو الامبراطور أن يمنح شاباً من طبقة الفرسان عضوية السانتوس ، ولا يذكر في خطابه مبرراً لهذه التزكية سوى ما بينها من علاقة حميمة قديمة ترجع إلى زمن الصبا ويضيف صفة هامة أخرى وهو انه على جانب كبير من الثراء ! نحن نعرف في أحوال أخرى أن شباب الفرسان الذين يقدمون للدولة خدمات كبرى ، أو يقومون بأدوار مجيدة في الحرب أو الادارة ، يكافأون بمنحهم عضوية السانتوس ، ولكننا نرى من خطاب بلينيوس ان ذلك

الشاب لم يكن له مثل هذه المؤهلات ، وإنما عن طريق صلته بعضو بارز في السناتوس وباستخدام وساطته ، كان من الممكن ان ينال شرف عضوية السناتوس . هذه نماذج مما يمكن ان يستمد المؤرخ من معلومات من هذه الرسائل الشخصية التي خلفها لنا بلنيوس الصغير .

يوسيفوس :

أما في مجال الكتابة التاريخية التقليدية ، فهناك المؤرخ اليهودي « يوسيفوس » الذي كتب في النصف الثاني من القرن الأول وبداية القرن الثاني ولكنه قصر اهتمامه على اليهود وتراثهم . وتعتبر الأجزاء الأخيرة من كتابه « تراث اليهود » وكتاب « حرب اليهود » من المصادر التي تلقي ضوءاً على العلاقة بين اليهود والرومان وظروف فلسطين في العصر الامبراطوري الأول .

ديون كاسيوس :

وهو من مؤرخي القرن الثالث الميلادي ، واستطاع أن يترقى في مناصب الادارة الرومانية ، حتى ولى منصب القنصل مرتين وقد كتب باللغة اليونانية ، نظراً لأنه كان مواطناً من مدينة « نيقيا » في شمال غرب آسيا الصغرى . وكان مؤرخاً أميناً ، امضى عشر سنوات في القراءة ، واثنى عشر سنة في كتابة تاريخه ، الذي امتد من تأسيس روما ، حتى عام ٢٢٩ ميلادية . وقد اعتمد على جميع المؤرخين السابقين والسجلات والوثائق الرسمية ، كما أن أعماله الادارية ، والمناصب التي تولاها ، ساعدته كثيراً على ان يصل الى هذه المعلومات ممثلة في نصوص المعاهدات أو القوانين أو البيانات التي تصدر عن الأباطرة والحكام . ويكتسب تاريخه أهمية خاصة ، كلما اقترب تاريخه من الفترة التي عاشها ، وهي نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث ، فكتابته عن هذه الحقبة ، تدل على معرفة جيدة بالنظم في الامبراطورية . ورغم بعده عن العصور الأولى من

الامبراطورية ، فإن كتابته تعتبر من أهم ما نمتلك واكثرها قيمة لأنه حاول ان يستمد معلوماته من مصادر معاصرة ، واحيانا استخدم تقارير أو بيانات كتبها أفراد شاركوا في الاحداث ذاتها ، ويكشف عن هذه الحقيقة ما يذكره عن الامبراطور اغسطس حينما واجه مجلس السناتوس سنة ٢٧ ق م بتنازله عن جميع سلطاته ، وردود فعل أعضاء السناتوس لهذا الاعلان . فكل من يقرأ هذا الجزء من تاريخه ، يشعر أنه نقله عن أحد أعضاء السناتوس الذي شهد هذا الاجتماع . فهو ينبض بالحياة ويسجل سير الجلسة خطوة خطوة ، وانقسام العواطف بين الأعضاء وما شعروا به من خوف أو أمل . من هذا المثال تتضح قدرة ديون كاسيوس على نقد المصادر وانتقاء أقربها إلى الأحداث . ولكن يجب أن نتنبه دائما أنه في إنتقائه ، لم يكن محايدا كل المحايدة ، لأنه كان مثل غيره ممن اشرنا إليهم من المؤرخين متحيزا للسناتوس ومعاديا للامبراطورية . ورغم أنه يكتب باعتدال شديد ، وبموضوعية ظاهرة ، إلا أن عدم ثقته في الامبراطور ، وتشكيكه دائما في نواياه ، يتضح من استخدامه للألفاظ كقوله عن اغسطس في ذلك الموقف الذي اشرنا إليه والذي اعلن فيه مشاركة السناتوس له في إدارة الولايات على أن يأخذ السناتوس الولايات الآمنة ويأخذ اغسطس الولايات التي بها جيوش محاربة ، فيقول : « وكان ادعاؤه هو أنه يجب أن يجني السناتوس ثمار أفضل أقاليم الامبراطورية ، دون خوف أو عناء ، بينما يتحمل هو (أي الامبراطور) المخاطر والأعباء ؛ أما هدفه الحقيقي هو أنه عن طريق هذه الخطة ، سيقبى السناتوس غير مسلح وغير مهيا لقتال ، ويبقى هو وحده صاحب الجيوش والسلاح » . فاستخدامه الفاظا مثل « ادعائه » و« هدفه الحقيقي » تكشف عن نظرة الشك والارتباب التي كان يرى بها شخصية اغسطس . ومن سوء الحظ أن هذا الكتاب القيم ، لم يصل لنا كاملاً ، ولكن الأجزاء التي وصلت إلينا تعتبر من أقيم ما نمتلك في تاريخ الامبراطورية .

أميانوس ماركلينوس :

وهو مواطن من مدينة انطاكية في سوريا وكان ممن تولوا بعض المناصب العسكرية في الجبهة الشرقية (٣٥٣ - ٣٦٣) ونظرا لأن انطاكية كانت مركزا ثقافيا كبيرا ، فقد استطاع أن يحصل على أعلى ثقافة في القرن الرابع الميلادي . كما أنه عاش في فترة التحول الكبرى من الوثنية إلى المسيحية وظل هو على وثنيته . ومن سوء الحظ ، أن الجزء من تاريخه الذي وصلنا يؤرخ للفترة فيما بين ٣٥١ - ٣٧٨ ، ولا بد أنه بدأ قبل ذلك بكثير . ويمتاز أميانوس بملكه تاريخية فذة ، ومقدرة على النقد والتحليل وهو يعتبر من غير شك من أعظم من كتب التاريخ في العالم القديم كله ويكفي دليلا على ذلك أنه حين كتب تاريخ الامبراطور يوليان المرتد عن المسيحية ، ورغم إعجابه الشديد بشخصية هذا الوثني الحاكم في عصر سادت فيه المسيحية ، أنه تحرى الدقة والأمانة ووجه إلى بطله النقد حين لزم النقد . ورغم أنه من مدينة انطاكية الخاضعة للثقافة اليونانية ، إلا أنه كتب باللغة اللاتينية بأسلوب علمي بعيد عن زخرف اللغة أو العناية بالبلاغة .

نقتصر على هذا القدر من الكتابات التاريخية ، وهناك غيرها كثير ، وخاصة بالنسبة للفترة المتأخرة من الامبراطورية الرومانية ، حين أصبحت المسيحية ديناً رسمياً للدولة ، فنشأ جيل من المؤرخين يكتبون من وجهة النظر المسيحية ، ويسجلون تاريخ الكنيسة ويأتي على رأسهم « يوسيبوس » من قيصرية بفلسطين ، ومن بعده قائمة كبيرة من مؤرخي الكنيسة . ولكن هذا يدخلنا في مجال آخر غير المجال الذي نلتزم به في هذه الدراسة .

الوثائق :

تعتبر الامبراطورية الرومانية من أغنى حقبة التاريخ القديم في

المصادر الوثائقية ونقصد بها النقوش الكتابية ، وأوراق البردى والعملة . وقد توفر كثير من العلماء على الاهتمام بها وتجميعها ودراستها وذلك لما لها من أهمية بالغة فالوثائق تختلف عن كتب التاريخ ، فهي لا تتضمن وجهة نظر أو وصف أو دراسة للتاريخ ، ولكنها تقدم للباحث المادة الخام مثل ، نصوص المعاهدات ، والقوانين ، والبيانات الرسمية ، أو الخطابات الشخصية والرسمية أو عقود المعاملات المختلفة من بيع وشراء وهبة وميراث أو حتى بطاقة دعوة إلى عشاء أو حضور حفل زفاف . فهذه هي أنواع الوثائق التي نجدها ممثلة في النقوش التي تكتب على المباني العامة عادة أو على أوراق البردى القديم أو غير ذلك من المواد . أما بالنسبة للنقوش الكتابية ، فهي منتشرة وشائعة في كل أرجاء الامبراطورية الرومانية ، ولذلك يتم تجميعها حسب الأقاليم وتبويبها حسب العصور . وهي لهذه الصفة تعتبر أكثر شمولاً ، وأكثر تمثيلاً للامبراطورية ، مكاناً وزماناً . أما عن أهمية بعض النقوش فيكفي أن نشير إلى ما افتتحنا به هذا الفصل وهو « أثر انقرة » الذي يتضمن سجلاً ، كتبه اغسطس بنفسه عن أعماله . ويشتمل على خمسة وثلاثين فقرة ويعتبر أهم مصدر لأعمال اغسطس كما سبق ان بينا . والنقوش تتضمن عادة ، الوثائق ذات الطابع العام التي يراد اعلانها للناس ، فكثير من القرارات الرسمية والقوانين كان يلزم كتابتها على جدران المعابد أو في الميادين العامة ليطلع عليها الناس جميعاً ، فهذه كانت طريقة الاعلان الرسمية في العالم القديم . ومن البيانات الهامة التي عثر عليها مكتوبة على أحد المعابد في الواحة الخارجة بمصر ، بيان الوالي « تيبيريوس يوليوس الكسندر » وقد عثر عليه كاملاً تقريباً ويقع في أكثر من سبعين سطر ، ويمثل محاولة من هذا الوالي في سنة ٦٩ ميلادية ، لاصلاح الحالة الاقتصادية في مصر ، وهو لهذه الصفة ، يكتسب أهمية خاصة ، لأننا نجد فيه اشعاراً بسياسة جديدة وضعت موضع التنفيذ عندما تولى العرش في روما الامبراطور « فسباسيان » ، وبدأ

بذلك أسرة جديدة بدلا من الأسرة التي أسسها أغسطس . وصادر املاك أفراد الاسرة السابقين ، وحارب طبقة كبار الملاك وشجع أصحاب الملكية الصغيرة والمتوسطة ونلاحظ هذه السياسة الجديدة في هذا النقش الذي سجله هذا الوالي الروماني على مصر .

ولكن يؤخذ على النقوش أنها لا تتضمن عادة الوثائق الشخصية أو الرسمية اليومية ، ومن حسن الحظ أن أوراق البردي تأتي لتسد هذا العيب ، فهي في الواقع تمثل كل ما يكتب على الورق وتعتبر أهم مصدرا تمتلكه في دراسة الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والادارية . وفي الواقع أدرك الدارسون الحديثون قيمة الوثائق البردية وتوفروا على تجميعها ودراستها وأصبح هناك علم حديث يتخصص فيه العلماء ، يسمى « علم البردي » Papyrology ، ويؤخذ على الوثائق البردية ، عدم إنتشارها . فنظراً لأنها مادة ضعيفة ، تتعرض للتلف والهلاك بسرعة ، لم يقدر لها البقاء في معظم أرجاء الامبراطورية ، وبقي فقط القدر الأكبر منها في أرض مصر الوسطى والعليا حيث حافظ المناخ الجاف والجو الصحراوي ، على صيانتها في باطن الأرض . كما عثر أيضاً على كميات قليلة جداً خارج مصر في فلسطين وفي ايطاليا في ظروف استثنائية . وعلى هذا ، نجد أن أوراق البردي تختلف عن النقوش ، فإذا كانت النقوش تمثل معظم أقاليم الامبراطورية ، فإن البردي ، لا يكاد يمثل إلا مصر فقط . ولذلك تعتبر مصر أصلح مثال في التاريخ القديم كله لدراساتها دراسة إقتصادية إجتماعية تعتمد على مصادر معاصرة وباعداد كبيرة جداً ، فأصبح من الممكن تتبع ظروف المجتمع والاقتصاد والحياة اليومية من عصر إلى عصر وبدقة عالية ويمكننا أن نتعرف على الأفراد واحوالهم العائلية ، واحيانا يمكننا أن نلاحظ آثار الأحداث العامة على الأفراد وهو ما لا يمكن عمله بالنسبة لمعظم الشعوب الأخرى . ولا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن نتائج الدراسات البردية ، تقتصر دراستها على مصر فحسب ولكن كثيراً من

نتائج هذه الدراسات ، يلقي ضوءاً على ما يحدث في ولايات أخرى من الامبراطورية ، وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بظاهرة عامة أو تطبيق نظام تخضع له سائر الولايات .

يمكننا أن نضيف كلمة أخيرة عن العملة الرومانية ، فقد امكن العثور على عشرات الآلاف من العملة في جميع الولايات ومن جميع العصور . ولا يخفي ما للعملة من أهمية بالغة في إقتصاد أي دولة ، فإذا ما ادركنا أن نظام العملة القديمة ، كان يقوم على أساس استخدام المعادن كالذهب والفضة والنحاس فقط ، فإن درجة نقاء المعدن المستخدم في العملة ، يدل على الحالة الاقتصادية فيها . فنجد مثلاً في عصور الرخاء والسلام الأولى أن العملة الرومانية الفضية كانت على درجة عالية من النقاء ، وحين ساءت الأحوال وتعاقبت الأزمات ، تناقصت نسبة الفضة في العملة . وينعكس هذا على الأسعار ويظهر التضخم المالي وترفع الأسعار ارتفاعاً كبيراً حسب حدة الأزمة ، حتى إذا كان القرن الثالث والرابع وجدنا تغيراً يدخل على نظام العملة ، فتكاد العملة الفضية تختفي وتسود العملة البرونزية وتمنح العملة البرونزية قيمة العملة الفضية . وكان من الطبيعي أن لا تتمتع هذه العملة البرونزية بثقة السوق وتضطرب الأسعار إضطراباً شديداً . وهنا تتدخل الدولة لمحاولة الإصلاح بإصدار عملة ذهبية ، ولكن العملة الذهبية الجديدة لا تستخدم في الحياة اليومية ، وتظل قاصرة على المعاملات الكبرى ، أو عند دفع الضرائب للدولة . وفي بعض الولايات لا يتوفر الذهب الكافي ، فتدفع الضرائب « عيناً » ، وفي مثل هذه الظروف ، يعود نظام المقايضة إلى السوق .

هذه هي أهم ما لدينا من مصادر لدراسة تاريخ الامبراطورية الرومانية ، وهي مصادر كثيرة غنية ، بل لعلها أكثر وفرة وقيمة من مصادر كثير من الدول والشعوب في العصور القديمة كلها . ولم يكن غريباً أن ادرك أهميتها كثير من كبار المؤرخين الحديثين وتوفروا على دراستها

واخضاعها لمنهج علمي راقي وكتب على الامبراطورية الرومانية أرقى دراسات في التاريخ وقد بدأ هذا الاهتمام منذ القرن الثامن عشر في أوروبا على يد واحد من أعظم المؤرخين وهو « ادوارد جيبون » Edward Gibbon صاحب الكتاب الخالد « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » . وقد حاول فيه بذكاء نادر أن يحلل العوامل والأسباب التي أدت إلى سقوط أكبر امبراطورية عرفها التاريخ . وفي القرن التاسع عشر وجدنا « تيودور مومسن » الذي سبقت الإشارة إليه ، يهتم بالقانون وبالنظم السياسية الرومانية . حتى إذا كان القرن العشرين وكانت دراسات النقوش والبردى والعملية ، قد بلغت درجة عالية من النضج ، وجدنا المؤرخ العظيم « روستوفتزهف » M. Rostovtzeff يكتب كتابين يمثلان أرقى محاولة في دراسة التاريخ القديم من الناحيتين الاجتماعية والاقتصادية وهذان الكتابان هما ، « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للإمبراطورية الرومانية » ويقتصر فيه على العصر الأول من الجمهورية أي حتى القرن الثالث الميلادي والكتاب الثاني هو ، « التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلنستي » . وقد أفاد روستوفتزهف في هذين العاملين العظيمين من نتائج جميع الدراسات الحديثة سواء بالنسبة لتحقيق المخطوطات القديمة والنقوش والبردى والعملية والحفائر الأثرية حتى لقد قيل أنه كان أكثر من أحاط بالتاريخ القديم علماً . واستخدم إلى جانب النصوص التاريخية ، الأعمال الفنية القديمة ، من لوحات وتمائيل وعمائر ، في إظهار روح العصر وأحواله الاجتماعية والاقتصادية وجاء بعده مؤرخ تصدى للعصر الثاني من الامبراطورية وهي الفترة التي تبدأ من دقلديانوس حتى جستنيان ونقصد به المؤرخ « جونز » وكتابه « تاريخ العصر الثاني للإمبراطورية الرومانية » ويعتبر متمماً لعمل روستوفتزهف الذي سبقت الإشارة إليه ، وإذا كان قد تناول مثله المجال الاجتماعي والاقتصادي ، فقد اضاف مجالين هامين آخرين وهما الناحيتين المالية

والادارية . ويعتبر جونز أرقى من مارس المنهج العلمي في دراسة تاريخ
الامبراطورية الرومانية ولغلبة الطابع العلمي على كتابته فكثيرا ما تتميز
بشيء من الجفاف والموضوعية الصارمة . وهو بهذا العمل يكون قد أكمل
العمل الذي بدأه جيبون وكأنه وضع الحجر الأخير في بناء علمي ساهمت
فيه اجيال متعاقبة من المؤرخين على مدى قرنين من الزمان .

الفصل الثاني

العوامل التي أدت إلى سقوط الجمهورية

حين قامت الجمهورية الرومانية لأول مرة في سنة ٥٠٩ ق.م، بعد القضاء على النظام الملكي، كانت روما مدينة صغيرة في وسط شبه الجزيرة الإيطالية وربما لم يزد عدد سكانها على بضع آلاف، وكانت واحدة من عدد من المدن اللاتينية الشبيهة بها في اقليم «لاتيوم». وربما كانت في هذه المرحلة المبكرة من تاريخها لا تزال خاضعة لبقايا نظام قبلي بسيط، فيبدو ان سكانها كانوا ينتمون الى ثلاث او أربع قبائل فقط وخير دليل على ذلك وجود تنظيم قبلي عندهم تطور وعرف في العصر الجمهوري باسم «الجمعية القبلية» (Comitia Tributa). وعلى عادة المجتمعات القبلية، يسود فيها عادة حكم رؤساء العشائر الكبيرة وآبائها، او ما اصطلح على تسميته عادة «بمشيخة القبيلة» وقد وجد هذا النظام في روما كذلك وهو ما عرف اصطلاحاً باسم مجلس «السناتوس» (Senatus) ومعناها الحرفي، «مجلس الشيوخ»، وكان يضم اشراف الأسر الكبيرة وآبائها. وكان اللفظ المستخدم بالنسبة لأعضاء هذا المجلس؛ هو لفظ «الآباء» (Patres) ولم يتسموا عادة بلقب «الشيوخ». ويحكم انهم آباء المجتمع ورؤساء بيوته وعشائره كانوا هم ايضا أولي الأمر فيه ويبدعهم مجمع مقاليد الأمور، وهكذا يمكن ان يقال ان المجتمع الجمهوري الأول في روما قام على اساس

سيادة الأشراف فيه، ممثلاً في السناتوس . وحين وضعوا نظاماً جمهورياً بعد طرد الملوك، جعلوا هذا النظام في أيدي الأشراف أيضاً، ورغم أنهم أوجدوا مناصب للحكم يتم توليها عن طريق الانتخاب الشعبي ولفترة محدودة لا تزيد عن سنة، وهي المناصب المعروفة في الدستور الروماني، مناصب «القنصل» و«البريتور» (للقضاء) ومنصب «الكنسور» (الرقيب) و«الأيديل» (يشبه عمل المحتسب) و«الكوستور» (للشؤون المالية) ولكن الترشيح وتولي هذه المناصب جميعها، كان قاصراً على أعضاء الأسر الشريفة، أو بعبارة أخرى، أعضاء الأسر التي ينتمي إليها «الآباء» من أعضاء السناتوس .

وهكذا وجد انقسام طبقي في المجتمع والحياة السياسية الرومانية، مع قيام الجمهورية. ومع تطور الأحداث ونمو المدينة، حدث صراع بين هاتين الطبقتين، طبقة الأشراف، صاحبة السيادة والممثلة في أقوى هيئة تشريعية وهو السناتوس، وبين طبقة العامة الذين كانوا لا ينتمون إلى أسر «الآباء» وهم الكثرة الغالبة من الأهالي ولكن يجتمعون في شكل جمعية عمومية وهي الجمعية القبلية. واستغرق الصراع بين الطبقات في روما أكثر من قرنين من الزمان، كما هو معروف في التاريخ فيما بين سنة ٤٩٤ - ٢٨٧ ق.م. ودار الصراع الطبقي على مراحل، كان الهدف أولاً هو تحقيق نوع من الحماية وزيادة الضمانات لطبقة العامة ضد بطش الأشراف. ثم اتجه بعد ذلك إلى تحقيق مزيد من المساواة الاجتماعية والسياسية عن طريق تعديل قوانين الدولة، بحيث يمكن أن يقال أنه مع نهاية فترة الصراع في سنة ٢٨٧، أصبح لروما دستور ديمقراطي فأصبح للعامة قبل الأشراف الحق في أن يختاروا عنهم قنصلاً بمعنى أنه أصبح قنصل عن العامة، وقنصل عن الأشراف، وهو ما يقابل منصب رئيس الجمهورية في النظم الحديثة. كما أصبح أيضاً، للجمعية القبلية حق إصدار القوانين على قدم المساواة أيضاً مع مجلس السناتوس. وفي مجال التقارب الاقتصادي بين

الطبقات، صدر قانون في سنة ٣٦٧ ق.م. يحدد مساحة الأرض التي يجوز لأي مواطن روماني ان يستثمرها لنفسه من الأراضي العامة التي استولت عليها روما في توسعاتها العسكرية المختلفة. من هذه الانجازات، نرى ان القوانين الرومانية في نهاية الصراع الطبقي سنة ٢٨٧ ق.م، كانت تحقق قدراً كبيراً، من حيث المبدأ على الأقل، من التكافؤ الاجتماعي والسياسي لجميع المواطنين الرومان.

اما من حيث التطبيق العملي والممارسة الفعلية للسياسة والاقتصاد، فقد سارت الأمور على خلاف ذلك فإن استمرار الحروب التي خاضتها روما طيلة العصر الجمهوري، كانت تساعد الأشراف دائماً على ان يظلوا في مركز القيادة، عسكرياً وبالتالي سياسياً. فحسب نظامهم القديم المعمول به، كانت جميع مناصب الحكم وعضوية السناتوس وقيادة الجيوش غير مأجورة، لا يتقاضى صاحبها راتباً عليها، بل كثيراً ما كان يتحمل أعباء مالية من إيراده الخاص. وينبغي ان نذكر هنا ان مجموع المناصب السياسية كانت تسمى بالمناصب «الشرفية» (Cursus Honorum) في بداية العصر الجمهوري، لأنها كانت قاصرة على الأشراف وبغير أجر. لذلك كان تولي هذه المناصب يستلزم مقدرة مادية ولا يستطيع الفقراء ان ينافسوا الأشراف الأثرياء في هذا المجال. ويزداد الأمر وضوحاً بالنسبة للوضع في الجيش الروماني. فلم يكن هناك جيش نظامي وإنما جميع المواطنين من الذكور من سنة ١٨ الى سن الشيخوخة، كانوا في وقت الحرب مطالبين بالخدمة العسكرية. وكان كل مواطن يسلح نفسه قدر استطاعته والأكثر فقراً، أقل سلاحاً، والأكثر غنى، أفضل سلاحاً. ولذلك اقترنت الفروسية في الجيش عادة بالطبقة الأكثر ثراء لأن امتلاك خيل للحرب ورعايتها وما يلزم ذلك من سلاح كان لا يقدر عليه الا اصحاب الثروة والجاه. اما كبار الأثرياء، من آباء الأسر الكبرى، فكانت اعباؤهم اكثر من هذا كله فكان عليهم ان يساعدوا الدولة حين لا تكفي

الضرائب البسيطة العادية المعمول بها في ذلك الوقت، على تحصين المدينة وبناء أسطولها. من هذا كله يتبين مدى الارتباط بين الوضع الاجتماعي والمادي للفرد وصلاحيته لتولي مناصب الحكم والقيادة العسكرية.

لذلك لم يكن غريبا بعد انتهاء فترة الصراع بين الطبقات سنة ٢٨٧ ق.م. وبعد ان استطاعت روما ان توحّد إيطاليا كلها تحت سيادتها، ابتداء من نهر «الروبيكون» Rubico في الشمال حتى أقصى طرف شبه الجزيرة جنوبا، وذلك بعد انتصارها على مدينة «تارنتوم» ٢٦٥ ق.م، لم يتمكن الرومان من تحقيق الديمقراطية السياسية التي كانوا قد توصلوا الى مبادئها في اثناء فترة الصراع الطبقي كما بينّا والسبب في ذلك ان روما على مدى قرن ونصف بعد ذلك دخلت في سلسلة من الحروب العالمية وراء حدود إيطاليا وأهمها في هذه الفترة سلسلة الحروب البونية ضد مدينة قرطاجنة والتي انتهت باستيلاء روما على جزيرة صقلية وإسبانيا وشمال أفريقيا. وإلى جانب هذه الحروب القرطاجية في غرب البحر المتوسط، كانت روما تحارب في شرق البحر المتوسط أيضا وأخضعت مقدونيا أولا ثم مجموع المدن اليونانية حتى شمل نفوذها آسيا الصغرى في سنة ١٩٣ ق.م. هذه الحروب الكبرى استلزمت تسخير كل طاقات الرومان من اجل الحرب ولتحقيق الانتصارات، خاصة وان هذه الانتصارات كانت تعود على روما بمزيد من الأرض والثروة. فكل انتصار كان يزيد شهية الطبقة الحاكمة في روما للتطلع نحو انتصار آخر. وكما بينّا كانت القيادة في كل هذه الحروب، لطبقة السناطوس. وجدير بنا ان نذكر في هذه المناسبة انه في أثناء الحرب البونية الثانية التي شنها «هانيبل» على روما وإيطاليا، فيما بين ٢١٣ - ٢٠٢ ق.م، اتخذ السناطوس قرارا من أخطر قراراته التاريخية وهو. انه لا يسمح لأي شخص من طبقة السناطوس ان يغادر الأرض الإيطالية طالما كان هانيبل موجودا عليها بجنوده. هذا القرار ذو دلالة هامة جدا، فهو من ناحية قرار وطني واتخذ باسم الدفاع عن إيطاليا، ولكنه من ناحية

اخرى يدل على نفسية السناتوس وشعوره بالمسؤولية، فهو وحده المسؤول عن ايطاليا كلها. ومعنى القرار ان السناتوس مستعد بجميع افرادہ ان يموتوا على الأرض الايطالية حتى يغادرها العدو المحتل. ورغم الطابع السياسي والعسكري لهذا القرار الخطير، فقد كانت له آثار اقتصادية وهو ان اعضاء السناتوس ارتبطت اقامتهم بالأرض الإيطالية ولم يخرجوا الى الولايات التي فتحتها روما، وازداد حرص السناتوس على ملكية الأرض في ايطاليا، وحتى حين أصبح لروما ولايات اجنبية كان لأعضاء السناتوس اراضي فيها وكانوا يديرونها عادة عن طريق وكلاء عنهم. وهكذا لم يآلف اعضاء السناتوس الهجرة والاقامة خارج ايطاليا. ولذلك افسح المجال امام طبقة جديدة نشطة افادت من هذه الظروف، وهي الطبقة المتوسطة الرومانية التي عرفت اصطلاحاً باسم «طبقة الفرسان» Equites، فهؤلاء سيطروا على الأعمال التجارية والنقل البحري بين ايطاليا والولايات. كما اشتغل كثير منهم في الولايات في عملية جباية الضرائب فيها، وهو عمل مربح عاد عليهم بالثروات الطائلة لأنهم استغلوا الأهالي واستنزفوا موارد ثرواتهم.

اما طبقة العامة، فرغم اتساع ممتلكات روما وازدياد ثرائها فلم يعد ذلك عليهم بنفع كبير فرغم انهم حاربوا وضحوا وانتصروا ولكن لم يمنحوا املاكاً مثل غيرهم من الأشراف ولم يتمكنوا من المشاركة في اعمال التجارة او جباية الضرائب او غيرها من الأعمال المالية، لأن مكافأتهم على دورهم في الحرب كان مبلّغا من المال لا يلبث ان ينفد بمضي الزمن. كما اصابهم ضرر آخر نتيجة لهذه الحروب المستمرة، وهي ان بعضهم ممن كان لهم قطعة صغيرة من الأرض في ايطاليا، اضطر الى تركها واهمال زراعتها بسبب ظروف الحرب وحين يعود اليها كانت تحتاج الى نفقات كبيرة لاستثمارها مرة ثانية، وخاصة بعد فترة التدمير والخراب التي حدثت اثناء حرب هانيبل التي دامت نحو من ستة عشر عاما متصلة. لذلك

فضّل هؤلاء الأفراد من صغار الملاك، بيع ارضهم للأشراف وخاصة في ظروف الغلاء التي كانت تحدث في اعقاب الحروب. كما اصاب هذه الطبقة الفقيرة من عامة الرومان خطرا آخر نتيجة لانتصاراتهم المستمرة في حروبهم. وهي انها جلبت لروما اعداداً كبيرة جدا من الأسرى من الشعوب المقهورة، هؤلاء الأسرى، حسب النظم القديمة، يتحولون الى عبيد. وحسب القانون الروماني في ذلك الوقت، كان هؤلاء العبيد يصبحون ملكاً للدولة من الناحية النظرية على الأقل. اما من الناحية العملية فكانت الدولة او السناطوس يوزعهم على الأسر الكبيرة ليكونوا تحت اشرافهم ورعايتهم. ورحبت بهم هذه الأسر للاستعانة بهم في زراعة ممتلكاتهم التي ازدادت مساحتها في طول ايطاليا وعرضها. وهكذا نافس العبيد العمال الأحرار من المواطنين الرومان الذين كانوا يعملون بالأجر في الزراعة او في الصناعة او غيرها من الأعمال اليدوية. ونتج عن ذلك كله ان تعطل كثير من فقراء الرومان عن العمل، ولم يعد امامهم الا احد امرين اما ان يشتغلوا بالجنديّة في حروب جديدة او ان يتعطّلوا ويعيشون عالة على الأسر الشريفة الكبيرة. وكانت هذه الأسر ترحب بهم ليفوزوا باصواتهم في الانتخابات السياسية لأن الحياة السياسية للأشراف اصبحت، رغم انها غير مأجورة، مصدرا كبيرا للثراء. فمن المعروف ان من يصل الى مناصب البريتور والسناتوس كان بعد انتهاء عام منصبه يعين في حكم الولايات وهذه تدر عليهم ثروة طائلة. وهكذا اشتدت المنافسة على الانتخابات وفسدت الحياة السياسية وازدادت الرشوة وشراء اصوات المواطنين. هذه هي الصورة التي آلت اليها الحياة السياسية والاجتماعية في روما في سنة ١٣٣ ق.م.

ولكن يمكن أن ننظر إلى الموقف نظرة مختلفة ، وهي أن الدستور الروماني الذي كانت لا تزال تعيش في ظله روما سنة ١٣٣ ق.م. ، كان دستورا قديما مضى عليه ما يقرب من أربعة قرون وكان قد وضع أصلا

لمدينة صغيرة ذات طابع قبليّ كما ذكرنا من قبل . هذه المدينة الصغيرة تحولت فيما بين ٥٠٩ - ١٣٣ ق.م. إلى دولة عالمية تشمل شبه الجزيرة الإيطالية كلها وقسما من الغالة واسبانيا وشمال أفريقيا وصقلية واليونان وآسيا الصغرى . وكان من الطبيعي أن تثبت الأحداث عجز الدستور البدائي البسيط عن التحكم وتوجيه سياسة هذه الدولة العالمية الكبرى ، وما نتج عن تكوينها من مفارقات ومتناقضات في المجتمع وأصبحت الضغوط الاقتصادية والمصالح المادية أقوى من القانون . ولهذا كله سنجد نمط الحياة السياسية وأسلوبها في المرحلة الأخيرة من الجمهورية (أي ١٣٣ - ٢٧ ق.م.) مختلفا كل الاختلاف عما حدث في مرحلة الصراع بين الطبقات في بداية الجمهورية . ففي المرحلة الأولى كان الصراع يهدف إلى تعديل قانون أو إصدار قانون أو اكتساب حق في منصب أو في هيئة تشريعية . وكانت المصالح المرتبطة بالأفراد والطبقات لا تزال محدودة ولذلك أمكن الوصول دائما إلى التوفيق بين المصالح المختلفة وتحقيق الإصلاح عن طريق التشريع . أما في المرحلة التالية، خلال القرن الأخير من الجمهورية فسنجد المصالح أشد تنافراً والصراع أكثر عنفاً والقانون عاجز عن مواجهة الواقع فرغم ظهور شخصيات على مسرح السياسة الرومانية يسعون إلى الإصلاح والتغلب على التناقضات في المجتمع ، إلا أن المصالح الشخصية حيناً والمصالح الطبقية حيناً آخر ، كانت لها دائما الغلبة . ولذلك تغير محور الحياة السياسية بدلا من محاولة تطبيق القانون أو تعديله من أجل الإصلاح ، إلى الوصول إلى السلطة وفرض الإصلاح بالقوة . ولأول مرة في تاريخ الجمهورية الرومانية ، استخدم العنف والقتل في حل الاختلافات السياسية . واتخذت الحياة السياسية مظهر الصراع الحزبي الذي يقرم على أساس طبقيّ غلب عليه التعصب والحلّة وتطور تدريجيا إلى حرب أهلية قضت على النظام الجمهوري في روما .

وابتدأت هذه المرحلة الحاسمة في سنة ١٣٣ ق.م. حين تصدى

للإصلاح أخوان هما « تيبيريوس جراكوس » ، « جايوس جراكوس » اللذان توليا منصب التريبون الشعبي Tribunos Plebis وكانا مؤمنين بضرورة الإصلاح وتحسين الأحوال بالنسبة للطبقة العامة . وقد رأى تيبيريوس أن السبب الحقيقي لفساد الحياة السياسية ، هو الناحية الاقتصادية وبقاء أعداد كبيرة من العامة معدمين ومتعطلين عن العمل ، فعمل على إعادة تطبيق القانون القديم الذي كان قد صدر في بعض مراحل الصراع الأولى سنة ٣٦٧ ق.م. والذي يقضي بتحديد مساحة الأرض التي في حوزة الأثرياء من الأراضي العامة كما سبق أن ذكرنا ، مع إدخال تعديلات بسيطة على سبيل التيسير لهذا القانون ، وفي مصلحة الأثرياء (على أساس أن يكون للفرد ٥٠٠ يوجوس ، ولكل من اثنين من ابنائه ٢٥٠) . رغم أن مثل هذا القانون أمكن صدوره في فترة الصراع الأولى عن طريق السناتوس ، نجد أن السناتوس يرفضه ويقاومه في سنة ١٣٣ ق.م. فيتجه تيبيريوس إلى الجمعية القبلية لإصدار القانون . وهكذا وجدنا ثنائية في التشريع في روما فكان باستطاعة السناتوس أن يشرع ، كما كان في استطاعة الجمعية القبلية أن تشرع هي الأخرى . ومن الواضح أن تشريعات هاتين الهيئتين كانت متعارضة ومتناقضة ، فالسناتوس يشرع لصالح الأشراف ، والجمعية القبلية تشرع لصالح طبقتها الشعبية ، وواضح أن الدولة لا تستطيع أن تستقر على هذا النحو . وحين حاول تيبيريوس أن يعيد ترشيح نفسه للمنصب ذاته « التريبونية الشعبية » ، لسنة ثانية ، وهو ما لم يحدث من قبل في تاريخ الجمهورية ، كان ذلك مخالفة للأساليب الدستورية التي كانت تمارسها الجمهورية منذ نشأتها . وحدث خلاف عنيف حول قانونية هذا الإجراء بين تيبيريوس والسناتوس ، ولما أصر تيبيريوس على موقفه وأيده العامة ، لم يجد السناتوس بداً من استخدام العنف ، وتصدوا له في يوم الانتخابات وقتلوه . كانت هذه هي أول حادثة عنف في الحياة السياسية الرومانية منذ قيام

الجمهورية ، ولأول مرة تسال الدماء بسبب الاختلاف على المواقف السياسية . وبعد ذلك ستتكرر حوادث القتل ويزداد العنف طيلة القرن الأخير من الجمهورية . فسنجد أخاه جايوس يتولى التريبونية الشعبية في سنة ٢٤ ق.م . وينجح فيما فشل فيه أخوه وهو تولى المنصب مرتين متتاليتين وفي المرة الثالثة يفشل في الانتخابات ويحاربه السناتوس ويتمكن من قتله هو وثلاثة آلاف من أعوانه .

هكذا بدأ العنف في الحياة السياسية مع البدء في مخالفة الدستور وكان معنى هذا قصور الدستور عن متطلبات الدولة ومسئولياتها . وسوف تتكرر هذه الظاهرة بطريقة أخرى ، في مرحلة لاحقة بعد ذلك فيما بين ١٠٧ - ١٠٠ ق.م . حين يتصدى للحياة السياسية ، قائد عسكري يسمى « ماريوس » ، فنظرا لتفوقه العسكري وتعرض روما لمخاطر أجنبية ، قبل السيناتوس إعادة ترشيحه لمنصب القنصلية خمس سنوات متصلة ، وذلك بالرغم من أنه كان من طبقة الفرسان الجديدة وكان يميل إلى مناصرة العامة . ولكن نظرا لعدم تطرفه السياسي ولتذبذبه بين الطبقتين ، كان السناتوس يقبل بقاءه في السلطة بسبب تفوقه العسكري . ومهما يكن من أمر ، فإن تجربة ماريوس العسكرية والسياسية ، تجربة جديدة في تاريخ روما ، فلم يسبق أن تولى شخص القنصلية مرتين متتاليتين مهما كانت مواهبه ومهما كانت المخاطر ، حتى في فترة حروب هانيبعل ، وذلك لأن الإنقسام الطبقي لم يكن قد بلغ ما بلغه من الحدة في القرن الأخير . أما الآن فكان من العسير أن تتفق الطبقات على شخص واحد ، ومن ثم كان التمسك بشخصية ماريوس المقبولة لدى الطرفين . هناك نتيجة أخرى لتجربة ماريوس ، فنظرا لأن حروبه استمرت خمس سنوات متصلة ، خارج إيطاليا في بلاد الغالة ، فقد استطاع أن يوجد لأول مرة جيشا نظاميا تقوم الدولة بتسليحه ويكون ولاء جنوده لقائدهم . فكان الجنود يعتمدون على قائدهم في الحصول على مكافآت سخية من أرض ومال بعد انتهاء

الحرب . وهكذا ارتبطت مصالح الجنود بأفراد القواد وهذه ظاهرة جديدة سوف تزداد خطورتها مع تطور الأحداث حين يتخذ القادة العسكريون من أمثال « بومبي » و « قيصر » جيوشا خاصة ، بمعنى أن الجيوش سوف لا تصبح جيوش الوطن ولكن جيوش الأحزاب الطبقية التي تتبع شخصية قوية .

وثمة ظاهرة أخرى أخذت تتفاعل وتزيد الموقف تعقيدا في تلك المرحلة أيضا ، ونقصد بها حلفاء روما من الايطاليين ، فكان أهالي المدن الايطالية الذين أخضعهم روما في بداية تاريخها الجمهوري وفرضت عليهم التحالف معها وتقديم الجنود والسفن والمساعدات المختلفة في وقت الحرب ، بدأوا يضيّقون بوضعهم وخضوعهم لشعب روما . وازداد الموقف تعقيدا حينما حدث انقسام داخل حزب الشعبين في روما فوجدنا بعض زعمائهم المتطرفين يميلون إلى إنصاف الحلفاء الايطاليين بمنحهم المواطنة الرومانية ؛ ومثل هذا الموقف كان يحقق هدفين لروما في وقت واحد ، الأول هو إرضاء الإيطاليين بأن يصبحوا مواطنين رومان والتمتع بكل الإمتيازات الرومانية وأهمها عطاءات الجنود ، والثاني أن تكتسب روما مزيدا من الجنود في الفرق الرومانية وبذلك تزداد قوتها العسكرية التي كانت في حاجة مستمرة إليها للدفاع عن الامبراطورية واستتباب الأمن في الولايات . ورغم ذلك فكان السناطوس وكثير من الشعبين أنفسهم يعارضون مثل هذا الحل ، بدعوى الحفاظ على نقاء الدم الروماني ، أو الاستئثار بأكبر قدر من مكاسب الحروب . وبلغ الموقف حد الأزمة حين تعرض أحد زعماء العامة ويسمى « دروسوس » Drusus ، وكان ينادي بمنح المواطنة الرومانية للإيطاليين ، للقتل بسبب موقفه رغم أنه كان يشغل منصب التربيون الشعبي سنة ٩٠ ق.م . . نتيجة لهذا قام الإيطاليون بثورة عارمة تحولت إلى حرب ضد روما عرفت بحرب الحلفاء . ولم تتمكن روما من القضاء على هذه الثورة إلا بإصطناع الحيلة وقبول منح الإيطاليين

المواطنة كاملة ، لأنهم لم يصبحوا أعضاء في مجلس السناتوس ، كما قيد تسجيلهم ضمن القبائل الرومانية القديمة . واستمر الايطاليون يشعرون أنهم مواطنين من الطبقة الثانية ، وأن أهل روما هم أصحاب الشأن وأصحاب السيادة في الدولة . وسوف يصبح لهذا الوضع تأثير كبير على السياسة الرومانية فيما بعد حين نجد يوليوس قيصر ومن بعده أغسطس يوجهان دعايتهما السياسية باسم الشعب الايطالي كله ، بينما يتمسك السناتوس بشعار شعب روما فقط . وسوف لا يحرص الايطاليون على التمسك بالدستور الروماني ، ويفضلون قيام الحكم المطلق الذي يخضع الرومان والإيطاليين لحكم واحد . ومعنى هذا ، أن السياسة في المرحلة القادمة سوف تقوم على أساس الصراع بين المحافظين على النظام الجمهوري ممثلا في سيادة شعب روما ، وبين الداعين لإقامة الحكم المطلق والمحافظة على وحدة الشعوب الايطالية .

وسوف نجد الصراع في ظل هذا التصور الجديد يقترب بالعنف الشديد أيضا ، ويتضح هذا في الدور الذي قام به « سولا » Sulla الذي تزعم حزب السناتوس وأراد أن يقر سلطانه بقوة السلاح . وكان قد عين قائدا للجيش الرومانية ضد أحد الأمراء الثائرين في آسيا الصغرى ، وحين نازعه حقه في القيادة ، الشعبيون ، لم يتردد في أن يقود جيشه ويقتحم روما عسكريا وأن يشن حربا شعواء على خصومه وأعمل فيهم القتل والتكيل وهو ما لم يحدث في تاريخ روما من قبل . وبعد أن أقر حقه بالقوة على هذا النحو ، مضى إلى حربه في آسيا الصغرى . وأثناء غيبته ، حاول الشعبيون الانتقام مما حدث لهم ، فجمعوا صفوفهم وشنوا حربا على السناتوس وأعضائه ، فما لبث أن عاد سولا بجيشه ، ودخل روما دخول الفاتحين وأقام نفسه دكتاتورا وبقي في المنصب سنتين فيما بين ٨٢ - ٨٠ ق.م . وأعمل القتل والتكيل ومصادرة الأملاك ويقال أن خمسة آلاف ذهبوا ضحية هذا الاضطهاد ، وأصدر سلسلة من القوانين ألغى بها

كثيرا من امتيازات العامة وتأكيد سلطة السناتوس . ما من شك أن تجربة سُلّا هذه ، رغم أنها تمت بدعوى الحفاظ على الجمهورية ، كانت خطوة في سبيل القضاء عليها ، بسبب ما صاحبها من مخالفات لنص وروح الدستور الروماني ، أولها دخوله روما دخول الغازي على رأس جيش روماني ، والثاني ممارسته للسلطة الدكتاتورية سنتين متصلتين ، مما أباح له حرية تغيير القوانين وإصدارها ، عن غير طريق المجالس التشريعية . ونحن نعرف أن منصب الدكتاتور ، حسب الدستور الروماني ، كانت مدته ستة أشهر فقط ولم يحدث طيلة القرون الأربعة السابقة ، منذ قيام الجمهورية ، أن بقي أحدا دكتاتورا أكثر من ستة أشهر .

هذه الأحداث كلها ، تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الدستور الروماني أصبح لا يطبق ، ورغم تمسك القادة الرومان دائما بدعوى الحفاظ على القوانين ، إلا أنهم حين وقفت القوانين في طريقهم ، غيروها بما تحقق مصالحهم . والظاهرة الثانية ، هي أن السناتوس والشعبيين لا يلتقون في حوار سياسي وإنما يقررون خلافاتهم بقوة السلاح . وظاهرة ثالثة أخيرة تتضح هي ازدياد ظهور القادة العسكريين وتسلطهم على الحياة السياسية ، كما رأينا في شخصيتي ماريوس وسُلّا .

ومع ذلك ، فقد ظهر من بين السياسيين المدنيين من حاول الإصلاح في هذه المرحلة المضطربة ، وهو « شيشرون » Cicero الخطيب الروماني المشهور . فرغم أنه من طبقة الفرسان أصلا (وهي الطبقة المتوسطة) إلا أنه استطاع أن يتخذ جانب السناتوس . وأن يتولى منصب القنصلية سنة ٦٣ ق.م . ، وحاول أن يدخل على الدستور تعديلا جديدا يهدف ما أسماه « التوفيق بين الطبقات » Concordia Ordinum عن طريق أن تتولى السلطة التنفيذية العناصر الممتازة من السناتوس والفرسان . وهذه محاولة بلا شك للتوفيق بين هاتين الطبقتين ضد طبقة الشعبين . ورغم مهارة شيشرون الخطابية وقوة شخصيته ، فلم تزد دعوته

أن تكون صحيحة في واد ، لأنه يدعو إلى استخدام الأساليب السياسية في وقت كانت تقرر فيه قضايا السياسة الجيوش العسكرية .

في هذا الوقت ظهر على مسرح الحياة السياسية الرومانية شخصيتان خطيرتان وهما « بومبيوس » ويوليوس قيصر » اللذان سيتقرر على أيديهما مصير الجمهورية النهائي .

الفصل الثالث

سقوط الجمهورية

بومبيوس ويوليوس قيصر :

تتمثل المرحلة الأخيرة من تاريخ الجمهورية في هذين القائدين العسكريين وهما « بومبيوس » Cn. Pompeius و « يوليوس قيصر » C. Julius Caesar . وكلاهما ينحدر من اثنين من أعرق الأسر الرومانية . أما في مجال السياسة فكان بومبيوس أكثر ميلا وأشد تعاطفاً مع السناتوس ، في حين كان قيصر متضامنا تضامنا مطلقا منذ صباه الباكر مع حزب الشعبين . وكان أول ظهور بومبيوس في عالم السياسة أثناء حكم سُلا الذي منحه لقب « ماجنوس » Magnus أي « العظيم » وامتناز موكب النصر مكافأة له على انتصاره على اتباع ماريوس في صقلية وأفريقيا في سنة ٧٩ ق.م . . وهكذا بعد موت سُلا أصبح السناتوس يتطلع لبومبيوس باعتباره خليفته وقائدهم المفضل . وحين قام صراع بين السناتوس والشعبين ، كُلف بومبيوس بالقضاء على المتمردين الشعبين الذين تحصنوا في أنحاء إيطاليا وأسبانيا (٧٦ - ٧١ ق.م .) . وبعد عودته إلى روما رشح نفسه للقنصلية في سنة ٧٠ ق.م . رغم صغر سنه عن السن القانونية ، ورغم تردد السناتوس في مناصرته ، ولكنه تعاون مع بعض العناصر الشعبية وعملوا معا على نقض دستور سُلا الرجعي . وبعد

انتهاء قنصليته لم يغادر بومبيوس روما ، وأقام يترقب الفرص ليتولى قيادة عسكرية ، ترضي غروره وطموحه ، وسرعان ما سنحت الفرصة حين نشطت عصابات القراصنة في شرق البحر المتوسط ، وتعطلت الملاحة فيه فصدر قانون سنة ٦٧ ق. يمنح بومبيوس « سلطانا مطلقا » Imperium Infinitum على جميع سواحل البحر المتوسط لمدة ثلاث سنوات وهو سلطان لم يسبق أن تمتع به قائد روماني من قبل ويعتبر سابقة لسلطة الامبراطور الروماني فيما بعد . ولما كان بومبيوس قد تمكن من القضاء على القراصنة في ثلاثة أشهر ، صدر قانون آخر ليكلفه في سنة ٦٦ ق.م. بالتوجه إلى آسيا الصغرى للقضاء على فتنة فيها ، ففضى عليها ، وقاد جيوشه الرومانية دون تكليف من السناتوس واستولى على سوريا وفلسطين سنة ٦٤ ق.م. ورغم انتصارات بومبيوس العظيمة ، فإنه اثار شكوك السناتوس نحوه لأنه قاد الجيوش الرومانية ، وراء الحدود دون وجه حق . لذلك حين عاد إلى روما لم يعترف السناتوس بفتوحه في سوريا وفي هذا الموقف التقى بالسياسي الآخر الذي كان يشق طريقه إلى المجد وهو يوليوس قيصر .

الاتفاق الثلاثي الأول

عودة بومبيوس :

أثناء غياب بومبيوس في الشرق ظهر في الميدان السياسي في روما قادة جدد ، كما سبق أن ذكرنا من أمثال ششرون وقيصر وكراسوس . كما أن علاقات السناتوس بالشعبين كانت قد ساءت جدا بسبب فشل الأساليب الدستورية العادية لإقرار مشاكل السياسة . لذلك أخذ كل شخص في روما يرقب باهتمام بالغ عودة بومبيوس الذي وصل برنديزي في آخر عام ٦٢ ق.م . وبينما ادعاه كل من الاشراف والشعبين معاً خشي بعض الناس أن يدخل بومبيوس بجيشه وأن يفرض نفسه دكتاتورا كما فعل سلا من قبل في ٢ - ٨١ ق.م . ولكن بومبيوس ظهر بمظهر دستوري وسرح جنوده في برنديزي ودخل روما كمواطن عادي ، ومن أول مرة قابل فيها السناتوس تحدث إليهم في شيء كثير من المجاملة والولاء . ولكن السناتوس: أساء التصرف حيال بومبيوس ، ولعل خوف السناتوس من مطامع بومبيوس هو الذي أفسد عليهم التفكير السليم ، وضيع عليهم فرصة اكتساب بومبيوس لجانبهم . فرغم أنهم منحوه موكب النصر الذي يستحقه على انتصاراته العسكرية ، وكذلك صرحوا له بمنح نسخة ، إلا أن السناتوس ماطل كثيراً في إقرار اعمال بومبيوس في

الشرق ، ورفض أيضاً طلبه من الأراضي حتى يوزعها على جنوده . أمام موقف السناتوس هذا لم يحاول بومبيوس أن ينفذ رغباته بالقوة ، وإنما آثر الانتظار .

الاتفاق الثلاثي الأول :

هذا هو الموقف الذي نتج بعد عودة بومبيوس والذي وجده قيصر عندما عاد من اسبانيا سنة ٦٠ ق.م. ليرشح نفسه للقنصلية للعام التالي ٥٩ ق.م. ووقف منه السناتوس موقفاً شبيهاً بموقفه من بومبيوس أو أسوأ. ففي هذه الفترة رفض أن يمنحه مكعب النصر على انتصاراته البسيطة في اسبانيا ، وفوق ذلك توقعاً لانتصاره في انتخابات القنصلية اتخذ السناتوس قراراً غريباً بجعل قناصل عام ٥٩ ق.م. يبقون بعد عام حكمهم في إيطاليا بدلاً من أن يتولوا حكم الولايات في الخارج وذلك للإشراف على الغابات والمراعي . وهو منصب إداري تافه . هذا القرار الغريب كان بمثابة إعلان الحرب على يوليوس قيصر ، هذا الموقف من مجلس السناتوس خلق الجو المناسب لكي يتفق عليه أقوى وأخطر شخصيتين في روما هما بومبيوس وقيصر. خاصة حين تعرف شخصية قيصر العنيدة الديناميكية التي لا تستكين أمام الهجمات ، وإنما ترد الاعتداء وترده بسرعة .

أدرك قيصر بعقله اللامع أن تلك فرصة نادرة ليتغلب على السناتوس فاتصل ببومبيوس للعمل سوياً على أن يعينه قيصر على تحقيق مطالبه في إقرار أعماله في الشرق ومنح الأراضي لجنده . بعد أن يتولى قيصر القنصلية . فقبل بومبيوس، وكذلك رأى قيصر أن يستعين بحليفه القديم كراسوس ليمنحه بالمال الوفير والذي استجاب بسرعة ليحقق مأرباً له أيضاً . وحاول قيصر أخيراً أن يستعين أيضاً بخطيب روما الأكبر ششرون الذي كان رجلاً دستورياً مخلصاً للجمهورية ويكره الأعمال غير الدستورية التي قد يتورط بها مع قيصر ولهذا رفض .

وهكذا على أي حال تم هذا الاتفاق الذي يسمى الاتفاق الثلاثي

الأول بين بومبيوس ذي المجد الحربي وكراسوس ذي الثراء العريق وقيصِر
 ذي العقل المدبّر والطاقة التي لا تنفذ من العمل وصاحب المكانة العليا بين
 الشعبين .

قنصلية قيصر :

حسب الاتفاق الذي تم بين الرجال الثلاثة انتخب قيصر قنصلا
 لعام ٥٩ ق.م . فكافأ كراسوس بأن أعلن تنازل الدولة عن ثلث الضرائب
 المتعاقد عليها لولاية آسيا. ولكن حين حاول تنفيذ وعده مع بومبيوس قوبل
 بمعارضة عنيفة من السناتوس . برفض السناتوس إقرار قانون بتوزيع الأراضي
 على جنود بومبيوس. بعد ذلك لجأ قيصر إلى الجمعية القبلية ، ولما حاول
 حزب السناتوس تعطيله هناك بكل ما لديهم من وسائل أحضر قيصر عددا
 من جنود بومبيوس المسرحين واستعان بهم على القضاء على معارضة
 خصومه . وهكذا أقرت الجمعية القبلية قانون الأراضي لبومبيوس .
 واستطاع بعد ذلك أن يتخلص من خصومه ، فنفى ششرون من روما
 بتهمة قتل أعوان كاتيلينا بغير وجه حق . وكاتوالصغير منحه ولاية صقلية
 لينظمها أما زميله القنصل الآخر فقد أربه حتى لزم داره ليرصد النجوم .

وبعد ذلك أقرت أيضا أعماله في الشرق . بعد ذلك تفرغ قيصر
 لبعض الإصلاحات والتعديلات الادارية . من ذلك أن زاد من قوة
 القانون الخاص بمعاينة استغلال الولايات ، وابتدأ أيضا العمل بنظام نشر
 محاضر أعمال الجمعيات التشريعية وقرارات السناتوس . وأصبح من
 الواضح الآن أن مصير روما قد آل إلى أيدي المتفقين الثلاثة وعملوا على
 تقوية التحالف بينهم ، بأن منح قيصر إبنته لبومبيوس زوجة له رغم فارق
 السن الكبير ، إذ كان بومبيوس لا يزال يبدو كأنه أقوى رجل في روما .

وأخيرا حقق قيصر لنفسه ما كان يطمح فيه من الاتفاق وتولى
 القنصلية وهو الحصول على منصب بروقنصل - بعد عام قنصليته - لحكم

ولايات الليريا والغالة ليؤمن حدودها وينظمها لمدة خمس سنوات ، ابتداء من بدء قنصليته في مارس ٥٩ ق.م. .

ولهذا دلالة قوية ، إذ بمقتضى تعيينه لهذا السلطان الاستثنائي في أثناء توليه القنصلية كان في استطاعته قانونا أن يكوّن جيشا في إيطاليا ، يصبح في المستقبل قوة تستطيع أن تواجه جنود بومبيوس المسرحين إذا لزم الأمر .

ومن الناس من يعجب إلى إقدام قيصر على تولي حكم الولايات لمدة طويلة مثل هذه خارج روما ولكن هذا هو ما كان يسعى إليه وهو أن يكون جيشا خاصا به يستطيع أن يكتسب ولاءه لشخصه بمرور الزمن وكذلك ليستطيع أن يظهر للرومان عبقريته العسكرية الأمر الذي كان يبهز العقيلة الرومانية كثيرا ، وكذلك يجلب على نفسه مجدا وفخرا بأن يضيف أملاكا إلى روما . أثناء غيبته الطويلة اقترح أن يكتب لروما باستمرار عن أعماله . حتى يكون الرومان على علم بما يفعله بالسلطان الاستثنائي الذي منح له . هذه التقارير التي أرسلها من الغالة أصبحت ما يعرف باسم « مذكرات قيصر عن الحروب الغالية » التي استحوذت على خيال الشعب الروماني وتقوم دليلا على مهارة قيصر ككاتب مؤرخ إلى جانب كونه قائدا وسياسيا من نوع فريد .

قيصر من الغالة :

جمع قيصر جيشه كما شاء وسار به بعد انتهاء قنصليته إلى الغالة الحرة إلى الجزء الذي لم يكن قد خضع لروما بعد . وكان أول عمل قام به هو أن توفر على دراسة البلاد والبيئة والسكان ثم شن عليهم مجموعة من الحملات في بعضها حقق انتصارا سهلا وفي بعضها الآخر لاقى صعوبات جمة ومشاق كادت تؤدي به وبيجميع قواته وخاصة أثناء حروبه مع الهلفيين (ما يسمى الآن بسويسرا) وفي نهاية كل موسم كان يكتب إلى روما

واصفا أعماله كما وعد ، وكانت كتاباته تطرب الرومان كثيرا وتشعرهم في كل مرة بالسلطان الذي يضيفه إلى روما عن طريق الأقاليم التي يفتحها وكذلك يشعرهم بالمجد الذي يضيفه قيصر إلى الاسم الروماني عن طريق أعماله العظيمة التي وصلت إلى حد البطولة في بعض المواقف .

وحتى إذا كان عام ٥٧ ق.م . بدأ الموقف في روما يتأزم من جديد بسبب الغيرة التي أخذ يشعر بها طرفا الاتفاق الثلاثي المقيمان دون عمل في روما سوى أن يقرأوا عن أعمال قيصر العظيم وأن يروا أثرها في نفوس الرومان ، وأن يشاهدوا أتباع قيصر في روما ، يروجون له ولأعماله وكتابته بكل أسلوب . أخذ بومبي يضيق بالحال وحدثت فعلا بعض المشاحنات بين أتباعه وأتباع قيصر ، عند ذلك بدأ بومبي يعمل لنفسه أيضا مستقلا عن الاتفاق الثلاثي فعمل على إعادة ششرون من منفاه حتى يستعين بخطابته ، وفعلا عاد ششرون واستقبل من السناتوس استقبالا حارا . وسرعان ما يركد الجميل إلى بومبي بأن اقترح في السناتوس أن يعين أي بومبي مشرف على تموين روما بالغلل Curator Annonae لمدة خمس سنوات كذلك منحه سلطاناً بروقنصليل Imperium Proconsulare على البحر الأبيض المتوسط ليضمن خطوط مواصلات القمح من الشرق والغرب .

مؤتمر لوكا ٥٦ ق.م. : -

خشى قيصر من تفاقم الحال في روما وهو بعيد عنها في ظروف لا تسمح له بالعودة، أو أن تنتهي مدة غيابه ويبقى دون سلطان سنة ٥٥ ق.م. بينما يبقى لبومبيوس سلطان هائل على البحر الأبيض المتوسط .

ولكن لحسن حظه أن السناتوس لم يمنح بومبيوس كامل تأييده وثقته بل أخذ يتردد في التعاون معه. وبذلك شعر بومبيوس أنه لا يستطيع أن يثق في السناتوس تماما، وأنه لا يزال محتاجا إلى الاتفاق الثلاثي . فاستغل قيصر هذا الموقف ودعا بومبيوس وكراسوس للاجتماع ثانية في سنة ٥٦ ق.م. في

مدينة لوكا في شمال إيطاليا . وفي هذا المؤتمر تم الاتفاق على أن يتولى كل من بومبيوس وكراسوس القنصلية سنة ٥٥ ق.م . وأن يمنحنا في هذا العام سلطانا على الولايات الرومانية لمدة خمسة أعوام. على أن يتولى بومبيوس السلطان في أسبانيا وأفريقيا ، وكراسوس في سوريا ، وفي نفس الوقت يجدد سلطان قيصر في الغالة لمدة خمس سنوات أخرى .

هذا الاتفاق أمكن تنفيذه رغم معارضة كاتو وأعضاء السناتوس المؤمنين بالجمهورية ونظمها الدستورية . لأن مثل هذه الاتفاقات الفردية كان معناه إلغاء الجمهورية وأن المتفقين الثلاثة قد جعلوا من أنفسهم سلطة فوق الدستور وأجهزة الدولة الدستورية، ولكن هؤلاء الأفراد بما لهم من سلطة عسكرية كانوا من القوة بحيث أن المعارضات الدستورية كانت لا تجدي ، وكان من الممكن القضاء عليها بالقوة .

حتى أن ششرون ، وهو من المؤمنين بالجمهورية ، منح تأييده للاتفاق الثلاثي ، عرفانا بجميل بومبيوس عليه ، لإعادته من المنفى وتعيين أخيه وكيلا لليونوس قيصر .

قيصر يعبر نهر الراين ويغزو بريطانيا (٥٥ - ٥٤ ق.م .)

بعد المؤتمر إلى صيف ٥٦ ق.م . عاد قيصر إلى الغالة ، وحتى يستتب السلطان الروماني في الغالة رأى لا بد من إلزام القبائل وراء الحدود أماكنها ، أهم هذه القبائل كانت القبائل الجرمانية وراء نهر الراين ووجه ضد الجرمانيين ضربات قوية الغرض منها إرهابهم حتى لا يعودوا إلى التطرق إلى الغالة وإثارة أهلها ضد الرومان . وكذلك في صيف ٥٥ ق.م . عبر القنال الانجليزي بقوة صغيرة ليقنع الكلتيين من سكان الجزيرة البريطانية حينئذ بعدم مساعدة بني عنصرهم في منطقة بريتاني شمالي الغالة . ولكن القوة التي أخذها معه كانت صغيرة واضطر إلى العودة إلى الغالة ثانية ثم جمع قوة من ٣٠,٠٠٠ رجل وأبحر بهم إلى

بريطانيا وعبر نهر التيمس فخضعت له عدة قبائل سلموه رهائن ووعدوا بدفع الجزية ، مقابل هذا ترك قيصر انجلترا وعاد إلى الغالة بعد أن أرضى غروره وتضاعفت شهرته ومجده لدى الرومان نتيجة لتوسيع رقعة الامبراطورية شمال أوروبا على يديه . على أي حال الفتح الحقيقي لبريطانيا وضمها للامبراطورية الرومانية سيتم بعد ذلك بمائة سنة .

ثورة الغالة :

بعد ذلك أمضى قيصر عاما أو أكثر لتوطيد سلطانه في أرجاء الغالة حتى ظن أنها سلمت له تماما حتى أنه ابتداء كتابه السابع عن الغالة بقوله :

Quieta Gallia, Caesar ut constituerat, in staliam coventus

Agendos

هذه البداية توحى بأنه كان قد اطمأن تماما من الغالة ولكنه يبدو أنه نوع الاطمئنان الذي يبعثه الغرور في نفس الحاكم بأن الأمر قد استقر له نهائيا . ولكن ما كاد قيصر يغادر الغالة ويصل إلى إيطاليا حتى شبت ثورة عنيفة في أرجاء الغالة بقيادة شاب ناشئ من سلالة رؤساء القبائل هناك اسمه فركند جتوركس جمع إلى شدة الحذر قسوة بالغة وخاصة مع المترددين في ولائهم (B. Gall VII.4) وفي الحال عاد قيصر إلى الغالة ولكنه وجد مشقة كبيرة في الاتصال بجيشه . على أي حال استطاع قيصر أن يستفيد من بعض القبائل التي لم تشترك في الثورة ، وتدريبيا أخذ يسترد أجزاء الغالة واحدة بعد الأخرى حتى عزل فركندجتوركس تماما وخاصة في قلعة Alesia بالقرب من ديجون ومنع دخول الامدادات إليه حتى اضطر إلى التسليم من شدة الجوع في سنة ٥٢ ق.م . بعد ذلك أخذ يعمل قيصر على إعادة الاستقرار والأمن إلى الغالة بأسلوب يضمن بقاء السيطرة الرومانية هناك . وقد تم له هذا في سنة ٥٠ ق.م . . لعل من أكبر أسباب نجاح قيصر ، أنه كان بعيداً عن الانتقام والرغبة فيه ، وظهر بمظهر أقرب إلى العدل والتسامح مما استمال له النفوس ، وفعلا اكتسب ولاء

الغاليين لشخصه ، وقد سمح لهم بالتمتع بدرجة من الحكم المستقل والاحتفاظ بكثير من نظمهم القديمة ؛ والعناصر المشاغبة ضُمَّها إلى جيشه ، أما الباقون فشجعهم على الاستمرار في الزراعة والرعي ، كما فتح مناجم جديدة للذهب والفضة مما ساعد على تحسن حالة البلاد اقتصاديا مما شجع كثير من الرومان والإيطاليين على الذهاب إلى هناك للإقامة أو للتجارة . وافتتحت كثير من المدارس هناك لتعليم اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني على درجة راقية جدا حتى ليقال أن اللغة اللاتينية التي استعملت في الغالة كانت خيرا من لغة أهل روما . وبعبارة أخرى أخذت الغالة تصطبغ بالصبغة الرومانية وسوف تصبح في المستقبل مركزا لاشعاع الحضارة إلى باقي أجزاء أوروبا .

نهاية الاتفاق الثلاثي الأول :

تنفيذا لقرارات مؤتمر لوكا وبعد انتهاء عام قنصليته ، شخص كراسوس إلى ولايته في سوريا آملاً في أن يعود إلى روما بأجناد عسكرية تسند مكانته إلى جانب أمجاد زميليه . لهذا جلب على نفسه سنة ٥٤ حرباً لم تكن لازمة ضد البارثيين وهم مملكة تقع في الأقاليم شرقي الفرات . وفي معركة كاراي Carrhae سنة ٥٣ ق . م . دحر الجيش الروماني عن آخره وقتل كراسوس نفسه . ومن هذا التاريخ سوف لا تسلم الحدود الشرقية للامبراطورية الرومانية لمدة ثلاثمائة سنة .

أعمال بومبيوس :

موت كراسوس عجل بتطور الأحداث لتكشف عن المنافسة الحقيقية بين بومبيوس وقيصربعد عام القنصلية في سنة ٥٥ ق . م . لم يذهب إلى ولاياته في اسبانيا وأفريقيا وإنما اكتفى بأن يديرهما عن طريق وكلاء Legati وبقي في إيطاليا بحجة مباشرة مهام منصبه كمسرف ، على تمدين القمع . في سنة ٥٤ ق . م . توفيت زوجته يوليا ابنة قيصر ، مما خلفته نهائيا من علاقة شخصية مع قيصر .

بومبيوس يتفرد بالقنصلية :

ازدياد الخلاف بين بومبيوس وقيصر ظهر جليا في ازدياد الخلاف بين أتباعهما وتوالي المظاهرات والاشتباكات بينهم . واشتد الصراع حول الانتخابات للوظائف وأخذ كل جانب بما في ذلك السناتوس يعطل انتخاب ممثلي الطرف الآخر واستخدم الترابنة حق الفيتو في الاعتراض على صلاحية الانتخابات . كل هذا أدى إلى عدم انتخاب أحد للقنصلية في عامي ٥٣ - ٥٢ ق.م . وعمت روما الفوضى التي انتهت بقتل شخص اسمه كلوديوس كان للقنصلية ممثلا للجبهة الشعبية . فثار الشعبون ثورة عارمة في أثناء جنازته مرشحا وأحرقوا مبنى السناتوس نفسه . وبعض المباني العامة الأخرى في السوق الرومانية Forum . عند ذلك اضطر السناتوس إلى أن يطلب من بومبيوس أن يضع حدا لهذه الاضطرابات وأعلنوه بعد موت كلوديوس في سنة ٥٢ ق . م . قنصلاً بمفرده . وبهذه الصفة منحه الشعب في-واقع الأمر سلطاناً دكتاتوراً من أجل إصلاح الجمهورية Rei Publicae Constituendae . وبذلك جمع بومبيوس في يديه سلطة قنصلية إلى جانب سلطة بروقنصلية في الخارج حيث توجد جيوش تحت امرته ، هذا بالإضافة إلى أتباع كثيرين من الجنود السابقين مستقرين في مختلف أنحاء إيطاليا . هذا سلطان لم يسبق أن تمتع به شخص من قبل في روما . وهو في الواقع أول مثال للحكم الامبراطوري الذي ستشهده روما فيما بعد .

على أي حال أصدر بومبي في الحال بعض القوانين الإصلاحية ضد الرشوة وضد من يتسببون في الإخلال بأمن الدولة وطبقها دون محاباة بأمر رجعي ضد المتسببين في الاضطرابات السابقة التي أدت إلى قتل كلوديوس . هذه الأفعال كانت كافية لتحفظ الهدوء في روما . ريثما تنشب الحروب ، الأهلية بعد ذلك بقليل .

- أول خطوة إيجابية نحو الحرب الأهلية هي أن السناطوس، الآن، وقد أصبح بومبيوس في جانبه نهائياً اتخذ قراراً بمد سلطان بومبيوس كبروقنصل في اسبانيا خمس سنوات أخرى ابتداء من تاريخ صدور القرار في أثناء سنة ٥٢ ق.م. هذا الاجراء أدى إلى الاخلال بميزان القوى بين بومبيوس وقيصر. لأن هذا معناه بقاء بومبيوس متمتعاً بسلطان عسكري بعد أن ينتهي سلطان قيصر في الغالة .

- هكذا بدا أن بومبيوس ومعه السناطوس قد أصبحوا في منأى من أي خطر من ناحية قيصر . وقد استجمع السناطوس شجاعته في سنة ٥١ ق.م. . وتحدث عن استدعاء قيصر إلى روما . ولكنه تعلل طبعاً بأن عليه أن يحتفظ بسلطانه حسب القانون . وكان ينبغي أن يبقى حتى تمر عشر أعوام بعد قنصليته السابقة ، حتى يستطيع أن يرشح نفسه في عام ٤٩ ق.م. لقنصلية عام ٤٨ ق.م. متى ينتهي سلطان قيصر في الغالة على وجه التحديد ، أمر لم يتضح من النصوص . على أي حال لم يكن قيصر ليقبل الوضع الجديد الذي يؤدي إلى أن يخلع عنه السلطان بينما يبقى سلطان بومبيوس .

- وكان لدى قيصر أكثر من دليل يجعله يعرف أنه إذا سقطت عنه الحماية التي يُضيفها عليه السلطان البروقنصلي وعاد إلى روما فسوف يحاكمه السناطوس بعدة تهم منها ما يتعلق ببعض أعماله في قنصليته السابقة وفي بروقنصليته بدعوى أنه شن حروباً وراء حدود الامبراطورية في الغالة دون إذن السناطوس. وقد أعلن كاتو في مجلس السناطوس أنه يطالب بمحاكمة قيصر بسبب أعماله غير القانونية .

- ما كان على قيصر أن يفعله الآن هو أن ينجح في تولي وظيفة القنصلية مرة ثانية بينما هو لا يزال بروقنصلاً متمتعاً بحماية ضد إمكان محاكمته بينما هو في السلطة .

- ضد هذا الاتجاه أصدر بومبيوس قانونا يمنع أي شخص من أن يرشح نفسه للوظائف العامة وهو خارج روما ، ولكن خشي بعد ذلك أن يكون قد تمادى في استعداد قيصر ، فأصدر استثناء خاصا به من أحكام هذا القانون .

هذا الاجراء جعل قيصر يظن أنه يستطيع أن يحتفظ بسلطانه البروقنصلي حتى نهاية سنة ٤٩ ق.م. حتى إذا أصبح قنصلا في سنة ٤٨ ق.م. يمكنه حينئذ أن يصدر قوانين وقرارات تؤكد شرعية كافة أعماله .

- ولكن السناتوس ومعه بومبيوس أخذ يعمل بعد ذلك على حرمان قيصر من هذه الفرص التي يطمح إليها ، واستمرت المفاوضات بين قيصر والسناتوس لمدة عام وأكثر في ٥١ - ٥٠ ق.م. ومثلوا قيصر في روما وعلى رأسهم التريون كوريو يعملون على حمايته من أي تشريع قد يضر بموقفه . وقد اقترح كوريو أخيرا بالاتفاق مع قيصر أن يتنازل كل من بومبيوس وقيصر عن سلطانهما في وقت واحد . وقد بادر قيصر بإعلان قبوله للفكرة بينما رفض بومبيوس عند ذلك اتهمه خصومه من الشعبين أتباع قيصر أنه يريد أن يستأثر لنفسه بالسلطان وأنه لا يريد صالح الجمهورية في حقيقة الأمر .

وبذلك فشلت كافة المفاوضات بين الجانبين وسيطر الخوف على الطرفين وأعلن السناتوس في يناير سنة ٤٩ ق.م. أن قيصر عدو للوطن . واتخذ قراره الأخير وعهد إلى بومبيوس بأن يتولى مهمة حماية الجمهورية . حاول التريبونان ماركوس أنطونيوس وكويتوس كاسيوس من أعوان قيصر أن يوقفا قرارات السناتوس باستخدام الفيتو ، ولكن أمام إجراءات السناتوس خشيًا على حياتها وفرا إلى قيصر .

- من ناحية أخرى ، اتخذ قيصر - الذي كان موجوداً مع جيشه في شمال إيطاليا - من الاساءة المتوقعة ضد الترابنة ذريعة ليعلن أنه سيحمي وظيفة ممثل الشعب ذات الحماية المقدسة ، بحكم القانون .

وفي ١٠ يناير ٤٩ ق.م. صاح لقد ألقى الزهر Alea Jacta وعبر قيصر نهر الروبيكون ، الذي كان يعتبر حد روما الشمالي الرسمي ومن يتعداه جنوبا على رأس جيش دون إذن السناتوس يكون بمثابة من أعلن الحرب على روما .

الحرب الأهلية :

هكذا قامت الحرب الأهلية بين بومبيوس والسناتوس من ناحية وقيصر والشعبين من ناحية أخرى . وسار قيصر إلى الجنوب على رأس جيشه الذي دربه مدة عشر سنوات في الغالة . واكتسب ولاءهم وحبهم . وكان الجنود قد خبروا أساليب قيصر وسرعته في التنفيذ ، وكانوا على استعداد دائم لأن يستجيبوا لسرعته .

ولذلك تقدم قيصر إلى روما بسرعة هائلة ، بهرت خصومه ، كما بهرت المترددين فانحازوا إلى جانبه بسرعة ، فأعلنت كثير من المدن ولاءها له . كما أن حلمه مع الخصوم واعتدال شخصيته وسلوكه مع الناس كسب له كثيرا من الأتباع .

وجد بومبيوس أن الموقف في إيطاليا في غير صالحه فترك إيطاليا هو ومن استطاع من السناتوس وعبر الأديرياتيك إلى ابيروس Epirus معتقداً أنه يستطيع أن يجمع أعوانه من الجنود الذين أقامهم في الشرق .

-لم يتبعه قيصر أولاً ، وإنما دخل روما وأقام حكومة مؤقتة . ثم ذهب إلى اسبانيا حيث عمت الثورة ضده . قام هناك بعدة حملات في أثنائها تحول كثير من جنود الأعداء إلى صفوفه ، ثم عاد ثانية إلى روما ليقيم نفسه دكتاتورا لمدة تكفي أن يفوز في الانتخابات لقنصلية عام ٤٨ ق.م. بعد ذلك اعتزل الدكتاتورية وتوجه لمقابلة بومبيوس .

وتقابل الجيشان في تمالينا عند فارسالوس التي كانت المعركة

الفاصلة للحرب الأهلية . وقد انتصر بها قيصر رغم أن قواته لم تزد على نصف قوات بومبيوس وذلك بفضل النظام الدقيق الذي كان يلزم قيصر به جنوده إلى جانب شجاعتهم المستمدة من ثقتهم التامة في قائدهم .

بعد هذه المعركة فر بومبيوس إلى مصر حيث قتل غدرا بينما هو ينزل إلى الشاطئ في مصر ، وعلى العموم وجد قيصر بعض المشاكل التي كان من نصيبه أن يقررها . وهي خلاف بين كليوباترا السابعة وأخيها بطليموس ١٣ حول العرش . أخذ قيصر جانب كليوباترا وأقامها ملكة على مصر ، مما عرضه إلى هجوم وحصار في الميناء قام به جنود بطليموس . في هذا الحصار أحرق جزء من أسطول قيصر في الميناء ، واقتربت النار إلى بعض أجزاء المكتبة في الاسكندرية على أي حال انتصر قيصر أخيرا وأصبحت كليوباترا ملكة . وأقام معها قيصر مدة ستة أشهر غادر بعدها مصر وملكتها الفتاة ليواجه مشاكل السياسة والحكم في روما .

وقبل أن يذهب إلى روما مر على سوريا وآسيا الصغرى لينظمها ويؤكد سلطانه في الشرق . وهناك سمع بتهديد من ولاية بنتس Pontus فذهب إليها في رحلة لمدة خمسة أيام أخضعها وأرسل رسالته المشهورة إلى روما التي تقول Veni Vidi, Vici حضرت ورأيت وانتصرت .

عاد إلى روما في خريف ٤٧ ق.م . وكان قد انتخب دكتاتورا بعد انتهاء عام قنصليته . وواجه بعض الاضطرابات في روما وخاصة فتنة حدثت بين جنوده الذين كانوا يستعجلون مكافآتهم ، فقضى قيصر على الفتنة والاضطرابات .

قبل بعض معارضي قيصر من الجمهوريين مثل ششرون حكم فارسالوس ، ورضوا بسيادة قيصر ، ولكن آخرين من أمثال كاتو ذهبوا إلى أفريقيا وأعلنوا العصيان ، فسار إليهم قيصر وقضى عليهم . وبعد ذلك في

العام التالي ، ذهب إلى اسبانيا وقضى على آخر معقل لأتباع بومبيوس حيث
كان ابنه قد جمع جيشا واستمر في مقاومة قيصر هناك . ولكن تمكن من
هزيمتهم في معركة مشهورة هي Munda سنة ٤٥ ق.م . وهكذا أصبح
قيصر سيدا للامبراطورية الرومانية بأسرها دون منازع .

وكتاتورية قيصر

سلطان قيصر :

إن قيصر لم يكن خلال كل هذا الصراع وهذه الحروب ليفوز بالنصر ويصبح سيد روما ، ثم تسير عجلة السياسة الرومانية كما كانت وهو سعيد بأن يكون على رأسها متمتعاً بالمجد . إن الخلاف بينه وبين الجمهوريين من السناتوس كان أساساً خلافاً حول نظام الحكم . الجمهوريون كانوا يسعون في عودة النظم الجمهورية الديمقراطية وما يصحبها من حريات للشعب الروماني . أي أنهم في أرقى مثلهم يريدون الحرية الدستورية لشعب روما ، وهذه يمكن أن توصف بأنها نظرة محافظة ضيقة ، لأنها لا زالت تفكر في الشعب الروماني فقط دون اعتبار لكافة شعوب الامبراطورية التي أصبحت روما الآن متحكمة في أقدارها .

كان يوليوس قيصر على النقيض من ذلك ، يرى أن نظام الجمهورية الرومانية قد أصبح ديمقراطياً من الناحية النظرية فقط ، وأن هذا النظام فشل في أن يزود روما بحكومة مستقرة لمدة مائة سنة تقريباً مما يسلب روما صفة القيادة والمسؤولية عن الامبراطورية .

كما أن هذا النظام قد فشل في حماية الامبراطورية وأن حكم

الولايات قد غدا جهازا للاستغلال والظلم . إن خيال يوليوس قيصر كان يمتد إلى آفاق أبعد من حدود روما ؛ ويبدو أن إقامته عشر سنوات في الغالة قد وسعت من نظرتة ورأى أن الحكومة في روما مسؤولة أيضا عن الولايات . وبعبارة أخرى كان يوليوس قيصر يرى أن موضوع السياسة الرومانية هو إيطاليا والامبراطورية بأسرها وليس روما فقط كما كان يفعل السناتوس وأشياعه ، وهذا هو الفارق الأساسي بين الفريقين . هذه النظرة الشاملة تظهر جلية لكل من يقرأ كتاب يوليوس قيصر عن الحروب الأهلية . فهو في البداية يبدو على أنه حريص كل الحرص على تجنب الحرب وكان Bellum Civile, 129 على استعداد أن يستجيب لكثير من مطالب خصومه وأن يعود الأمر للسناتوس والشعب الروماني وتقام انتخابات حرة إذا قبل الطرفان إلقاء السلاح .

وبعد أن تقوم الحرب الأهلية ويذهب أثناء عودته من اسبانيا لأول مرة ، Bellum Civile, 1.35 إلى مارسيليا (وكانت قد اتخذت جانب بومبيوس) يبعث إلى أهلها رسالة يقول فيها : « يجب أن يتبعوا سلطان إيطاليا بأسرها ، لا أن يخضعوا لإرادة شخص واحد » (يقصد بومبيوس) ، هنا نلاحظ أنه يذكر سلطان إيطاليا وليس سلطان الشعب الروماني كما هي العادة .

وفي المرحلة الأخيرة من الحرب ، يبعث قيصر خطابا إلى أسكيو ليكسبه إلى جانبه وأن يعمل معه على إنهاء الحرب . هذه الرسالة تكشف لنا للمرة الثالثة نظرة قيصر الجديدة إلى السياسة الرومانية فهو يقول إذا تعاون أسكيو معه سوف يعم الهدوء في إيطاليا والسلام في الولايات والأمن في الامبراطورية . وليس هناك ذكر إطلاقا لروما أو الشعب الروماني . . وإنما الاتجاه كله نحو إيطاليا والولايات .

نقول إن هذه وجهة نظر جديدة في السياسة الرومانية ويمكن أن يقال

إنها الفارق الحقيقي بين طريقة تفكير قيصر وطريقة التفكير التقليدية الرومانية التي كان يتزعمها السناطوس .

فحين خاض قيصر الحروب الأهلية كانت له سياسة جديدة . من أجل تنفيذ هذه السياسة رأى أنه يحتاج لسلطان مطلق في الدولة . وقد تم له هذا عن طريق تولي السلطة الدكتاتورية أولا سنة ٤٦ ق.م . لمدة عشر سنوات وبعد ذلك لدى الحياة في العام التالي . وفوق هذا السلطان زاد من سلطانه أيضا عن طريق تولي مجموعة مناصب في نفس الوقت مثل القنصلية عدة مرات ، والتريبونيه التي تجعل شخصه مقدسا لا يمس ، والكهانة التي تجعله الرئيس الديني للدولة والكنسورية التي تمكنه من مراجعة عضوية السناطوس ، كذلك اكتسب حق تعيين نصف الموظفين سنويا . وبعبارة أخرى استكمل قيصر سلطانه المطلق على الدولة مدى الحياة . ومع ذلك رفض لقب ملك ، ولعل ذلك مراعاة فقط للشعور الروماني الذي كان يكره الملكية .

إصلاحات قيصر :

رغم أن إقامة قيصر في روما منذ أن بدأت الحروب الأهلية لم تزد على ١٦ شهرا فإنه استخدم هذا السلطان المطلق لتنفيذ سياسته الجديدة التي ظهرت في سلسلة من التشريعات الثورية .

السناطوس :

من ذلك أنه سمح باستمرار الجمعيات التشريعية ولكنه منحها سلطة محدودة وجعل السناطوس مجرد هيئة استشارية . وقد زاد عدد أعضائه من ٦٠٠ إلى ٩٠٠ مضيفا أفراد من طبقة الفريسيان ومن جنوده القداماء . وكذلك أفراد من ولاية الغالة . ولعله كان يهدف أن يجعل السناطوس بمرور الزمن ممثلا لكل الامبراطورية .

الولايات :

كذلك اهتم كثيرا بنظام حكم الولايات وعمل على إصلاحه ، فقرر إلغاء نظام الالتزام في جمع الضرائب ، وفرض بدلا منه ضريبة سنوية . حتى يمنع الرأسماليين من استغلال الولايات . . وأتبع ذلك بتعيينه حكاما وموظفين أكفاء في الولايات وشدد عليهم الرقابة كما زود الجهاز الاداري في الولايات بعدد من عبيده المحررين مما يضمن نفاذ إرادته بدقة .

توسع في منح المواطنة الرومانية للولايات وخاصة إلى أسبانيا والغالة كما منح المواطنة اللاتينية لكثير من المدن في الولايات . ومن المحتمل أن هذا الاتجاه كان يهدف إلى تعميم المواطنة الرومانية بين سكان الامبراطورية وهو ما لم يتحقق إلا بعد ٢٥٠ سنة .

أنشأ عددا من المستعمرات الجديدة في البحر الأسود وفي موقع كورنثة وقرطاجة واسبانيا .

التقويم الروماني :

من أخلد أعمال قيصر هو تغيير التقويم الروماني الذي كان يقوم على السنة القمرية ٣٥٥ يوما واتخاذ التقويم المصري الذي يقوم على السنة الشمسية ٣٦٥ يوما على أن يضاف إليها يوم كل أربع سنوات . وجعل السنة تبدأ في يناير بدلا من مارس ، وأطلق اسمه على الشهر الذي ولد فيه وهو شهر يوليو . وهذا الاصلاح لا يزال باقيا إلى الآن بعد أن أضيف عليه تعديل البابا جريجوري الكبير سنة ١٥٨٢ م .

روما :

إلى جانب هذا اتخذ خطوات نحو تجميل روما ، فجعل لها أسواقها الفسيحة وأنشأ أول مكتبة عامة في روما ، وشيّد معابد كما وسع ميناء

أوستيا ميناء روما . وبدأ بتجفيف المستنقعات وبناء الطرق وما إلى ذلك من اصلاحات .

مصر ع قيصر :

ظل عدد من الأشراف ينقم على قيصر مجده ، ويتوقون إلى استعادة سلطانهم القديم . خاصة وأن سياسته اتخذت ذلك المظهر الدكتاتوري الذي لم يسمح بقيام أي شخص آخر غيره في الدولة . فتألفت مؤامرة ضده من ٦٠ عضوا من السناطوس وفي سنة ٤٤ ق . م . كان يستعد لقيادة حملة ضد البارثيين ، ولكنه حين دخل إلى مجلس السناطوس في ١٥ مارس Ides of March^١ التف حوله المتآمرون عند تمثال بومبي وطعنوه حتى الموت . ورغم أن المتآمرين قد اغتالوا قيصر لانقاذ الجمهورية، ولكن الجمهورية لم تعد أبدا إلى روما بعد ذلك، بينما بقي اسم قيصر خالدا، وأصبح لقبا للأباطرة من بعده في روما، ثم لقيا لأسر ملكية. كثيرة مثل قيصر النمسا ألمانيا وتزار الروسيا قبل الثورة .

الفصل الرابع

التمهيد لاقامة الامبراطورية

الإتفاق الثلاثي الثاني :

أعضاء السناتوس الذين تأمروا على قتل قيصر ، اتهموه بأنه كان يسعى إلى تحويل الجمهورية الرومانية ، إلى مملكة على غط الممالك الشرقية ، يكون هو ملكها وكليوباترا ملكتها . ونحن لا نعرف على وجه التحديد مدى صحة هذا الاتهام ، ولكن ما تمتع به قيصر من سلطات وصلاحيات سياسية وعسكرية ، لم يسبق أن تمتع بها حاكم جمهوري من قبل . ولكن هناك دليل واحد على أن قيصر كان ينظر إلى سلطانه على أنه وراثي ، وهو أنه قبل مصرعه بينما كان يستعد لحملة إلى الشرق ، كتب وصية جعل فيها حفيد أخته المسمى « جايوس أوكتافيوس » Gaius Octavius ابنه بالتبني ، وأورثه الجزء الأكبر من ثروته . هذا دليل واضح على أنه نظر إلى أوكتافيوس باعتباره وريثه وخليفته في مركزه . وقد سبق لأوكتافيوس أن ذهب مع قيصر إلى أسبانيا ووقت مصرع قيصر كان قد أرسل إلى اليريا في البلقان ليكمل تعليمه وليتلقى مزيدا من التدريب العسكري .

هذا هو آخر إجراء قام به قيصر ويدل دلالة واضحة على أن قيصر لم يكن يتصرف طبقا لتقاليد الدستور الروماني . ونحن نعرف أن قيصر في

سياسته طيلة حياته ، كان يسلك سياسة معادية ضد السناتوس ، وكان ذلك يعني في أغلب الأحيان ، عدم إقامة أي وزن للدستور الروماني . وبعدما حصل عليه قيصر من سلطات استثنائية وبعد انتصاراته المتلاحقة وخاصة على مجلس السناتوس بعد انتصاره على بومبيوس ، يبدو أنه قد اطمأن على أنه قد اخضع السناتوس نهائياً ، بل ربما اعتقد أن مهمة السناتوس في الدولة قد انتهت . وربما ابقاه من ناحية الاسم ، مؤقتاً ، ريثما يفرغ من حملته في الشرق . وواضح أن قيصر كان قد أساء التقدير ، وأن السناتوس ، رغم ما أصابه من ضعف وانكسار ، كان لا يزال يؤمل أن قيصر هو العقبة الرئيسية في وجهه ، وأنه - أي السناتوس - إذا لم يكن قادراً على مواجهة قيصر عسكرياً فليواجهه بالخديعة والتآمر . وهذا هو ما حدث ، كما سبق أن رأينا في منتصف مارس / آذار سنة ٤٤ ق م . ولا بد أن المتآمرين ، بقيادة « ماركوس بروتوس » و « كاسيوس » توقعوا أنه بمجرد ما يقضى على قيصر ، تؤول السلطة الشرعية في الدولة تلقائياً إلى السناتوس . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث فإن « ماركوس انطونيوس » الذي كان يتولى منصب القنصل في ذلك العام ، و « ليبيدوس » قائد سلاح الفرسان ، كانا يمتلكان قوة عسكرية توليهاما الولاء المطلق مما مكنهما من احباط أي تحرك نحو السلطة من قبل السناتوس . وازداد موقف المتآمرين حرجاً عندما أصبح من الواضح أن عامة شعب روما كانوا ضدهم ، فإن هؤلاء العامة استطاع انطونيوس ان يكتسبهم إلى جانبه بعد أن قرأ لهم ما تضمنته وصية قيصر من الهبات التي أورثهم إياها .

ولكن اتباع قيصر لم يكونوا أسعد حالا ، فسرعان ما دار في عقول الجميع السؤال الذي يفرض نفسه وهو من يكون خليفة قيصر ولم يفكر واحد منهم على الإطلاق في شخص أوكتافيوس ، ذلك الصبي الذي كان في الثامنة عشرة من عمره وكان قد ورث ثروة وإسم قيصر وكان متغنيا في

البلقان وبدا منذ اللحظة الأولى أن انطونيوس ، القنصل كان أقدر الجميع على العمل والتحرك . وقد رأى انطونيوس أنه من الحكمة في ذلك الظرف المفاجيء الا يدخل في صراع صريح مع السناطوس طالما أن نوعا من الاتفاق يمكن الوصول إليه . وكان السيناتوس مستعدا لمثل هذا الأمر وصدرت التشريعات التي تقرر كل أعمال قيصر . وما من شك أن هذا التصرف كان من نوع ردود الفعل السريعة أمام هول المفاجأة وحتى يستبين كل جانب طريقه وبعبارة أدق ، ريثما يحصل لنفسه على القوة العسكرية التي تمكنه من خوض الصراع . ونجح أنطونيوس في هذه الأيام الأولى من ذلك الوفاق المؤقت مع السناطوس من اتخاذ بعض القرارات التي تحقق مصالحه . فمنها مثلاً ، حصوله على ولاية الغالة لنفسه بدلا من مقدونيا التي كان قيصر قد قررها له ، ونقل «ديكي موس بروتس» احد المتآمرين من الغالة إلى مقدونيا دون أن يكون له قيادة عسكرية . وبالإضافة إلى ذلك استطاع أن يمد سلطانه في حكم الولاية «دولابيل» من سنتين ، حسب قرار قيصر ، إلى ست سنوات . أما ليبيدوس فأرسله إلى أسبانيا ليواصل الحرب ضد ابن بومبيوس الذي كان معتصما هناك بقوة عسكرية .

ولكن انتصارات انطونيوس هذه لم يكتب لها البقاء واستطاع ماركوس بروتوس وكاسيوس ، زعماء المتآمرين ، ان يرحلا إلى الشرق ضمًا إلى صفوفهما جيوشا رومانية هناك من مقدونيا ومن آسيا الصغرى ، استعدادا لمواجهة انطونيوس . اما في ايطاليا ، فقد تحطمت جميع خططه وآماله بظهور جايوس اوكتافوس على الأرض الايطالية ، الذي كان قد أعلن قبوله لورثة قيصر بكل ما تتطلبه من التزامات ، وما إن وصل إلى ايطاليا حتى طالب انطونيوس بان يرد له الأموال التي كان قد استولى عليها من خزائن قيصر ؛ وباعتباره ابنا لقيصر (بعد أن أعلن اسمه الجديد جايوس يوليوس قيصر أوكتافيانوس Gaius Julius Ceasar Octavianus) طلب بأن يشارك في تولي سلطة الحكم في الدولة . رفض انطونيوس جميع

هذه المطالب ، واضطر أوكتافيانوس ان يثبت أنه قادر على أن يصون حقوقه ، وازداد الموقف حرجا عندما التف حول أوكتافيانوس أعداد كبيرة من جنود قيصر القدامى ، وانضم إليه إثنان من الفرق الرومانية من التي كان استدعاها انطونيوس من مقدونيا . وبلغ التعقيد أوجه عندما عرض اوكتافيانوس أن يتعاون مع السناتوس ضد انطونيوس الذي كان يحاول طرد ديكيموس بروتوس بالقوة من شمال إيطاليا . ورحب شيشرون الذي تزعم حزب السناتوس ، بهذا التعاون مع أوكتافيانوس. وبدأ موقف انطونيوس يزداد حرجا وضعفا حينما هزم عسكريا في شمال إيطاليا ، وازداد شيشرون حماسا وأمل أن يتم التفوق على انطونيوس وبعد ذلك يهون امر أوكتافيانوس ا ولم يُخف نواياه هذه ، التي لم تكن خافية على أوكتافيانوس. وأخذ الموقف يتحرك في صالح أوكتافيانوس ، لأن الجيوش التي كان قد ارسلها السيناتوس ضد انطونيوس في شمال ايطاليا بقيادة القنصلين الجديدين لعام ٤٣ ق م ، انضم معظمهم - بعد مقتل القنصلين في الحرب - إلى جانب أوكتافيانوس . وازداد أوكتافيانوس ثقة بنفسه وشعر أنه أكثر حرية على العمل مستقلا وبدلا من أن يقود جيشه ضد انطونيوس في شمال ايطاليا ، سار به إلى روما وذلك لأن مجلس السناتوس كان قد رفض ان يمنحه القنصلية بصفة استثنائية لصغر سنه ، بالاضافة إلى إقامة موكب نصر له ومنح جنوده مكافآت مالية . ولكن ما أن وصل على رأس جيشه إلى أسوار روما ، حتى زالت كل معارضة وتم انتخاب أوكتافيانوس قنصلا في الحال . وكان من أول أعماله إصدار قانون بتطبيق العدالة على قتلة قيصر وإدانتهم غيايبا . وهكذا انهارت احلام السناتوس في أن يستعيد حكم ايطاليا كما أن الصدام الذي ترقبه الجميع بين أوكتافيانوس وانطونيوس لم يحدث . ونشطت جهود بين قادة حزب الشعبين بضرورة تدارك الموقف قبل ان ينهار وذلك بتوحيد صفوف اتباع قيصر ضد العدو الحقيقي وهو السناتوس . واجتمع الزعماء الثلاثة ، انطونيوس وليبيدوس

واكتافيانوس بالقرب من بولونيا في شمال إيطاليا ، وتم الاتفاق بينهم على أن تتشكل منهم لجنة ثلاثية لاعادة تنظيم الدولة ، وأن يتمتعوا بسلطان غير محدود *tresviri reipublicae constituendae* ، وقسموا الولايات الغربية فيما بين ثلاثتهم وكلف أوكتافيانوس وانطونيوس بقيادة الجيوش ضد بروتوس وكاسيوس ، بينما ترك ليبيدوس لحماية الأرض الإيطالية ، وصدر قانون في ٢٧ نوفمبر / تشرين ثاني سنة ٤٣ ق م . يمنح هذا الاتفاق الثلاثي الصفة الشرعية اللازمة ، وتحدد ان يستمر العمل به خمس سنوات . وبدأ عهد هذا الإتفاق الثلاثي الثاني واعادة تنظيم الدولة بعهد من الاضطهاد فاقت جميع الفئات التي شاهدها روما أيام ماريوس وسلا . وذهب كثيرون ضحية هذا الاضطهاد ومن بينهم شيشرون ، بينما فرّ من استطاع ان يفر من اعضاء السناتوس واتباعه ليلحق بقوى بروتوس وكاسيوس في الشرق ، أو لينضم الى سكستوس بومبيوس في صقلية . وكانت المواجهة الأخيرة بين الجانبين عند موقع « فيليبي » سنة ٤٢ ق م . وفي مرحلة مبكرة من المعركة شعر بروتوس وكاسيوس باليأس ، فانتحرا . وهكذا قضى نهائيا على آخر جيوش السناتوس ، وانتصر أوكتافيانوس وانطونيوس ؛ ولكن الحرب الأهلية لم تنته . فكان من الواضح أنه لن تستقر الأحوال مع وجود ثلاثة قواد على رأس الدولة . وتقرر ان يبقى انطونيوس في الشرق ليجمع مالا ويعود أوكتافيانوس إلى إيطاليا لبحث عن أرض ، بهدف أن يمنح المال والأرض لجنودهما . ولم تكن مهمة انطونيوس في الشرق سهلة ، لأنه كان فرصته الوحيدة للحصول على المال من الدولة الوحيدة التي لم تكن قد خضعت لروما بعد ، وهي دولة مصر ، والتي كانت تحكمها الملكة كليوباترا . وما من شك أن انطونيوس ، نظرا إلى حاجته الماسة إلى المال ، ليعينه على المحافظة على جيوشه ، رأى أنه يستطيع أن يحصل على ما يريد من مصر بالاتفاق مع كليوباترا سلمياً ، دون اللجوء إلى الحرب . ولا بد أيضاً أن كليوباترا قد أدركت ، بعقلها

اللماح ، مدى حاجته إليها ، وقررت أن تستغله إلى أبعد درجة . وهكذا بدأت علاقة معقدة بين الاثنين ، طابعها صداقة وعاطفة قوية ، وهدفها مصالح مشتركة . وفي الوقت نفسه ، بدأت العلاقة السياسية بين انطونيوس وأوكتافيانوس تتكشف عن حقيقتها . فطالب انطونيوس بأن يسمح له بالحضور إلى إيطاليا ليحصل على جنود جدد لجيوشه ، ليتمكن من مواجهة اعداء روما في الشرق وهم « البرثيين » في أرض الرافدين الذين ألغوا تهديد الحدود الشرقية لروما دائما . ورفض أوكتافيانوس ، وتوترت العلاقة بينهما وأوشكت أن تتحول إلى صدام صريح ، لولا تدخل الأصدقاء بينهما وأمكن اقناعهما بعقد اجتماع جديد في برنديزي سنة ٤٠ ق م لتجديد الاتفاق بينهما . وفي هذا الاجتماع ، اتفقا على أن يمنح انطونيوس حكم الشرق وأوكتافيانوس الغرب وشمال أفريقيا إلى لبيدوس . أما إيطاليا ، فبقيت شركة بين الجميع ، رغم أنه لم يقر بها غير وأوكتافيانوس . وتأكيذاً للتحالف بين المتنافسين ، تزوج انطونيوس من « أكتافيا » ، أخت أوكتافيانوس ، وذلك بعد أن توفيت زوجته الأولى « فلفيا » ، أما كليوباترا فلم يرد لها ذكر في هذه المناسبة . ووضعت هذه الاتفاقية موضع التنفيذ ، واستمرت ثلاث سنوات ، وفي اثنتائها عاد الفتور بين أوكتافيانوس وانطونيوس ، وكان من الممكن أن يقع صدام بينهما ، إلا أن انطونيوس كان مشغولا بحروبه ضد البرثيين . وشعر الجميع بضرورة تجديد الاتفاق واجتمعوا مرة ثالثة في « تارنتم » بجنوب إيطاليا سنة ٣٧ ق م . وقرروا تمديد سلطات المتفقين الثلاثة خمس سنوات أخرى . في هذا العام ، حقق أوكتافيانوس عدة انتصارات على آخر ممثلي الساتوس وهو سكتوس بومبيوس ، ابن بمبيوس العظيم ، وكذلك على لبيدوس الذي كان قد انشق عليه . وهكذا أصبح أوكتافيانوس سيد القسم الغربي من الامبراطورية ، دون منازع . وفي سنة ٣٦ ق م . تطورت العلاقة بين انطونيوس وكليوباترا واعلنا زواجهما . وبعد أن حقق انطونيوس انتصارا

جديدا على البرثيين وفي أرمينيا ، انتابته نوبة من الزهو واتجه إلى أن يوحد مصيره بمصير كليو باترا ، وقرر أن يمنح ابنائها منه بعض الولايات الرومانية في الشرق . ونحن لا نعرف على وجه التحديد ماذا كتب انطونيوس في وصيته التي بعث بها لتودع في احد معابد روما ، على عادة الرومان ، وكل ما نعرفه هو ما اعلنه أوكتافيانوس باعتباره وصية انطونيوس . ومن المحتمل أن تكون ما اعلنه أوكتافيانوس وصية مزيفة ، ولكن استطاع ان يقنع بها شعب روما وإيطاليا ، بدعوى أن انطونيوس كان قد قرر أن يحول الامبراطورية الرومانية إلى مملكة شرقية يحكمها هو وكليوباترا . وسخر جميع اجهزة الدعاية التي كانت متاحة له بأن هدف انطونيوس وكليوباترا ، إذا قُدر لهما الانتصار ، هو استعباد روما وإيطاليا . واستفاد أوكتافيانوس من جميع أخطاء خصمه واستطاع ان يجمع حوله جميع القوى الرومانية في الغرب وطالب إيطاليا والولايات بأن تقسم يمين الولاء لشخصه ليكون قائدها في الحرب ضد كليو باترا . وحدث شيء مشابه في الشرق ، إذ أخذ انطونيوس لنفسه قسما مماثلا من جيوشه ومن المواطنين الرومان المقيمين في ولاياته ومن الأهالي . ودار الصدام الأخير بين الجانبين في معركة « أكتيوم » سنة ٣١ ق م . وهي من أشهر المعارك البحرية في التاريخ وتقع عند خليج اكتيوم في غرب اليونان . واتضح منذ اللقاء الأول أن الغلبة لأوكتافيانوس، وسرعان ما فرّت كليوباترا بأسطولها ولحق بها انطونيوس وذهب الى مصر . وقبل ان يتمكن من تكوين جيش جديد ، فاجأها أوكتافيانوس الذي حضر عن طريق سوريا وفلسطين ، فانتحر انطونيوس ولحقت به كليوباترا .

الفصل الخامس

تأسيس الامبراطورية

عودة أوكتافيانوس الى روما :

في نهاية صيف عام ٢٩ ق م .عاد أوكتافيانوس إلى روما في موكب نصر عظيم . أقر مجلس السناتوس جميع أعماله ، وأعلن يوم ميلاده عيداً رسمياً في الامبراطورية ، كما قرر اقامة اقواس نصر في برنديزي وفي روما . وعلى مدى ثلاثة أيام متعاقبة سارت مواكب النصر ، تمثل انتصاراته الثلاثة في دلماتيا واكتيوم ومصر . وقد فاقت جميعها ما سبق ان اقيم ليوليوس قيصر من مواكب النصر ، بذخاً وجلالا . ولأول مرة في روما منذ نهاية الحرب البونية الأولى في سنة ٢٤١ ق م بقيت أبواب معبد الاله يانوس مغلقة دليلاً صامتاً ولكنه واضح للعيان .على استتباب السلام بالبر والبحر في جميع ارجاء العالم الروماني ، فقد كان التقليد المتبع في روما هو فتح أبواب هذا المعبد للصلاة والعبادة ما دام هناك جيوش رومانية تحارب وتغلق فقط في الأيام التي يستتب فيها السلم . وهكذا بعد اكثر من قرن من العنف والحرب الأهلية ، اصبح باستطاعة الناس ، لأول مرة ان يتنفسوا بحرية وان يحبوا وان يتمتعوا بالسلام والرخاء دون خوف من مصادرة الأملاك أو اوامر الاعتقال أو الموت البشع . ولكن إذا كان السلام قد ساد داخل الامبراطورية ، فقد كانت الحدود لا تزال بحاجة إلى حماية

بسبب تجمع المتبربرين وراء نهري الراين والدانوب أو بسبب هجمات البرثيين على حدود سوريا الشرقية .

كما كانت هناك مشكلة الجيوش الرومانية الذين كانوا يمثلون خطراً على الأمن والاستقرار في الداخل ، أكثر من خطر المتبربرين على الحدود ، وذلك خوفاً من مطامع القواد الطموحين . وللدلالة على مدى العبء الذي تمثله هذه الجيوش ، كان تحت إمرة أوكتافيانوس ، سبعون فرقة ، في حين أن أقل من ثلاثين فرقة كانت كافية للدفاع عن الامبراطورية . وكان عليه أن يحتفظ بهذا القدر من الفرق تحت سلطة عليا لا تنقسم ، ويسرح الباقي . وتسريح الجنود لم يكن بغير مشاكل ، فكان عليه أن يعمل على استيطان الجنود المسرحين لأكثر من أربعين فرقة ، وكان لا بد من أن يمنحهم أرضاً يستقرون عليها ، الى جانب منحهم المكافآت المالية المعتادة . وكان عليه أن يحقق ذلك كله ، دون أن يلجأ إلى مصادرة الأملاك الخاصة ، أو فرض ضرائب جديدة .

كما كان امامه مهمة أشد صعوبة وهي ، إعادة بناء الدولة التي كانت الحروب الأهلية قد تركتها مفككة على وشك التداعي والانهيار ، فلا بد من العمل على تكوين ادارة مركزية جديدة وإعادة مكانة السناتوس التي عمل يوليوس قيصر على محوها ، وتكوين ما يشبه مجلس الوزراء لادارة الدولة ، والابقاء على القيادة العسكرية العليا في يد رئيس الدولة ، واقامة ادارة مدنية للامبراطورية إلى جانب تنظيم الميزانية العامة ، واصلاح حكم الولايات والاشراف على السياسة الخارجية ، هذا مع العناية باحياء الاخلاق القديمة وبعث حيوية دين الدولة . وبالإضافة إلى هذا كله ، كان أمامه مهمة العثور على شخص صالح لخلافة الحكم .

هذه المهام كلها كانت كفيلة بأن تستنزف أكثر البشر طاقة وحيوية ، ولكن أوكتافيانوس ، الذي تميز بصحة ضعيفة ، علية ، استعاض عن

القوة البدنية ، بقوة ارادته الحديدية ، وتصميمه واتزان تفكيره واحساسه السياسي المرهف الذي اظهره منذ بداية طريقه الشاق في صعوده الى السلطة ولقد عاد أوكتافيانوس من الشرق ، بطلا معبودا من الشعب وله من المكانة والسطوة ما لم يتمتع به حتى يوليوس قيصر فالشرق والغرب مدينان له بالولاء ومرتبطان بشخصه بالقسم والمواثيق ، كما كانت له في وحده قيادة أفضل وأضخم جيش في تاريخ روما ، بالاضافة إلى تحكمه في موارد وأموال امبراطورية عالمية ، غنية ، فكنوز مصر وحدها ، التي استولى عليها ، كانت كافية لتقديم منح الأرض والمكافآت اللازمة لجنوده المسرحين . هذا بالاضافة إلى امكانيات مصر في إنتاج الغلال ، الذي كانت تستورده روما من قبل بالمال ، أصبح الآن يأتي إلى شعبها ، جزية مفروضة بالمجان .

ولعل من أهم ما تمتع به أوكتافيانوس ، فوق موارده المالية ، وسلطاته العسكرية وشعبيته بين الجماهير ، هو ما كان له من مكانة وجلال فريدين (وهو ما يسمى auctoritas) . ولم يجروا إنسان بعد ذلك ، على أن يفكر في منافسته في منصب أو زعامة ، وأصبح هو وحده على رأس الدولة ، مصدر كل حماية وسلطة في الامبراطورية .

ألقاب خاصة :

أول لقب اتخذهُ أوكتافيانوس في قائمة ألقابه المهيبة هو «قيصر»، الذي اتخذهُ إسمًا له بعد وفاة يوليوس قيصر مباشرة والعملة التي أصدرها تثبت بوضوح أنه احتفظ بهذا الإسم حتى بعد اكتيوم. فرغم أنه لم يعد في حاجة إلى الدعم الأدبي لهذا الإسم من أجل اجتذاب الجنود له، ولقد استبعده مؤقتاً، ومحاه من السجلات، ومع ذلك فقد كان لإسم «قيصر» مستقبل عظيم، لإقترن بالمجد والسلطان والحكم المطلق، وأصبح من بعد لقب كل أمبراطور من خلفائه، وبقي إلى الأزمنة الحديثة متمثلاً في قيصر ألمانيا والروسيا (Czar) حتى الحرب العالمية الأولى وقيام الثورة.

وثاني ألقابه، «إمبراطور» (Imperator)، والذي جعله أيضاً جزءاً من اسمه الرسمي، كان لقباً يتميز بالعراقه والإستعلاء. فكان القائد الأعلى للجيش المنتصر يحى دائماً «بإمبراطور»، وكان يحتفظ باللقب حتى بعد موكب النصر. تلقب به من قبل ماريوس وسلاً ويومبيوس ويوليوس قيصر، وتلقب به أوكتافيانوس نفسه سبعة وعشرين مرة في حياته لانتصارات حققها بنفسه أو بواسطة نوابه من القواد. وعلى خلاف قيصر

ويومبيوس وسائر قادة العصر الجمهوري الذين كانوا قد مُنحوا هذا اللقب، نجد أوكتافيانوس يتخذة إسماً يسمى به (Praenomen)، واحتفظ به بصورة مستمرة كجزء من اسمه الرسمي، مؤكداً بذلك ماضيه العسكري. ورغم أنه خلفاء المباشرين استبعدوا هذه التسمية (كما فعل تيربوس وكاليغولا وكلوديوس)، إلا أنه ابتداءً من فباسباسيان عادت كلمة «امبراطور» اللقب الرسمي لكل حاكم روماني، وكثيراً ما تسمى به الملوك من بعد في العصور الوسطى والحديثة.

هناك لقب ثالث لم يستخدم في التسمية الرسمية، ولكن ظل له أهمية خاصة بين ألقاب أوكتافيانوس، ذلك «رئيس الدولة» (Princeps civitatis)، وكثيراً ما يختصر إلى «رئيس» (Princeps) فقط، ومنه اشتق الاسم الذي أطلق على النظام السياسي الذي أنشأه أوكتافيانوس، (Principate) أي النظام الرئاسي، ومنه اشتقت أيضاً كلمة (Prince) بمعنى أمير). ورغم أن هذا اللقب استخدم بمعنى ملك أو إمبراطور، إلا أنه لم يكن له هذه الدلالة من قبل في العصر الجمهوري. أثناء الجمهورية كان لقب Princeps يعني dux، للقائد المنتصر، إذا كان قنصلاً سابقاً من أسرة نبيلة أو شريفة، وأصبح زعيماً للسناتوس، وهو شخص عادة يتميز بمكانة إجتماعية ومهابة وسلطان أدبي. ومن بين من تلقب «بالرئيس» في العصر الجمهوري كنكيناتوس (٤٦٠ ق.م. تقريباً)، وأسكيو الإفريقي (٢٠٥، ١٩٤ ق.م.)، وكاتون الكبير (١٩٥ ق.م.)، وإسكيو إميليانوس (١٤٧، ١٣٤ ق.م.)، وماريوس ويومبيوس ويوليوس قيصر... وغيرهم.

كان سلطان أو قوة أوكتافيانوس تقوم على أساس الجيش والشعب، وإعتمد حكمه على دعامين: السلطان البروقنصلي (Imperium Proconsulare) والسلطة التريبونية، الأولى منحتة سلطة قيادة الجيوش والثانية منحتة حق تمثيل الشعب مع التمتع بحق الاعتراض (Veto) على

أعمال السناتوس أو رجال الحكم مثل القناصل. وينبغي أن نلاحظ أنه تمتع بسلطان عسكري Imperium Maius أعلا من سلطان جميع حكام الولايات أو قادة الجيوش الرومانية فكانت أقاليم روما وإيطاليا ومصر وجميع الولايات التي كانت بها جبهات قتال تحارب فيها فرق رومانية، مثل إسبانيا والغالة وسوريا، جميعها كانت خاضعة لحقه المطلق في القيادة العسكرية Imperium Maius ، هذا الأميريوم الأعلى منحه سلطاناً مطلقاً على القوات المسلحة، وحرم القواد العسكريين من فرصة اغتصاب السلطة من الدولة ، وهي الظاهرة التي أدت إلى سقوط الجمهورية.

كان باستطاعة أوكتافيانوس - بفضل شعبيته منقطعة النظير أن يجعل نفسه دكتاتوراً أو حاكماً عسكرياً، ولكنه كان مصرّاً على أن يقتسم الحكومة مع السناتوس، طالما كان يتعامل مع السناتوس من مركز القوة. من أجل تحقيق هذا الهدف على أي حال قام في سنة ٢٨ ق.م. بتطهير السناتوس من الأعضاء الدخلاء من العناصر غير المرغوب فيها ، الذين ادخلوا في فترات الحرب الأهلية . وبلغ عدد من حرم العضوية في عام ٢٨ ق.م. مائتي عضو، ثم أعقب ذلك عمليات تطهير أخرى في عام ١٨ ق.م و ١٣ ق.م. ، وبذلك هبطت عضوية السناتوس من ٩٠٠ الى ٦٠٠ عضو. ثم وضع قواعد لعضوية السناتوس بحيث يجب أن على من يقترح لعضوية السناتوس أن يكون قد تولى الكويستورية من قبل وأن ينتمي إلى أسرة من اسر السناتوس وأن يكون متمتعاً بحسن الأخلاق، ولكن لعل أهم شرط بعد ذلك هو شرط النصاب المالي وهو ٨٠٠,٠٠٠ سستركيس (أي ما يزيد على ٧٠,٠٠٠ دولار)، ثم زيد النصاب بعد ذلك الى ١,٠٠٠,٠٠٠ سستركيس (أو ما يزيد على ٩٠,٠٠٠ دولار). كما جعل نصاباً ماليا لطبقة الفرسان يقدر بنصف النصاب السابق تقريباً، أي ٤٠٠,٠٠٠ سستركيس. وقد طبق سياسة يوليوس قيصر في السماح لأفراد أثرياء من البلديات الإيطالية ومن بعض المستعمرات الرومانية في الغالة

واسبانيا بدخول طبقة السنتاتوس وطبقة الفرسان. وسنجد الأباطرة من بعده يتوسعون في تطبيق هذه السياسة.

دستور عام ٢٧ ق.م.:

في الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) عام ٢٧ ق.م. وقف أوكتافيانوس أمام السنتاتوس - بعد أن تم تطهيره - وعرض عليهم التناحي عن جميع سلطاته وصلاحياته للسنتاتوس والشعب الروماني. هذا العمل الدرامي من جانب أوكتافيانوس كان يعني في ظاهره إعادة العمل بالنظم الجمهورية، وكما توقع أيضاً حرك الخوف في النفوس بدلا من الفرح. وكان رد فعل السنتاتوس هو رد سلطاته اليه على معظم أرجاء الإمبراطورية. ولفهم ما حدث في ذلك الاجتماع، يجب أن نذكر أن أوكتافيانوس، عندما هزم أنطونيوس، كانت قوته تعتمد على حقه وحده في سلطة القيادة العسكرية في الدولة. وعندما اعتزل سلطاته الإستثنائية في سنة ٢٧ ق.م. اعتزل كذلك سلطة القيادة للجيش. حقيقة إنه احتفظ بلقبه العسكري «امبراطور»، أما سلطة القيادة العسكرية فقد ردها عليه السنتاتوس في الحال. قد يتساءل الإنسان ماذا كان يفعل، إذا ما تصرف السنتاتوس على نحو آخر. ولكن من الواضح أن السنتاتوس لم يحاول أخذ السلطة العسكرية منه، ولعل السبب هو أن إرتباط الجيش بأوكتافيانوس كان من القوة بحيث لا يمكن الفصل بينهما بأي قرار من قرارات السنتاتوس. وبعبارة أخرى كان السنتاتوس مدركا انه إذا فعل ذلك، فعليه ان يواجه الجيش. ولذلك ما فعله السنتاتوس هو كل ما كان باستطاعته عمله وهو منح أوكتافيانوس الإمبريوم البروقنصلي لمدة عشر سنوات في جميع الولايات التي كان بها جيوش رومانية، باستثناء (شمال) افريقيا ومقدونيا، وعدد من الولايات الأخرى التي ليس بها جبهات قتال. وهكذا انقسمت الإمبراطورية الرومانية الى ولايات امبراطورية يحكمها أوكتافيانوس عن طريق وكلائه ومندوبيه، وولايات أخرى يعين السنتاتوس لإدارتها، كما كان

الوضع في الجمهورية، ممن بلغوا درجة البروقنصل او البروبريتوس. ومع ذلك أوكتافيانوس - في واقع الأمر - يمارس نوعاً من الإشراف على حكام ولايات السناطوس بفضل مركزه كرئيس للدولة Princeps وبفضل ما منح من السلطان العسكري الأعلى Imperium Maius .

وبعد ثلاثة أيام من هذا الاجتماع، اجتمع السناطوس ثانية ليعبر عن شكره واعترافه بالجميل تجاه أوكتافيانوس باعتباره باعث الجمهورية. وكانت القرارات التي اتخذها في ١٦ يناير (كانون الثاني) ٢٧ ق.م. هي وضع إكليل من الغار على أعمدة باب منزله، وأن يعلق في السناطوس درع ذهبي مسجل عليه فضائل أوكتافيانوس وهي الشجاعة - الرحمة - العدل - الإيمان . وكذلك تقرر أن يضيفي عليه لقب جديد يفوق جميع ألقابه السابقة بريقاً ومجد وهو لقب «أغسطس» Augustus وهو لقب اقتصر استخدامه من قبل على بعض الآلهة ، باعتبارها متميزة بالكمال والقدره على خلق ما هو أكمل وأفضل . وهذا هو أوكتافيانوس قد أوجد النظام الأكمل للدولة . وسوف يغلب عليه اللقب الجديد، ويصبح إسماً يخاطب به ويفضله على غيره من الألقاب والأسماء . ونظراً لشهرته بهذا اللقب، أصبح من المؤلف تسميته الآن بأغسطس.

وقد جرى اعسطس مجلس السناطوس في هذه المحاملات وزاد من سلطاته . فأعاد إليه الإشراف على الشؤون المالية . كما منحه سلطة القضاء في قضايا الإبتزاز في ولايات السناطوس . ورغم أنه أقر حق الجمعية القبلية في إصدار القوانين، سمح للسناطوس بإصدار قرارات لها قوة القانون دون إقرار الجمعية القبلية لها . وهكذا يمكن أن يقال إن السناطوس قد أصبح رسمياً شريكاً كاملاً في الحكم، ولكن في الواقع - كما لاحظ كل من المؤرخين تاكيتوس ديون كاسيوس - إن إجراءات إعادة الجمهورية لم تزد على أن تكون واجهة دستورية لنظام إمبراطوري اقترب من الحكم الفردي المطلق . وسواء أراد أغسطس للنظام الجديد أن يسير إلى الإستبداد

أم لم يرد، إن قوى الواقع الناجمة عن تكوين إمبراطورية عالمية قد وضعت حدا للنظام الجمهوري في روما. وواحد من هذه القوى هو الجيش، الذي بدونها لا يستتب أمن في الداخل ولا يسود سلام في الخارج. هذا الجيش أصبح الآن جيش الثورة وأغسطس هو قائد الثورة، وهو سيد الدولة وحارسها والمدافع عنها. وإن تحكمه في ذلك الجيش هو الذي منحه قوة وسلطة مادية واقعية لا يمكن إخفاؤها وراء واجهة زائفة بإعادة الجمهورية.

كان لأغسطس حق دعوة السنتوس، وإدارة أعماله وتطهير أعضائه، وحق رئاسة عمليات الانتخاب في الجمعيات الشعبية واقتراح أو التوصية باسماء المرشحين، وحق الاعتراض على أعمال جميع الموظفين وأصحاب المناصب في الدولة، وحق الإشراف على القضاء، وله أن يقبل أية شكوى باعتباره أعلى سلطة قضائية في الامبراطورية. وفوق ذلك كان شغل وظيفة «رئيس السنتوس» (Princeps Senatus)، وهو منصبه يمنحه الحق في أن يكون أول المتكلمين وبذلك يوجه القرارات.

ومن وجهة نظر السنتوس، فلعل أكثرية أعضائه لم تكن راغبة حقاً في إعادة الجمهورية. فجميعهم يعرفون ما انتهت اليه الجمهورية من فوضى واضطهاد وحرب أهلية. كما أن مجرد التحكم في الجيش ومشكلة الدفاع عن الامبراطورية كانا يبدوان مهمتين مستحيلتين لأكثر الأعضاء. وكان هناك دائماً شبح أبطال الحرب المنتصرين مثل ماريوس وسلاوبومبيوس وقيصر قد يعودون الى تمزيق الدولة. ثم هناك جبهات حرب لا زالت مشتتة، فإسبانيا ما زالت غير آمنة ولم يتم إخضاعها، وكذلك الغالة في حاجة الى إعادة تنظيم، وسوريا يخشى عليها من هجمات البارثيين ووراء حدود الراين والدانوب قبائل متبربرة تتحين الفرص لتتقض على أراضي الامبراطورية. من لكل هذه الانجازات الملحة

غير أغسطس، بما له من سلطان عسكري على الجيوش، ودون ان يصيب الدولة بحرب أهلية جديدة.

إيجاد نظام للحكم في شكل مجلس:

منذ عام ٢٧ ق.م. تمكن أغسطس من تعيين لجنة من السناتوس لمعاونته في إعداد جدول أعمال اجتماعات السناتوس. وكانت هذه اللجنة، التي كانت تتكون من القنصلين وممثل واحد عن كل من مناصب الحكم الأخرى في سلك المناصب السياسية الشرقية المعروفة اصطلاحاً باسم *Cursus Honorum*، ومعهم خمسة عشر يجتارون بالقرعة من بين أعضاء السناتوس، تتغير كل ستة أشهر. ويعد أن أعيد تنظيمها في عام ١٣ ميلادية وأضيف إليها أعضاء من أسرة الامبراطور ومن طبقة الفرسان، أخذت هذه اللجنة تمارس مهاماً كانت من قبل من اختصاص السناتوس ذاته. ورغم ذلك فإنها لم تصبح مجلساً للحكم بمعنى الكلمة. فكانت اجتماعاتها علنية الى حد ما، وكانت مجرد هيئة إدارية، وليست هي التي ترسم سياسة الدولة.

أما أصول مجلس الحكم الذي عرف في الامبراطورية فيما بعد، فلم تكن تلك اللجنة البسيطة المتغيرة من السناتوس، وإنما تمثلت في مجموعات صغيرة من كبار الإداريين، وأصدقاء أغسطس المقربين، وذوي المكانة الرفيعة من أعضاء السناتوس، وخبراء القانون وغيرهم من الإخصائيين، الذين كانوا يجتمعون بطريقة غير رسمية في اجتماعات مغلقة. هؤلاء كانوا يقررون سياسة الحكومة، والتشريعات التي تعرض على اجتماعات السناتوس والجمعيات الشعبية، والمرشحين الذين ينوي أغسطس إقتراح اسماءهم في الانتخابات التالية، والحاكم التالي لهذه الولايات او تلك، وجميع الامور التي تتعلق بالمالية العامة والشؤون الخارجية والقانون والدين وإدارة الامبراطورية.

الجهاز الإداري للامبراطورية:

من إنجازات أغسطس الكبرى تكوين جهاز إداري دائم، وهو عمل بدأ مبكراً في حكمه، ولم يكن قد استُكمل عند وفاته. فإن جهوده المتصلة الوثيدة لإعداد الإداريين المدربين، والذين كانوا يتقاضون رواتب، هي التي مهدت لإقامة طبقة الموظفين في الإمبراطورية، والتي مكنت الأباطرة المتأخرين من التحكم في إدارة الدولة الرومانية العالمية.

ولم تكن فكرة الجهاز الإداري جديدة تماماً. فمنذ الحرب البونية الثانية، كان قد اعتاد حكام الولايات والمسؤولين عن إدارتها، وكذلك أصحاب الضياع الكبيرة المبعثرة في أرجاء متباعدة استخدام المحررين من العبيد والعبيد الذين يمتلكونهم كسكرتاريين ومحاسبين ومديري أعمال لهم. ولقد استعان بومبيون بمثل هذه العناصر في إدارته لتموين روما بالقمح، وفي حكم ولاياته. وكان أغسطس قد ورث من يوليوس قيصر جيشاً جراراً من العبيد المدربين والوكلاء الشخصيين، الذين كانوا نواة النظام الإداري المعقد الذي نشره فيما بعد على الامبراطورية بأسرها. فلم يحدث من قبل أن كانت هناك حاجة ملحة إلى جهاز إداري كما حدث في عصر أغسطس، سواء في روما أو إيطاليا. في روما، من أجل الإشراف على الخدمات الحيوية مثل إمداد روما بالقمح (Cura Annonae)، وتوزيع القمح على المواطنين الرومان (Frumentario)، وإمداد روما بالماء (Cura aquae) والشرطة والإطفاء، ومنع الفيضانات، ورصف وصيانة الشوارع والأسواق، وإقامة وترميم المعابد والمباني العامة. وفي إيطاليا، من أجل المحافظة على الأمن والنظام، وتشديد وصيانة المنشآت العامة مثل الطرق والكباري، أما في الولايات، فمن أجل إدارة الممتلكات الخاصة بالامبراطور، جباية الضرائب، وتزويد الجيوش بالإمدادات والتموين، المنشآت العامة وبرد الامبراطور (Cursus Publicus)

أعضاء السانتوس في جهاز الادارة:

عين أغسطس في التنظيم الذي استحدثه للجهاز الإداري افرادا من جميع الطبقات الإجتماعية: أعضاء السانتوس، فرسان، المحررين وكذلك العبيد. فرئيس الشرطة (Praefectus urbi)، الذي كان تحت امرته قوة من رجال الامن من ثلاثة فصائل، قوة كل فصيلة ألف رجل، كان في البداية دائما من طبقة السانتوس من فئة القناصل، وكذلك كان مدير هيئة المياه، الذي عينه أغسطس في عام ١٢ ق.م. يعاونه عضوان من السانتوس و٢٤٠ عبدا كان قد دربهم أجريبا لخدمة قناطر المياه ومحطات مياه المدينة. وهيئة أخرى من خمسة اعضاء من السانتوس تولت أمر مشكلة الفيضان على طول التير. عضوان من السانتوس من طبقة القناصل كانا يرأسان حتى عام ٦ ميلادية الهيئة الهامة الخاصة بإمدادات القمح، والتي كان لها مكاتب فرعية في ميناء بيوتولي، وكذلك في الولايات المنتجة للقمح.

معظم أعضاء السانتوس المعينين في الهيئات السابقة كانوا من طبقة البريتورين. فعدد البريتورين السابقين كان أكثر من عدد القناصل السابقين في هيئة المياه، وهيئة توزيع القمح التي أقيمت سنة ٢٢ ق.م. وفي الإدارة المسؤولة عن المباني العامة في روما، وفي الإدارة التي عينت في عام ٢٠ ق.م. للإشراف على بناء الطرق وصيانتها في جميع أرجاء إيطاليا. وفوق ذلك، كان معظم حكام الولايات والوكلاء Legati في الولايات الامبراطورية كانوا من هذه الطبقة.

طبقة الفرسان في الجهاز الإداري:

رغم أن أغسطس، وخاصة في بداية فترة رئاسته (Principate)، عين أعضاء السانتوس في مناصب بارزة ومرموقة، إلا انه إختار لكثير من مناصب الإدارة العليا إداريين من طبقة الفرسان. وكان للفرسان خبرة

قيمة، وخاصة في شؤون المال والضرائب والتجارة، مما كان يعوز أعضاء السانتوس. فلمدة تزيد على قرن من الزمان كان الفرسان يستغلون مصادر الثروة الطبيعية في الامبراطورية من مناجم وغابات ومصايد أسماك، وكانوا قد أقاموا احتكارات لأنفسهم في أعمال البنوك والملاحة والصناعة والتجارة، وعن طريق الشركات التي كونوها لجباية الضرائب، كانوا قد اعتصروا الضرائب من الولايات من غير رحمة أو شفقة.

والآن بعد أن قيّدت نشاطهم إصلاحات يوليوس قيصر وأغسطس، كانوا سعداء بالفرصة التي أتاحت لهم لأداء عمل أكثر نفعاً وأكثر شرفاً ومن جانب أغسطس، رحب بخدماتهم لأنه اعتقد أنه كان يستطيع أن يعتمد عليهم، دون أن يخشى خطرهم السياسي، كما كان الحال بالنسبة لأعضاء السانتوس، وأنهم كانوا أكثر اعتماداً عليه ليفوزوا بالحماية والمناصب ومجالات العمل المتاحة أمام طبقة الفرسان، كانت في الجيش والقضاء والمالية والإدارة.

في مجال الخدمة العسكرية، كثيراً ما تفاوتت واختلقت مدتها طولاً وقصراً. ففارس مثل المؤرخ فيليوس باتركولوس (Velleius Paterculus) كان يمضي عادة ثماني سنوات في الجيش، في حين أمضى غيره مدداً أطول. وبعض الفرسان إختار الجندية عملاً مدى الحياة. كثيراً ما تولى أفراد من طبقة الفرسان قيادة فرق رومانية، (Legiones Romanae) التي كانت تتكون منها الحامية العسكرية في ولايات الحدود وخاصة في مصر، التي كان محرمًا على أعضاء السانتوس دخولها بغير إذن الإمبراطور شخصياً. بعد عام أو عامين من الخدمة في الجيش النظامي، بعض الأعضاء الفرسان عملوا في سلك النيابة القضائية التي كانت جزءاً من الإدارة المدنية، وبعض آخر عملوا ضباطاً في «الحرس البريتوري» (وهو الحرس الإمبراطوري، المسؤول عن حفظ الأمن والنظام في روما

وإيطاليا) ، أو في شرطة المدينة أو فرق الإطفاء ، بنسبة أكثر مشرفين ماليين (Procuratores) أو مندوبي الامبراطور في الولايات .

في الولايات الامبراطورية ، كان المشرف المالي (أو البروكوراتور: Procurator) هو المندوب المالي للامبراطور ، فهو المسؤول عن جباية الضرائب ودفع الأجور ، أما في ولايات السناطوس ، فهو القائم بأعمال المندوب المالي ، ومدير أملاك الامبراطور ، ويقوم بجمع الإيرادات منها . وهو فوق ذلك يقوم بمهمة المراقب الخاص . فكان على الوالي الفاسد أن يكون في غاية الحذر ، خشية ان يتعرض للجزاء الصارم عند انتهاء فترة ولايته . فأحيانا كثيرة كان المشرف المالي (Procurator) أكثر قوة ونفوذا من والٍ حتى إذا كان قنصلا من قبل ومن طبقة السناطوس . وكان يحق للمشرف المالي Procurator أن يحكم ولاية ، وخاصة إذا كانت في المناطق المتخلفة المضطربة على الحدود مع المتبربرين ، أو إذا كانت ذات ظروف خاصة مثل مصر أغنى الولايات وأكثرها أهمية فكان والي مصر يتمتع بمكانة وسلطان يجعله موضع حسد من أكثر ولاة طبقة السناطوس شرفا وكبرياء .

ويلى منصب والي مصر (بريفكتوس Praefectus) ، منصب رئيس قوة الحرس البريتوري (أو الامبراطوري) Praefectus Praetorii الذي أصبح فيما بعد رئيس اركان جميع الجيوش ، ورئيس الإدارة المدنية ، وأعلى محكمة للاستئناف في الامبراطورية ، وأخيرا كان المتحكم في عملية تعيين وعزل الأباطرة ، وأحيانا إعتلى العرش بنفسه .

ووجد كذلك منصبان بدرجة پريفكتوس لطبقة الفرسان ، ابتداء من عام ٦ ميلادية ، ورغم انها كانا أقل أهمية ، إلا أنها كانا يمكنان الشاب الطموح للقفز إلى المناصب الأعلى . احدهما المشرف على تموين الغلال والآخر المشرف على قوة الحراسة الليلية Vigiles ، الذين كانوا يحرسون شوارع المدينة ليلا ، ويحمونها ضد اعمال الشغب والحريق .

تعيين المحررين من العبيد في الإدارة المدنية:

لم يكن صعود أعضاء طبقة الفرسان في مناصب الإدارة المدنية سريعاً ولا مثيراً كما حدث بالنسبة للمحررين من العبيد، الذين استطاع بعضهم أن يصل إلى مناصب أكثر قوة من تلك التي تولوها فرسان أو أعضاء السناتوس أو قناصل أو حكام ولايات. ولم تكن حالهم في بداية الأمر، ففي البداية تولى المحررون من العبيد الأعمال الأكثر تواضعاً. ولكن استعدادهم لطاعة ما يصدر لهم من أوامر، وخضوعهم وولاؤهم، كان أهم ما تميزوا به. ويفضل ما تحلوا به من جلد على العمل الشاق وعدم التبذير والولاء والذكاء تمكن العبيد المحررون أن يشقوا طريقهم في الإدارة وتولوا مناصب ذات ثراء وسلطان.

فمثلاً كانت الأعمال الكتابية للمراسلات الإمبراطورية احتكاراً لهم ونتيجة لازدياد احتياجات وتعدد إمبراطورية عظمى، ثبت نهائياً أن الخدمات التي قام بها المحررون أكثر لزوماً للإدارة الإمبراطورية من القيادات العسكرية وحكم الولايات. فقد كان العمل الروتيني للمصالح أو المكاتب المختلفة التي أوجدها أغسطس، في حاجة إلى أعداد كبيرة من المحاسبين والمراقبين والسكرتيريين، والكتبة. وتولى المحررون في هذا التنظيم الضخم الأعمال الأكثر أهمية والأكثر أجراً، في حين تولى العبيد الأعمال الأكثر تواضعاً والأقل أهمية. فمكاتب أو أقلام السكرتارية المختلفة، التي كانت أهميتها بالنسبة للإمبراطورية الرومانية كأهمية وزارة الخارجية أو المالية أو الحرب أو التجارة في الدول الحديثة، ظلت دائماً احتكاراً لطبقة المحررين ومصدر قوة كبرى لهم. وسرعان ما أصبح المحررون هم المسؤولون عن إدارة الإيرادات والمصروفات في الإمبراطورية: الذهب من إسبانيا ودمتيا، القمح من أفريقيا ومصر، والضرائب والجزية من الولايات والملوك التابعون لروما، اللؤلؤ من المحيط الهندي، وكل ما تحمله السفن من ثروة عبر البحار السبع.

وبسبب مهارتهم وكفاءتهم وخبرتهم في الأعمال الحسابية وتمرسهم في فن الملئ أيضاً، سرعان ما أصبحوا هم الذين يقررون ما تنفقه الدولة في المجالات المختلفة: السلاح وقناطر الماء والمعابد والقصور والمباريات والاحتفالات ، او الطرق والكباري والموانئ، أو يقررون أيضاً درجة نقاء ووزن العملات الذهبية والفضية، أو مقدار ما يجب أن تدفعه الولايات من الضرائب والجزية، حتى الرواتب التي يجب دفعها للولاة ورؤساء الإدارات العسكرية (Praefectus) والمشرفين الماليين (Procurator) وغيرهم من أعضاء الإدارة المدنية.

وأخيراً شرع محررون معينون في مناصب عليا في تلقي الإلتماسات والرجوات من جميع أرجاء الامبراطورية: شكاوي ضد الإبتزاز من مجالس الولايات، طلبات لتولي مناصب مدنية أو كهنوتية، ورجوات لعنق العبيد، إلتماسات لأوسمة من الامبراطور. ونظرا لتحكم هؤلاء المحررين في تقديم أو عدم تقديم مثل هذه الإلتماسات للامبراطور، أصبح هؤلاء الموظفين من المحررين يشعرون انهم في مركز الحماية وأصحاب السلطة.

تسوية عام ٢٣ ق.م.

أغسطس في الغالة وإسبانيا:

بمجرد ما ان انتهى أغسطس من اقرار تسوية ٢٧ ق.م. حتى خرج قاصدا الغالة واسبانيا ذلك ان اسبانيا لم يكن قد تم إخضاعها تماما وكانت بعض القبائل المتبربرة تقاوم الحكم الروماني وتهاجم الأقاليم الآمنة المستقرة. في الشرق والجنوب وفي عام ٢٦ ق.م. تمكنت ثلاث جيوش رومانية من محاصرة القبائل المتمردة في إسبانيا وإلزامها بموقف الدفاع مما جعل هذه القبائل تمارس نوعا من حرب العصابات ضد أغسطس الذي تحمل كثيرا جدا من العناء وشعر انه غير قادر على الاستمرار في تحمل مسؤولية القيادة بنفسه بسبب ضعف صحته واضطر على ان يعهد بالقيادة الى وكلائه ،

وعندما فشلوا استدعى قائده المفضل أجربا من الشرق ووجهه نحو اسبانيا. وبضربات متتالية نتجت عنها مجازر واسترقاق اعداد كبيرة تمكن أجربا من إخضاع الجبال واحلال السلام في الأراضي الإسبانية الشمالية التي دمرتها الحرب.

عاد اغسطس الى روما في عام ٢٤ ق.م. منهك القوى معتل الصحة بعد غيبة استمرت اكثر من عامين وازداد الموقف سوءا في العام التالي عندما حلّ بالامبراطور مرض خطير وعندما اكتشفت مؤامرة ضد حياته دبرها اثنان من زعماء السناتوس مما كشف عن اوجه الضعف في النظام الجديد. ونجا اغسطس من المرض بعد ان اوشك على الهلاك ، وكان لمرضه أثر كبير على توجيه تفكيره نحو إعادة النظر في بعض النظم الحكومية. وفي شهر تموز- يوليو ٢٣ ق.م. اعلن اغسطس اعتزاله للقنصلية وهو المنصب الذي تولاه بصورة متصلة منذ عام ٣١ ق.م. ، وأدرك ان استمرار توليه للقنصلية كان له تأثير سيء على صحته لكثرة ما كان يتحمل من أعباء، ومن ناحية أخرى جعله موضع كراهية بعض الشباب من النبلاء الطموحين الذين كانوا يتطلعون الى تولي هذا المنصب الذي كانوا ينظرون اليه انه حق لهم بحكم المولد وأنه قمة الحياة السياسية بالنسبة لهم وبدا لاغسطس انه ليس من الحكمة أن يكتسب باستمرار عداوة طبقة السناتوس التي كان هو في أشد الحاجة اليها لتحمل نصيبها في الأعباء الإدارية في الامبراطورية.

تسوية عام ٢٣ ق.م. :

إن هذه الأزمة التي حدثت خلال عام ٢٣ ق.م. وما أعقبها من تسوية ، خرج منها اغسطس بمزيد من السلطة الحقيقية بدلا من تناقصها . فرغم أنه تنازل عن منصب القنصل فقد احتفظ لنفسه بالسلطة القنصلية كما مدّ سلطانه البروقنصلي (Imperium) على روما والامبراطورية كلها .

ونقصد بسلطانه القنصل حق قيادة الجيوش في كل أنحاء الامبراطورية . كما استعاد الصلاحيات المخولة له بفضل السلطة التريبونية (Tribunicia potestas) وهي رغم غموضها فهي ذات هبة كبرى ورغم منشئها الديموقراطي فقد غدت ممارستها إستبدادية في الواقع . فنحن نعلم أن منصب التريبون الشعبي الذي نشأ أصلا مع بداية الجمهورية في القرن الخامس قبل الميلاد من أجل حماية العامة من بطش وتعسف الحكام والسناطوس ، وتمتع هذا التريبون الشعبي الذي نطلق عليه أحيانا اسم « نقيب العامة » بصيانة مقدسة لشخصه ، ورغم أنه لم يتمتع بسلطة إدارية أو عسكرية ، ولكنه تمتع بثلاث صلاحيات هي : حماية من يلود به ، ووقف أي حاكم عن أي إجراء يضر بالعامة ، وأخيرا سلطة الاعتراض (Veto) ضد أي قرار يتخذه السناطوس يكون ضارا بمصالح العامة . وكان من حقوقه أيضا ، دعوة الجمعية القبلية للاجتماع ، ورئاسة اجتماعاتها . وبالنسبة لأغسطس ، فرغم أنه لم يتول منصب التريبون الشعبي أو نقيب العامة ، إلا أنه نتيجة لتمتعه بالسلطة التريبونية (Tribunicia potestas) فقد كان في استطاعته ، متى شاء ، أن يتدخل في أعمال أي موظف أو حاكم مهما علت منزلته في روما ؛ كما كان باستطاعته إذا اضطر إلى ذلك أن ينقض أي قرار يتخذه السناطوس ؛ وبالإضافة إلى هذا كله ، كان حقه في دعوة الجمعية القبلية ورئاسة اجتماعاتها ، يتيح له الفرصة في الحكم فيها يعرض عليها وما يدور فيها من مناقشات أو يتخذ من قرارات . ويمكننا أن نتذكر مقدار ما تمتع به كل من تيبيريوس جراكوس وأخوه جايوس جراكوس من قوة ومن سيطرة على الدولة عن طريق توليها نقابة العامة (أو التريبونية الشعبية) ؛ وذلك دون أن تكون لها سلطة القيادة العسكرية التي كان يتمتع بها أغسطس بدرجة لم تتوفر لإنسان من قبل في روما .

كذلك كان الحال بالنسبة للقنصلية التي أعلن تنازله عن منصبها

سنة ٢٣ ق.م. كما ذكرنا ، إلا أنه احتفظ بصلاحياتها وهي التي سميت بالسلطة القنصلية (Imperium Consulare) . فباعترال المنصب تخفف من الالتزامات الإدارية التي يتحملها القنصل ولكن باحتفاظه بالسلطة القنصلية ، أصبح يحق له دعوة مجلس السناتوس ورئاسة جلساته . وهكذا يستطيع أن يتدخل في كل أعمال السناتوس سواء بالنسبة لإعداد جداول الأمور التي تعرض عليه ، ومنح حق الكلام في كل جلسة ، والابحاء بما يرغب من قرارات أو تشريعات . وإذا أضفنا إلى هذا كله تمتعه بالسلطة البروقنصلية (Imperium pro-consulare) على جميع أرجاء الامبراطورية ، بما فيها روما ، فمعنى ذلك أنه تمتع بحق قيادة جميع الجيوش الرومانية . وبعبارة أخرى ، أصبح لا يكاد يتولى شخص قيادة عسكرية في الامبراطورية ، إلا بناء على تفويض شخصي منه . وعلى هذا النحو يمكننا أن نقول أن أغسطس أصبحت تتركز في يديه جميع السلطات في الدولة مباشرة أو بطريق غير مباشر فتحكم في التشريع عن طريق تحكمه في المجالس والجمعيات التشريعية وتحكم في إدارة وحكم روما عن طريق ممارسته للسلطة القنصلية ، وتحكم في إدارة الولايات عن طريق تمتعه بالسلطة البروقنصلية وما تتضمنه من صفة عسكرية .

خلافة الحكم :

كان للأزمة السياسية التي واجهها أغسطس ، عام ٢٣ ق.م. وكذلك ما أصابه من مرض خطير كاد يقضي عليه تأثير كبير على توجيه إهتمامه نحو مشكلة تمس صميم نظامه ، ونقصد بها مشكلة الخلافة بالنسبة لسلطة الحكم من بعده . من الناحية القانونية والدستورية ، لم يكن هذا من شأن رئيس الدولة (princeps) أي أغسطس ، ولكنها مسئولة السناتوس وشعب روما الذي كان يدين له بسلطته ومع ذلك فقد خشي أنه إذا لم يتول إقرار هذا الأمر بنفسه ، ربما ينشأ بسببها بعد موته حرب أهلية جديدة بين المرشحين المتنافسين على العرش ، ولا ينبغي أن

ننسى أن توليه للسلطة التريبونية ، سهلت عليه مهمة تدخله ومحاولته اقتراح خليفة له . وكان أغسطس يأمل في أن يكون خليفته من أسرته ومن دمه ولكنه لم يكن له أبناء وكانت له ابنة واحدة جوليا (Julia) التي كانت قد تزوجت في عام ٢٥ ق.م . من ماركيلوس (C. Claudius Marcellus) ابن أخته أكتافيا (Octavia) وكان في الثامنة عشرة من عمره ؛ وقد عمل أغسطس كل ما في استطاعته على دفع ماركيلوس إلى مسرح الحياة السياسية . وفي سن التاسعة عشرة أصبح هذا الفتى الوسيم عضواً بمجلس السناتو وفي العام التالي عام ٢٣ ق.م.، انتخب لمنصب الإيديل الشرفي كما تولى منصباً دينياً آخر ، ثم أدرج اسمه في سجل المرشحين للقنصلية رغم أنه كان عشر سنوات أقل من السن القانونية ، وكان نجاحه في الانتخابات وتوليه القنصلية ، يعتبر أمراً مؤكداً ، فلم يكن يتمتع بتأييد الامبراطور فحسب ، ولكنه كان قد اكتسب لنفسه شعبية كبيرة اثناء توليه منصب الإيديل بتقديم المهرجانات واقامة الإحتفالات التي اصطبغت بالبذخ الشديد . ولكن حدث فجأة ان توفي ماركيلوس عام ٢٣ ق.م . نظراً للوباء الذي اجتاح ايطاليا .

وقد وجد أفراد آخرون يتطلعون إلى هذا المجد فهناك زوجته ليڤيا (Livia) التي كانت تتمنى أن تجعل وراثة الحكم في أحد ابنيها من زواج سابق وهما تيبيريوس كلوديوس نيرون (Tiberius Claudius Neron) ونيرون كلوديوس دروسوس (Nero Claudius Drusus) كما كان هناك أجريبا (Agrippa) قائد أغسطس المفضل والذي جلب له النصر في معظم معاركه . وفي عام ٢٣ ق.م . عندما مرض أغسطس وأشرف على الموت ، سلم خاتم الدولة إلى أجريبا ، وبعد أن شفي أغسطس من مرضه استطاع أن يحصل لأجريبا على السلطة البروقنصلية على جميع ولايات الامبراطورية ، وبعث به إلى الشرق ليشرف على الأوضاع في سوريا ويقوي التخصينات الدفاعية ضد البرثيين على الحدود الشرقية .

وكان أغسطس مصرا على أن يجعل الخلافة في أسرته ، فبعد وفاة ماركيلوس ، نجد الامبراطور يستدعي في سنة ٢١ ق.م. أجريبا من الشرق ويلزمه بأن يطلق زوجته ويتزوج جوليا ، وفي عام ١٨ ق.م. ، زاد في سلطان أجريبا على ولاية السناتوس كما خلع عليه في الوقت نفسه سلطة التريبونية لمدة خمس سنوات . وفي سنة ١٧ ق.م. أعلن أغسطس تبنيه لابني جوليا وأجريبا وبذلك يكون قد حل مسألة الخلافة ليس لجيل واحد فقط ولكن لجيلين من بعده .

الامبراطورية في عصر أغسطس :

بعد أن فرغ أغسطس من وضع هذه الأسس التي عرضنا لها في مجال السياسة والحكم ، واطمأن إلى أن مقاليد الأمور أصبحت في يديه وحده ، واطمأن إلى استتباب الأمن ، والقضاء على عناصر الفتن والانقسامات الحزبية شرع بعد ذلك في بناء النظام الإداري وإصلاح المرافق العامة في روما وإيطاليا وإقرار الأوضاع في الامبراطورية وتنظيم المالية العامة . كما حاول أن يحل مشكلة الجنود الذين كانت قد تكاثرت أعدادهم في ظروف الحرب الأهلية فسرّح كثيرا منهم ومنحهم أموالا وأراضي مكافآت لهم حصل عليها من الولايات المختلفة وخاصة من بعض الولايات الغنية الجديدة التي تمكن هو من إضافتها إلى الامبراطورية . ويأتي على قمة هذه الولايات الجديدة مصر التي ألحقت بالامبراطورية الرومانية سنة ٣٠ ق.م. بعد انتصاره على كليوباترا وأنطونيوس ، كما أنه شغل ما تبقى من جنود في الجيوش المختلفة ، بتوجيههم إلى الحدود كما حدث في سوريا التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية وذلك لمواجهة البارثيين الذين كانوا يكونون دولة في أرض الرافدين بالعراق ، كما حاول أن يوسع من حدود الامبراطورية وكان هذا واضحا في اتجاهين أساسيين ، الاتجاه الأول نحو الجنوب فنجده يأمر واليه على مصر سنة ٢٩ ق.م. أن يهاجم القبائل الإثيوبية في الجنوب وهي التي

يطلق عليها الآن بلاد النوبة . وفي سنة ٢٤ ق.م. يكلف واليا آخر على مصر بأن يقود حملة إلى جنوب الجزيرة العربية فيما يعرف باليمن . وكان الهدف من هذه الحملة الأخيرة هو إخضاع القبائل العربية في الجنوب التي كانت تتحكم في التجارة الشرقية مع شرق أفريقيا والهند . ونجد نشاطه يمتد إلى حدود أوروبا الشرقية حيث تمكن من أن يلحق ولايات جديدة بالامبراطورية في تلك الأقاليم مثل ولايتي بانونيا وداكيا (المجر ورومانيا حاليا) . كما وجه ضربات قوية في شمال أوروبا في الغالة وألمانيا وراء الدانوب مما ألزم القبائل الجرمانية المتجربة بأن تلتزم حدودها وألا تتعرض للممتلكات الرومانية . وهكذا نجد أن أغسطس لم يترك إقليما من أقاليم الامبراطورية دون أن يولييه عنيته واهتمامه سواء بالنشاط العسكري أو بالاصلاحيات الإدارية والمالية أو بإقامة المنشآت والمباني العامة مثل الطرق والحصون وقناطر المياه وأعمال الري وغيرها من الأعمال التي لا زالت آثارها باقية إلى اليوم في كل من أفريقيا وآسيا وأوروبا .

الاصلاحيات الاجتماعية :

على أن اهتمام أغسطس لم يقتصر على الحرب والسياسة والمال والإدارة ولكنه اهتم اهتماما خاصا بإصلاحات اجتماعية اقترنت باسمه . ونحن نهتم بالتعرف على إصلاحاته الاجتماعية والدينية لأنها بجانب أعماله السياسية تمثل طريقة تفكيره ومنهاج أيديولوجيته ، فقد كان أغسطس شخصية محافظة في فهمه للأخلاق والمجتمع وكان مثله الأعلى أن يعالج المجتمع الروماني من مظاهر الانحلال والتفكك التي أصابته نتيجة للحروب الأهلية المتصلة ، وذلك بأن يعيد له أخلاق البساطة الرومانية الأولى ولكن كما نعرف أن لكل عصر ظروفه وأسلوبه الخاص به في التفكير والسلوك فمجتمع عصر أغسطس كان مجتمعا يختلف كل الاختلاف عن المجتمع الروماني قبل أن تنشأ الامبراطورية وتتدفق الأموال على الرومان وقبل أن يحتد الانقسام الطبقي والصراع الحزبي وقبل أن تزدهم روما بالعناصر الأجنبية التي حضرت إليها من جميع أقطار الأرض والذين أتوا

بعقائد وتقاليد وأخلاق تختلف عن الأخلاق الرومانية القديمة ، ولا ينبغي أن ننسى اعتماد الحياة الاقتصادية والاجتماعية على العبيد الذين جلبتهم الانتصارات العسكرية المتلاحقة . لذلك كانت محاولة أغسطس في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء محاولة من نوع مثالي لا يتفق مع الواقع ولا يناسبه وكثير منها لم يكتب له النجاح ولا الاستمرار . ومع ذلك فهي تفيدنا في التعرف على واقع المجتمع وعلى عقلية الطبقة الحاكمة في عصر أغسطس . وحتى مع افتراض حسن النية وراء محاولة إصلاح الأخلاق العامة فإن كثيرا مما قام به أغسطس في هذا المجال قد يمتدح الهدف منها ولكنها لا تتحقق عن طريق التشريع والقانون .

ولعل من أكثر أعمال أغسطس نبلا في هذا المجال هو محاولته تحسين معاملة العبيد . ولكن من ناحية أخرى نجده لا يحترم الحرية الفردية وذلك بإعادته القانون الخاص بالخيانة ضد شخصه (Maiestas) وهو قانون غامض غير محدد ويشمل كثيرا من المخالفات ابتداء من التآمر ضد الدولة إلى السب والقذف في حق الامبراطور سواء بالقول أو بالكتابة أو بالفعل وأحرقت الكتب التي تهاجمه أو تنتقده في الميادين العامة . ويكافأ الوشاة بمنحهم ربع ممتلكات ضحاياهم . وهكذا أصبح القانون أداة للقهر والبطغيان في يد الأباطرة من بعد أغسطس . على أنه قد صدرت قوانين أخرى تهدف إلى وضع حد للإباحية الجنسية وتنظيم الزواج وحياة الأسرة . ومن أشهر هذه القوانين ، قانونا يوليوس (Leges Juliae) ١٩ - ١٨ ق.م . وقانون القنصلين پاپيوس وپوپايوس (Lex Papia Poppaea) سنة ٩ ق.م . . وكان الهدف منها هو مقاومة الانحرافات الأخلاقية وزيادة النسل وإحياء الفضائل الرومانية القديمة .

وقد تضمنت هذه القوانين الجديدة مواد تمنع طول مدة الخطوبة والطلاق ؛ وفرضت على جميع غير المتزوجين من الرجال والنساء الزواج في أقرب وقت ممكن ، وجميع المطلقات تحت سن الخمسين والمطلقين تحت

سن الستين أن يتزوجوا خلال ثلاث سنوات . وفرضت على المخالفين عقوبات وجزاءات كثيرة ، منها : الحرمان الكلي أو الجزئي من الميراث ، أو من تولي المناصب العامة ، والمنع من حضور الألعاب والمهرجانات العامة . وفرض مثل هذه الجزاءات على المتزوجين الذين لم ينجبوا ، حتى في حالة العقم ! في حين كوفئ من لهم ثلاثة أولاد أو أكثر ، بتفضيلهم في تولي المناصب العامة (وسمي هذا الحق *ius trium liberorum*) . وما أضعف تأثير هذه التشريعات ، هو منح هذا الحق لأصحاب النفوذ دون أن يستوفوا شروطه ! وما يدعو للسخرية أن نجد بعضاً من أهم رجال الدولة يتمتعون بالاستثناء من هذه القوانين وذلك مثل أغسطس نفسه الذي كانت له ابنة واحدة والامبراطورة ليثيا ذات الولدين والوزير مايكينا (Maecenas) المتزوج ولم ينجب والقنصلان اللدان سميت القوانين باسميهما وهما بايوس وبوبايوس كانا أعززين وكذلك الشاعران فرجيليوس (Vergilius) . وهوراس (Horatius) ! .

ومن أجل مقاومة الانحلال الأخلاقي الذي كان منتشرًا في ذلك الوقت تضمنت الشريعات الجديدة قوانين قاسية ضد الزنا ، فسمح لرب الأسرة أن يقتل الطرفين الزانيين في أسرته كما سمح للزوج بممارسة هذا الحق ، كما يعاقب الزوج الذي يتستر على انحراف زوجته . ويقدر ما اعتنى أغسطس بالأخلاق العامة وبتزوية أعداد السكان من المواطنين الرومان ، فقد قاوم بشدة أن تختلط بالدماء الرومانية ، الدماء الأجنبية وخاصة عن طريق ظاهرة تحرير العبيد التي بدأت تعم بين بعض الأسر الثرية . فمعظم هؤلاء العبيد كانوا من أسرى الحرب وكثير منهم من مجتمعات راقية ومتحضرة مثل المجتمعات الهلينية في الشرق وآخرون منهم كانوا يتميزون بالذكاء والمهارة أو بالجمال ، فكان أرباب بعض الأسر الثرية لكثرة ما عندهم من العبيد ، يؤثرون بعضهم فيحربونهم ويصبحون مواطنين رومانيين ويحق الزواج منهم بعد ذلك ، نساء كانوا أو

رجالا . وقد خشي أغسطس أن تختلط الأنساب الرومانية وأن يضعف الولاء بين هذه العناصر نحوروما ولذلك أصدر عددا من التشريعات تمنع تحرير العبيد بأعداد كبيرة حتى لا تتضخم أعداد المواطنين الرومان وعن طريق الزواج لا يندس نقاء دم الجنس الإيطالي . أما العبيد الذين يتم تحريرهم دون استيفاء جميع الشروط القانونية فقد حرمهم القانون من التمتع بالمواطنة الرومانية ومنحوا المنزلة الأدنى وأصبحوا مواطنين من الدرجة الثانية باعتبارهم إيطاليين وليسوا روماناً . ويمكن لهؤلاء أن يحوزوا على المواطنة الرومانية إذا ما تزوجوا زواجا شرعيا وأنجبوا أطفالاً .

الإصلاحات الدينية :

انتهج أغسطس حيال الدين سياسة شبيهة بسياسته الأخلاقية ، وهي الرجوع إلى الأصول والتقاليد الرومانية القديمة ، أي غلبت عليه النظرة الرجعية أيضا ؛ وذلك في عصر قد بعد العهد بينه وبين العقائد القديمة التي كانت تتمثل في عبادة الأرواح الكامنة في مظاهر الطبيعة ، مثل أرواح النهر والحقل والبيت ، والغابة ومفترق الطرق ، والتي كانت قد اختلطت بالعقائد الإغريقية المتمثلة في التجسيد البشري لبعض قوى الطبيعة مثل أبولو إله الشمس . هذه العقائد كانت قد تقادم بها العهد وفقدت تأثيرها في المجتمع الروماني ؛ وكانت محاولة إحيائها محاولة مصطنعة ومفتعلة . لأنه قد ظهرت في المجتمع الروماني عقائد دينية جديدة آتية من الشرق أكثر تأثيرا وأكثر جاذبية . وذلك مثل عبادة الآلهة إيزيس المصرية والإله ميثرا من آسيا الصغرى وأدونيس من الكنعانيين والفينيقيين . وسرعان ما شاعت هذه العبادات الجديدة بين عامة المجتمعات الإيطالية ؛ أما الأوساط المثقفة فنجدتها قد اتجهت إلى الفلسفة ، وشاعت بينهم مذاهب الرواقية والأبيقورية ؛ وهناك من مزج بين الفلسفة والعبادات الشرقية .

في حين أن أغسطس أغفل كل ما كان حادثا لم يتطور ديني أو

فلسفي ، واتجه إلى إحياء التقاليد الرومانية القديمة . وبدأ ذلك منذ عام ٤٢ ق.م . تم في عام ٢٨ ق.م . ، وذلك ببرنامج ضخم لإعادة بناء المعابد القديمة . فأصلح منها إثنين وثمانين معبدا حسب قوله في سجل أعماله . كما أنشأ سنة ٢٩ ق.م . معبدين جديدين ، أحدهما ليويلوس (قيصر) المقدس والآخر للإله أبولو ، وذلك باعتبارهما إلهين حاميين لأسرة الامبراطور المعروفة بالأسرة اليولية . ثم أنشأ معبدا للإله مارس المنتقم سنة ٢ ق.م . . وكان إعادة بناء أو ترميم المعابد القديمة ، مناسبة استدعت ممارسة بعض الشعائر القديمة ، مثل عيد الحصاد أو الخصب في شهر أيار (مايو) . أو مثل إحياء الاحتفال بما يسمى المباريات العلمانية (ludi saeculare) سنة ١٧ ق.م . وهو احتفال للتكفير والتوبة وحمد الآلهة ، وكان يحتفل بها حسب النظام الافرودي القديم كل ١١٠ سنوات وقد وضع الشاعر هوراتيوس لهذه المناسبة قصيدته (carmen saeculare) التي تم إنشادها في معبد أبولو المقام على تل البلاتين .

وربما ساعد إحياء الطقوس العتيقة على إذكاء روح الورع والبسالة ، ولكنها لم تقتصر، بالشعور بالبلاء أو الإخلاص للحكومة الجديدة ، ولا خدمت أغراض الدعاية للنظام الذي أقامه أغسطس ذي الطابع الملكي لا الجمهوري في واقعه .

ولكن لعل مما يظهر محاولة استغلال الدين في أسباب الدعاية السياسية هو ما يتمثل على ما يسمى بمذبح السلام الأغسطسي (ara pacis augustae) الذي صور في بعض لوحاته « الأرض الأم » (terra mater) جالسة على صخرة ، ممسكة على حجرها طفلين مع ثمار الأرض . والمذبح بصور هنا السلام والرخاء يسودان على الأرض . وفي لوحة أخرى ترى أغسطس ، فالأرض هي العالم الروماني ، وأغسطس هو الذي حقق السلام والرخاء على الأرض ، وأن ذلك كله لورعه ورضاء الآلهة عنه ، وهو الصلة بين الأرض والآلهة . ومن المعاني الأخرى التي

رَوِّج لها ، عبادة الربة « روما » . وقد وجدناها مصورة على « مذبح السلام الأغسطسي » الذي أقيم في مدينة قرطاجة ، وعليه صُوِّرت الربة روما جالسة على كومة من الأسلحة . وهذه دلالة على دور أغسطس في خدمة روما . فهي الآن تركز آمنة على قوة السلاح . وهكذا اقترن شخص أغسطس بالآلهة وبالربة روما ، واقترب كثيرا من الآلهة ، وأصبح هناك مراسم في الأقاليم والولايات لعبادة الامبراطور .

موت أغسطس :

هذه الشخصية الفذة التي دخلت معترك السياسة في معترك محنة من أقسى المحن في تاريخ البشرية ، وهي الحرب الأهلية الرومانية ، وكان لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ، كان بمثابة الترياق لسوم الدولة الرومانية . ولقد تميز بالصرامة والقدرة الفذة على العمل المتواصل . ولقد أخذ نفسه بالجد قبل أن يأخذ به الامبراطورية ، ولذلك استطاع أن يفرض نفسه على الدولة كلها . وما من شك أنه استطاع أن ينتشل العالم الروماني بعد أن أوشك على الانقسام والتوزع ، ورغم تعقيداته التي لا تكاد تحصى فقد رد له وحدته عسكريا وسياسيا واجتماعيا ، كما على لسان أمهر مؤرخي الامبراطورية الرومانية تاكيتيوس ، فلخص دور أغسطس في هذه العبارة .

« Legiones, classes, provincias, cuncta inter se conexa. » (إن الجيوش والطبقات والولايات ، التحمت جميعها بعضها في بعض) .

البَابُ الثَّانِي مِصْرُ الرُّومَانِيَّةِ

الفصل السادس

التاريخ السياسي لمصر في العصر الروماني

١- القرنان الأول والثاني من الإمبراطورية الرومانية

أغسطس يفتح مصر :

من العبارات الجغرافية المشهورة أن البحر الأبيض المتوسط وسيلة وصل لا فصل . ورغم أن هذا القول صحيح في جميع عصور التاريخ ، إلا أنه يمكن أن يقال أن الإمبراطورية الرومانية هي التي جعلت هذه العبارة الجغرافية حقيقة تاريخية بكل معاني الكلمة . لأن الحضارات السابقة المصرية والآشورية والفارسية والإغريقية كانت تشمل عادة منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط ، أما روما فقد نجحت في أن تضم جميع أقطار هذا البحر في بناء سياسي وحضاري واحد استمر فترة من الزمن تربو على السبعائة سنة فيما يعرف بالإمبراطورية الرومانية . ورغم أن تحويل حوض البحر الأبيض المتوسط إلى إمبراطورية رومانية استغرق ما يزيد على القرنين ونصف ، كانت مصر آخر قطر سقط في أيدي الرومان من أقطار هذا البحر ، عقب موقعة أكتيوم ودخول أوكتافيان (أغسطس) مصر في أول أغسطس سنة ٣٠ ق م . ومن الغريب أن هذا العام يؤرخ في التاريخ الروماني نهاية العصر الجمهوري وبداية العصر الإمبراطوري الذي يرأس فيه الدولة « رئيس » princeps وليس قنصلا

(Consul وتعنى زميل) كما كان الأمر من قبل . ولكن هذا التوافق التاريخي بين فتح مصر وبداية الإمبراطورية لا يتعدى كونه مصادفة تاريخية، فقد كان من الممكن أن تسقط مصر في أيدي الرومان من قبل ولا تقوم الإمبراطورية فقد كانت بداية النظام الإمبراطوري في روما سرهونة بتفرد أوكتافيان بالسلطان بعد القضاء على ماركوس أنطونيوس . وقد حدث أن اقترن مصير مصر البطلمية بمصير ماركوس أنطونيوس وكليوباترا، كما سبق أن بينا، لأن تأخر سقوط مصر البطلمية في أيدي الرومان لم يكن راجعاً لقوتها ومنعتها بقدر ما كان راجعاً لظروف روما الداخلية وظروف النزاع الحزبي بين السناو والشعبيين . ويتضح مما ذكرناه في تاريخ الأسرة البطلمية مقدار الضعف الذي وصل إليه ملوكها المتأخرون ، وأنهم منذ منتصف القرن الثاني ق. م. وهم يقتربون ويتزلفون إلى روما بشكل متزايد حتى أصبح الملك البطلمي لا يكاد يستقر على عرشه دون رضاء روما ودون أن تسنده قوة رومانية تقيم في الإسكندرية .

ومع ذلك فلم يكن فتح مصر بالأمر الهين ، لأن مصر مهمة دائماً دون نظر إلى قوتها أو ضعفها . ولعل السبب في ذلك هو أن اسمها وتراثها القديم من ناحية وثروتها الزراعية الكبيرة من ناحية أخرى تضى عليها مجداً وأهمية خاصة . ولم يفت الفاتح الروماني أن يستغل هذه الفرصة في أسباب الدعاية السياسية ، فأصدر عملة تذكارية خاصة بمناسبة ضم مصر لسلطان روما . وقد خرجت هذه العملة تحمل صورة التمساح — أشهر الحيوانات النيلية وأحد المعبودات المصرية — وقد كتب تحته عبارة « Aegypto capta » ^(١) ومعناها « فتح مصر » .

ولكن ماذا كان يعنى فتح مصر معناه بالنسبة لمصر ذاتها أنها لم تعد دولة

(١) H. Mattingly. British Museum Catalogue of Coins of the Roman Empire. Vol. I. No 650.

مستقلة تحت حكم الأسرة البطلمية في الأسكندرية ، وأصبحت ولاية تتبع سلطان روما. هذا من الناحية السياسية، أما من الناحية الاقتصادية فقد كان الأمر أكثر خطورة ، لأن روما فرضت على مصر جزية مالية وضريبة نوعية من القمح والغلة يجب أن تشحن إلى روما في كل عام . أى أن جزءاً كبيراً من دخل المصريين وإنتاجهم الزراعى كان يذهب إلى روما دون مقابل . ومن أجل هذا المعنى الاقتصادي احتفل أغسطس بفتح مصر وأصدر تلك العملة التذكارية ليزف النبأ للرومان ويبرهن أنه قد سخر لبطونهم قح مصر .

وما كان هذا بالأمر اليسير لأننا نعرف من تاريخ روما أن من يستطيع إطعام الرومان يحكمهم ومن يفشل في ذلك لا يبقى في الحكم يوماً واحداً. ^(١) ولما كانت روما قد أهملت زراعة القمح في إيطاليا واعتمدت اعتماداً تاماً على استيراده من الولايات ، تعتبر السيطرة على مصر — أكبر بلد منتج للقمح في الإمبراطورية — أمراً بالغ الأهمية من الناحية السياسية . ويوضح هذه الحالة قول المؤرخ الرومانى تاكلتوس « على أن (إيطاليا) لم تصب الآن بالجذب ، ولكننا نفضل استغلال (شمال) إفريقيا ومصر ، وأصبحت حياة الشعب الرومانى رهناً بالسفن وأحداها » ^(٢) .

ونظراً لأهمية مصر على هذا النحو ، واشتهارها بمجنوح أهلها إلى الثورة — سواء من شعب الأسكندرية أو من أهالى مقاطعة طيبة في الصعيد — كما حدث مراراً في النصف الأخير من حكم البطالمة ، فقد اهتم الإمبراطور أغسطس بوضع نظام دقيق لها يكفل استمرار خضوعها للسلطة المركزية في روما . ويهمننا أن نحدد هنا ثلاث نقاط وهى وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية ، ثم السلطة

(١) حول أهمية تمولن روما بالفلال . أنظر : D. Van Berchem, les dis tributions de blé et d'argent à la plebe romaine sous L'empire, Lenene, 1939.

Tacitus Annales, XII. 43

(٢)

المليا في مصر الرومانية، وأخيراً الحامية العسكرية (سنتحدث عن سائر النظم الإدارية في فصل مستقل). ولإيضاح هذه النقاط الثلاث نورد بعض النصوص القديمة التي تصف وضع مصر الجديد كما عينه الإمبراطور أغسطس :

أولا : استرايون : وقد زار مصر عقب الفتح الروماني مباشرة وكتب في عهد الإمبراطور أغسطس نفسه يقول :

« لقد أصبحت مصر الآن « ولاية » (Eparchia) تدفع جزية ضخمة ، ويقوم على حكمها رجال حكماء ، وهم الولاة الذين يرسلون إليها تباعاً . ويحتل (الوالي) الذي يرسل إليها مكان الملك .. وهناك ثلاث فرق من الجنود . واحدة منها تقيم في المدينة (الأسكندرية) ، والأخريان في سائر القطر ، وإلى جانب هؤلاء توجد تسع سرايا رومانية ، ثلاث منها في المدينة (الأسكندرية) ، وثلاث على الحدود الإثيوبية في أسوان - كحامية لتلك البقاع - ، وثلاث في سائر القطر . وهناك كذلك ثلاث وحدات من الفرسان معينة في مناطق الخطر أيضاً »^(١).

ثانياً : تاكيثوس : أعظم مؤرخ روماني . امتدت حياته بين عام ٥٥ وعام ١١٥ ميلادية أو بعدها بقليل ، وتدرج في سلك الإدارة الرومانية حتى تولى منصب بروقنصل والياً على آسيا الصغرى . وبفضل حياته الإدارية كان مطلقاً على الوثائق الرسمية ، ومن ثم أهمية كتاباته ، كما امتاز بدقة التعبير والإيجاز إلى درجة ملفزة في بعض الأحيان . وقد وصف وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية بهذه العبارة :

« حكم مصر وقوات الاحتلال بها ، منذ زمن أغسطس المؤله ، أفراد من طبقة الفرسان الرومان ، شغلوا مكان الملوك . فقد رؤى أن من الأصلح أن يبقى للإمبراطور أمر ولاية (Provincia) يصعب الوصول إليها ، وغنية في القمح »^(٢).

Strabo. 17. 1. 12.

(١)

Tacitus, Ann. 1. 11

(٢)

ثالثاً : ديون كاسيوس : عاش في النصف الثاني من القرن الثاني وبداية القرن الثالث ؛ وتدرج في سلك الوظائف الرومانية حتى تولى منصب القنصلية للمرة الثانية سنة ٢٢٩ : وكتب تاريخاً لروما استمدته من المصادر المعاصرة القديمة . وقد وصف النظام الذى فرضه أغسطس على مصر في هذه الفقرة المشهورة :

« ومنذ ذلك الوقت جعل (أغسطس) مصر تدفع الجزية ، وعين عليها جالوس كورنيليوس . ونظراً لكثرة عدد السكان سواء في المدن أو في الريف ، ولسرعة وحدة طباعهم ، وكذلك لوفرة غلاتها و ثرائها ، منع أعضاء مجلس السناتو أن يدخلوا مصر لأى سبب كان أو الإقامة بها ، إلا بعد الحصول على إذن خاص منه . ورفض السماح لأفراد هذا الشعب (أى المصريين) أن يصبحوا أعضاء في مجلس السناتو في روما . وبعد ذلك تناول أموراً أخرى كلاً على حدة ، فأمر الأسكندريين أن يدبروا شئون مدينتهم دون مجلس تشريعى (*boulé*) ؛ فقد كان يعرف مدى جنوحهم إلى الثورة .

هكذا كانت النظم التى وضعت لهم ، وقد بقي محافظاً عليها إلى الآن ، إلا أنه قد أصبح لهم مجلس تشريعى *boulé* في الأسكندرية منذ عهد الإمبراطور سيفيروس ؛ وبدأوا يسجلون للمضوية في مجلس السناتو في روما ، لأول مرة في عصر ابنه أنطونيوس ^(١) . »

هذه هي أهم المصادر التى تصف مصر ووضعها الجديد عند الفتح الرومانى ولنبداً الآن في تحديد النقطة الأولى وهي وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية ، ولقد أثار المؤرخون المحدثون حول هذا الموضوع جدلاً كثيراً ، محوره هل أصبحت مصر ولاية رومانية ، أو أن أغسطس جعل لها وضعاً خاصاً شبه ما يكون

بالملكية الشخصية للإمبراطور^(١). وقد حاول أصحاب الرأي الأخير أن يجدوا مبرراً لوجهة نظرهم في أن أغسطس نفسه حين كتب في سجل أعماله المعروف باسم أثر أنقره عن فتح مصر قال « لقد أضفت مصر لسلطان الشعب الروماني » (*Aegyptum imperio papuli Romani adieci*)^(٢) وأنه لم يستخدم في وصفها لفظ ولاية (*provincia*). ونحن لا نريد أن نخوض في غمار هذه المشكلة الجدلية ، لاعتقادنا أن الاختلاف مبالغ فيه وأن وضع مصر في الإمبراطورية الرومانية لم يكن من الغرابة بالقدر الذي يذهب إليه بعض الباحثين وأن مصر من وجهة نظر القانون الروماني كانت ولاية رومانية .

ولتبيان ذلك نقول إنه بعد أن استتب الأمر لأغسطس تمت في عام ٢٧ ق . م . تسوية لتنظيم الإشراف على الإمبراطورية بينه وبين مجلس السناتو . بناء على هذه التسوية قسمت ولايات الإمبراطورية بين أغسطس والسناتو . ونلاحظ أن الإمبراطور قد وضع تحت سلطانه الشخصي الولايات التي تمثل جهات الحرب الرئيسية للإمبراطورية والتي بها جيوش محاربة وهي الغالة (وبها قيادة الجبهة الشمالية) وإسبانيا (وبها قيادة الجبهة الغربية) وسوريا (وبها قيادة الجبهة الشرقية) ومصر وهي ولاية جديدة ضمها أغسطس للإمبراطورية وأقام بها حامية عسكرية (وبذلك تعتبر مقراً لقيادة الجبهة الجنوبية) . وبهذه الطريقة ركز في يديه السلطة العسكرية العليا لـ كل الجيوش الرومانية تقريباً . وهذا هو جوهر الموقف كله ؛ فقد حرص أغسطس على أن يسلب مجلس السناتو سلطة القيادة العسكرية . والسبب في ذلك واضح ، وهو أن أعضاء هذا المجلس

(١) أكتفى هنا بأن أحيل القارئ إلى العرض الوافي لجميع وجهات النظر الخاصة بهذه المشكلة في كتاب الدكتور عبد اللطيف أحمد على : مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص ٤١ — ٥٧ ، ويوجد بالمهرامش بيان بجميع المراجع والمصادر .

(٢) *Res Gestae Divi Augusti*, 27,1.

(٢)

هم الذين استغلوا سلطانهم العسكري وهددوا سلامة الدولة وكيانها بالحروب الأهلية من أمثال ماريوس وسلا وپومپي وقيصر وماركوس أنطونيوس، وخاصة الأخير الذي شن على أغسطس حرباً من مصر ذاتها قبل أن تصبح ولاية رومانية .

فصر على هذا الأساس قد اعتبرت في نظر المشرع الروماني ولاية رومانية عوملت في تسوية عام ٢٧ ق . م . معاملة الولايات الكبرى الأخرى . وما ينبغي استغلال عدم استخدام لفظ *Provincia* في أثر أنقرة على أن معرلم تكن ولاية . فكل من يقرأ نص أثر أنقره ويدرس أنسابه تبينه يدرك أن هذا الاستنتاج غير صحيح ، لأن أغسطس يستعمل في وصفه اضم بانونيا وإليريا للإمبراطورية تعبيراً شديداً بعبارة عن ضم مصر ، ولم يشك أحد أن بانونيا وإليريا كانتا ولايتين رومانيتين . .

ولم يشك أحد من المأصرين أيضاً أن مصر كانت ولاية رومانية وإلالم غاب عن كل من استرابون وتاكيوس ملاحظة ذلك وكلاهما يصف مصر بأنها ولاية (*provincia* أو *eparchia*) كما ورد في النصين اللذين قدمنا ترجمتهما في أول هذا الفصل . ويمكن أن نضيف إلى هذين النصين التاريخيين نصاً قانونياً يرجع إلى نهاية القرن الثاني ولكنه يصف بعض مسئوليات والى مصر على

(١) أنظر حول تسوية عام ٢٧ ق.م. وساطان أغسطس :

R. Syme. *The Roman Revolution*. (1952) ch. XXII, "Princes", pp. 313—330; *Cambridge Ancient History*, X. p. 128.

Res Gestae, 30. 1, "Pannoniorum gentes, quas ante me principem populi Romani exercitus nunquam auit, devictas per Ti. Neronem, qui tum erat privignus et legatus meus, imperio populi Romani subieci, protulique fines Illyrici ad ripam fluminis Danubi".

الأسس التي عينها الإمبراطور أغسطس . هذا القانون يصف مصر بلفظ ولاية provincia^(١) .

يتضح من هذا العرض أن مصر — من حيث وضعها القانوني — كانت ولاية رومانية ، وأنها حسب تسوية عام ٢٧ ق . م . كانت إحدى الولايات التي تتبع الإمبراطور . ويجب أن نذكر أن أغسطس مارس سلطانا مطلقا على هذه الولايات التابعة له ، يختار حكامها على النحو الذي يراه هو ويقيمهم في مناصبهم حسب إرادته الشخصية ، فهم نوابه وممثلوه شخصيا ومسئولون أمامه فقط ، كما كان يحق له أن يصدر ما يشاء من النظم والقوانين في تلك الولايات بما يتفق وظروف كل واحدة . ولم يقتصر أغسطس على ممارسة هذا السلطان في ولاياته فحسب ، بل نجده أحيانا يتدخل تدخلا مباشرا في شئون الولايات التي تتبع مجلس السناتو ، كما حدث في قورينة (برقة) وقبرص^(٢) . ولذلك لا ينبغي أن ينظر لسلطان السيادة الذي مارسه أغسطس في شئون ميجر على أنه استثناء خاص بها .

رأينا أن أغسطس في تسوية عام ٢٧ ق . م . حاول أن يضعف من شأن مجلس السناتو ، وفي الواقع كان ذلك جزءا من سياسة مقصودة تهدف إلى إضعاف طبقة النبلاء الذين يمثلهم مجلس السناتو . وتحقيقا لهذا الهدف اتجه أغسطس إلى العمل على زيادة أهمية الطبقة المتوسطة المعروفة باسم طبقة الفرسان equites وذلك بزيادة الاعتماد عليها سياسيا ، فوجدناه يعين

Ulpius apud Digest. l. 17. 1 : “ De officio (١) praefecti Augustalis. Praefectus Aegypti non pruis deponit praefecturam et imperium, quod ad similitu dinem procaon- sulu lege sub Augusto ei datum est, quam Alexandriam ingressus sit successor eius, licet in “provinciam” venerit: et ita mandatis eis continetur”.

Cambridge Ancient Hist. X. pp. 212,214.

(٢)

حكما من بين أفراد هذه الطبقة لولاياته الجديدة، وفي الولايات القديمة، حيث التقليد المتبع حتى ذلك الوقت هو تعيين الولاة من أعضاء مجالس السناتو من القناصل والبريتورين السابقين، نجده لا يميل إلى تعيين ولاة من فئة بروقنصل (أى من القناصل السابقين) - وهى الفئة الأرقى. والأكثر أهمية من الناحية السياسية وأكثر خطورة من الناحية العسكرية - ويعين حتى في الولايات الكبرى مثل الغالة وأسبانيا وسوريناو بأعنه من فئة البروريتور (legati pro praetore) الأقل أهمية ومن الأسر الضعيفة^(١). وفي حالة مصر، طبق نظامه المتبع في الولايات الجديدة، فعين ولايتها (praeffectus) من طبقة الفرسان (كما يتضح من نص المؤرخ تالكيتوس السالف ذكره: (Ann. 1. II) ولكن لما كان لا يجوز لأفراد طبقة الفرسان - حسب التقاليد الدستورية الرومانية - أن يتولوا قيادة جيوش مكونة من الفرق العسكرية الرومانية (Legiones)، والتي كان أمر قيادتها قاصراً على أفراد من طبقة السناتو (يحق للفرسان قيادة وحدات الإمدادات العسكرية auxilia)، فقد اتخذ أغسطس إجراء استثنائياً في حالة مصر فقط، بأن منح والى مصر من طبقة الفرسان سلطة الامبيريوم (Imperium)^(٢) التي تخوله حق قيادة جيوش مكونة من فرق رومانية. والسبب في اتخاذ هذا الإجراء غير العادى في حالة مصر هو عدم ثقة أغسطس في ولاء طبقة السناتو له: لقد تأسروا من قبل بقيصر وقتلوه، كما امتحن أغسطس نفسه بتجربة قاسية على يدى أنطونيوس وحليفته كليوباترا، حتى كادت من جرائها تنصدع الإمبراطورية بأسرها.

ولما كانت مصر ولاية بعيدة يصعب الوصول إليها بسبب ظروف الملاحة

(١) أنظر: R. Syme, The Roman Revolution, p. 326; and Cambridge Ancient History, X, p. 215.

(٢) Digest. 1. 47. 1. وقد سبق أن أوردنا نص هذا القانون،

قديمًا وارتباطها بمواسم الرياح ، لذلك كان أغسطس يخشى أن يتمكن أحد أعضاء طبقة السناتو من اكتساب ولاء الجنود لشخصه - بحكم حقهم التقليدي في قيادة الجيوش - ويستقل بمصر^(١) ، فيحرم روما من مصدر هام للقمح ، مما قد يكون له عواقب خطيرة . من أجل هذا كان الإجراء الاستثنائي الوحيد الذي طبقه أغسطس في مصر يتعلق بإقصاء هذه الطبقة عنها . فمنح والى مصر من طبقة الفرسان سلطان الامبيريوم لقيادة الجيوش ، كما منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة في روما من دخول مصر إلا بإذن خاص من الإمبراطور شخصياً . ويوضح هذه السياسة عبارة المؤرخ تاكلتوس المعروفة التي يقول فيها: « إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أمّن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان الرومان من دخولها إلا بإذنه ، وذلك حتى لا يصيب أحد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية ، فيصمد بقوة مهمما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة^(٢) » .

* * *

ننتقل الآن إلى النقطة الثانية في النظام الذي وضعه أغسطس لحكم مصر وهي السلطة العليا في الولاية . بالنسبة للمصريين احتل أغسطس مكان الملوك

(١) لعل من المناسب أن نذكر هنا أن الملك بطليموس الزمار كان قد أعيد إلى عرشه بمساعدة فرقة من الجيش الروماني من رجال بومبي، وكان قائدها هو أحد رجاله المسمى جابينيوس. وقد بقيت هذه الفرقة في الإسكندرية، ولعل هذا هو السبب في أن بومبي حاول الفرار لمصر بالذات بعد هزيمة فارسالوس . ولقد حارب جنود جابينيوس ضد قيصر في حرب الإسكندرية . ولا بد أن أنطونيوس قد ترك في مصر جنوداً آخرين ، قد لا يزدادون في الثورة ضد أغسطس إذا ما وجدوا لهم قائداً مناسباً . كما أن المصريين وأهل الإسكندرية لم يكونوا راضين عن الحكم الروماني الجديد .

(٢) لاحظ أنه يستخدم هنا أيضاً لفظ *provincia* Tacitus, Ann. II. 59,

حول هذا الإجراء أنظر أيضاً Dio Cassius, 51. 17.

البطالة ، أى أن الإمبراطور الرومانى أصبح ملك البلاد الرسمى ، يتمثل فى شخصه كل ما تمثل فى شخص فرعون من قداسة وتأييد ، وكانت تخضع عليه الألقاب الفرعونية المألوفة . هذا من الناحية الرسمية البحتة بما يتفق وتقاليد الفكر السياسى والدينى والاجتماعى المصرى .

أما من حيث إدارة الولاية وتولى السلطة العليا فيها فقد عين أغسطس ذلك موظفاً من طبقة الفرسان ، كما سبق أن بينا ، وهو الذى يحمل لقب بريفكتوس *praeffectus* أى والى ، ثم منح هذا الوالى سلطانا على مصر (*imperium*) يسكافى سلطان البروقنصل على ولايته (*imperium quod ad similitudinem proconsulis*) لهذا كان .
(*lege sub Augusto ei datum est*)^(١) والى مصر يعتبر أهم والى من طبقة الفرسان فى الإمبراطورية بأسرها .

وقد منح والى مصر بفضل هذا الإمبريوم سلطانا مطلقا فى الولاية ، حتى ليكن أن يقال إنه مارس معظم ما كان للملك البطلمى من سلطان^(٢) ، بحيث أن جميع ما يقرره كان له قوة القانون فى مصر . ولا يحد سلطانه سوى إرادة الإمبراطور وما وضعه من نظم عامة للولاية . فقد كان من سلطة الوالى مثلاً أن يحرر العبيد ، ولكن لم يكن فى سلطانه أن يمنح أحداً حق المواطنة فى مدينة الإسكندرية ، لأن ذلك كان من سلطة الإمبراطور نفسه . وإذا عرض للوالى أمر لا يشمل ما منح من سلطان كان يرجع الى الإمبراطور شخصياً ليفقر الأمر أولاً . وعدا ذلك كان له سلطة قيادة الحامية الرومانية فى مصر وأن

(١) Digest. I. 17.1 . ويبدو أن من مراسيم منح الوالى هذا السلطان الاستثنائى أن تقرر الجمعية التشريعية فى روما *Comitia* ، أنظر : Jones Legacy of Egypt, p. 288.

(٢) أنظر : Tacitus, Ann. I. 11, Strabo. 17, 1. 12.

يستخدمها مباشرة لمواجهة أى ظرف حسب ما يترأى له ، كما كان له سلطة تعيين الموظفين وعزلهم ومحاسبتهم (عددا كبار الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور). ومن الناحية القضائية يعتبر الوالى القاضى الأول للولاية وأحكامه نهائية . وكانت له دورة قضائية ، ليعقد محكمته فى أنحاء مختلفة من مصر فى أوقات مختلفة حتى لا يضطر الأهالى إلى أن يحضروا إلى الأسكندرية بأنفسهم . ومن الناحية الدينية كان يتمتع بمنزلة كبيرة واحترام عظيم من الكهنة ، وعند زيارته للمعابد يعامل معاملة تقرب من معاملة الملوك . وبعبارة أخرى كان الوالى هو الرئيس المباشر للإدارة فى مصر بكل ما فى كلمة الرئاسة من معنى ، لأن الإدارة الرومانية فى مصر كما أرادها أغسطس كان طابعها المركزية إلى أقصى حد^(١) .

بقى أن نذكر كلمة أخيرة عن الحامية العسكرية الرومانية فى مصر : سبق أن بينا أن أهمية مصر الأساسية بالنسبة لروما ترجع إلى القمح والمال الذى كان يرسل سنويا إلى روما على سبيل الجزية . وإذا أضفنا إلى ذلك ما اشتهر به المصريون فى ذلك الوقت من كثرة ثورتهم وخاصة فى الجزء الأخير من حكم الأسرة البطلمية بسبب ضعف ملوكهم ؛ لذلك وجدنا أغسطس يقيم فى مصر حامية احتلال كبيرة نسبيا . إذا قورنت بالحاميات الرومانية فى كثير من الولايات الرومانية الأخرى ويذكر استرابون أن هذه الحامية تكونت من ثلاث فرق وتسع سرايا وثلاث وحدات من الفرسان^(٢) . وتقدر قوة هذه الحامية بعدد ٢٢٨٠٠

(١) خير دراستين عن الوالى الرومانى فى مصر هما : O. W. Reinmuth, The Prefect of Egypt from Augustus to Diocletian (1935); and A. Stein. Die Praefekten von ägypten in der Römischen Kaiserzeit (1950).

ولم نذكر هنا نظر أفلر pp. 122 ff. Malte, Egypt Under The Roman Rule.

(٢) Strabo. 17: 1. 12.

طبقة الكهنة المصريين الذين يمثلون القيادة المنظمة الوحيدة للأهل^(١) .

تيريوس : هذه هي أهم الأحداث التي حدثت في الأعوام الأولى بعد فتح مصر زمن الإمبراطور أغسطس . ولما خلفه الإمبراطور تيريوس بعث أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية البارزين المعروف باسم جرمانيكوس كحاكم عام للولايات الشرقية في آسيا ، وانتهاز جرمانيكوس فرصة وجوده في الشرق وقام بزيارة مصر في سنة ١٩ . وكان يقصد من القيام بهذه الزيارة التعرف على آثار مصر ، ولو أنه ادعى الحرص على مصلحة الولاية سبباً له . ولكن جرمانيكوس حين ذهب إلى مصر لم يستأذن من الإمبراطور ، حسب قرار أغسطس بعدم السماح لأعضاء مجلس السناتو بدخول هذه الولاية دون إذن الإمبراطور . وزيادة على ذلك وصلت الأخبار للإمبراطور أن جرمانيكوس أثناء زيارته للألكسندرية لم يحافظ على المظهر الرسمي للحكام الرومان ، بل سار بين الناس بغير جرس خاص مرتدياً الملابس الإغريقية . ومنتعلاً صندلاً ، كما فتح صوامع الغلال وخفض أسعار القمح ، لأنه صادف أن كانت مصر تعاني من قلة القمح ، وارتفاع أسعاره بسبب انخفاض الفيضان في ذلك العام . كل ذلك قرب به إلى قلوب الناس ، وجعلهم يخلعون عليه من مظاهر التعظيم والتعجيد مما يليق بشخص الإمبراطور فقط ، حتى اضطر جرمانيكوس إلى إصدار أوامره بنهاهم عن ذلك .

ويبدو أن الإمبراطور تيريوس لم يرض عن هذه الزيارة وجميع ملباساتها ، ولعله ضاق بأعمال جرمانيكوس ومسلكه الذي زاد من شعبيته بين الأهالي وبدو أن ثورة تيريوس لهذه الزيارة كانت شديدة ، حتى أنه أثار موضوعها في المجلس السناتو وهاجم جرمانيكوس ، ولامه نوعاً ما

(١) أنظر : Milne, Egypt, p. 11; and Camb. Anc. Hist. X, 290

لمسلكه من حيث اتخاذ الرى الإغريق وإهماله للمظهر الرومانى ، ولكنه اتخذ من عدم استئذانه ذريعة لتوجيه أعنف النقد له لأنه قد خالف قاعدة من قواعد الحكم التى وضعها أغسطس^(١) .

اشتهر تيرىوس عامة بالحزم فى الإدارة والعناية بشئون الولايات خاصة ، ومن ذلك ما يروى أن والى مصر فى عهده بالغ فى جمع الجزية حتى زادت على المبلغ المقدّر سنوياً ، فلامه على ذلك ، وقال له كلمته المشهورة « إنما أرسلتك لتجرب الأغنام لا لتساعها »^(٢) . وهناك من الدلائل ما يبين أن مصر قد بدأت تدخل فى عهده مرحلة الانتظام والاستقرار الاقتصادى وأن جهود أغسطس لإنعاش اقتصاد البلاد قد بدأت تؤتى ثمارها . وأهم دليل على هذا الاتجاه هو إصدار عملة جديدة فى مصر . ذلك أن أغسطس منع إصدار عملة فضية فى مصر ، واكتفى بأن تصدر دار السكة فى الأسكندرية دراهمات برنزية فقط . وفى الوقت نفسه حدد قيمة العملة البرنزية بالنسبة للدينار الرومانى الذى على أساسه تقدر الجزية السنوية . أدرك تيرىوس التعقيد الذى ينجم عن نظام العملة فى مصر ، ولذلك قرر إصدار عملة فضية جديدة من فئة الأربع دراهمات ، (ويبدو أن هذه العملة كانت خليطاً من الفضة والبرنز) ، وكان لهذه العملة الجديدة قيمة الدينار الرومانى^(٣) ذاته .

(١) أهم مصدر عن زيارة جرمانيكوس لمصر هو Tacitus, Ann. II. 59. (وتوجد ترجمة عربية للنص اللاتينى فى كتاب مصر والإمبراطورية الرومانية للدكتور عبد اللطيف أحمد على ص ٧٢ — ٧٥) . وتوجد إشارات متعددة أخرى لهذه الزيارة فى . Pliny, Nat. Hist; VIII. 185; Josephus, Contia Apion, II. 63; Suetonius, Tiberius, 52, 2; S. B. 3924; f p. OX, XXV. 2435, early 1st. cent. A. D. (?)

Dio Cassius, 57, 10. 5, (٢)

(٣) تعتبر دراسة نظام العملة المصرية فى العصر الرومانى من أعقد الدراسات ويكتنفها كثير من الغموض حول سياسة أغسطس وتيرىوس فى هذا الصدد أنظر : L. C. West and A. C. Johnson, Currency in Roman and Bysantine Egypt (1944) Chaps i—iii; Johnson, Roman Egypt, pp. 424 ff; and id.: Egypt and the Roman Empire (1951) pp. 179

ويعتبر إصدار هذه العملة أهم عمل قام به تiberius في مصر وخاصة من ناحية تنظيم علاقة مصر الاقتصادية بالإمبراطورية الرومانية . فهو من ناحية نظم أمر تحديد الجزية السنوية ويسر طريقة تقديرها وجمعها ، ومن ناحية أخرى وضع أساساً ثابتاً للتبادل التجارى بين مصر والإمبراطورية ، مما يسر عملية الدفع بالدينار أو تحويل الدينار إلى عملة مصرية جديدة مباشرة أو بالعكس . وقد ظهر أثر هذا جلياً في مدى الانتشار العالى الذى أصابته تجارة الإسكندرية في العصر الرومانى .

فترة عام ٣٨ بين الأسكندريين واليهود:

ذكرنا من قبل أن الرومان نظروا إلى اليهود في مصر على أنهم جالية أجنبية يمكن اصطفاها إلى جانبهم ، فهم يختلفون عن المصريين أصحاب البلاد الأصليين ، وعن الإغريق الذين أكرمهم الفتح المقدونى والسلطان البطلمى حقاً وقوة تشعرانهم بانتمائهم إلى البلاد . لذلك عامل الرومان اليهود معاملة فيها كثير من الحفاة ، وابتدأ هذه السياسة أغسطس بأن أقر جميع حقوق اليهود وامتيازاتهم ، ومن بينها مجلس شيوخهم المسمى جيروزيا (gerousia) . في حين أن الأسكندريين — أرقى فئة بين الإغريق — لم يعاملوا مثل هذه المعاملة وسلبوا مجلسهم التشريعى المسمى بولى (boule) . وفي الوقت نفسه كان الأسكندريون يضيّقون بالحكم الرومانى أشد الضيق ، لأنه سلب مدينتهم مجدها السياسى ، فأصبحت عاصمة لولاية رومانية بعد أن كانت عاصمة إمبراطورية . من منقطة . ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما كان عليه حالهم ، وحاولوا أن يزيدوا من امتيازاتهم ، فادعوا لأنفسهم مواطنة الأسكندرية ، وراحوا يترددون على هذا اليوم المدينة ويقسمون أنفسهم في مبارياته وتدريباته . ويبدو أن خلافاً عنيقاً نشأ بين الأسكندريين واليهود حول مواطنة الأسكندرية وحق اليهود

فيها . وراح كل فريق يفند أسانيد الجانب الآخر . وقد وصلتنا في هذا الصدد كتابات يوسيفوس للؤرخ اليهودى الذى تولى أمر الدفاع عن وجهة النظر اليهودية . ولم يقتصر في دفاعه على محاولة إثبات حق اليهود في موطنه الأسكندرية بشتى الأساليب فحسب ، بل لجأ إلى مهاجمة قادة الأسكندريين واتهامهم بزيف انتسابهم إلى الأسكندرية ، كما فعل في هجومه على أبيون في كتابه *Contra Apionem* . ولكن لا ينبغي أن نأخذ ما يقال في هذه الاتهامات مأخذ الجد ، فهم لا اتدو أن تكون نوعاً من المهاترات السياسية التى تكثر أيام الحن والأزمات السياسية .

لم يكن مستغرباً إذن أن يضيق الإسكندريون بموقف اليهود ومحابة الرومان لهم ، فاتخذوهم هدفاً للتنفيث عن سخطهم على الحكم الجديد . وأخذت بوادر النزاع بين اليهود والأسكندريين تظهر جلية منذ نهاية حكم الإمبراطور الثانى تيبيريوس ، حين اضطر الوالى على مصر ويسمى فلاكوس أن يقوم بحملة لجمع الأسلحة من الأهالى . ولكن ذلك لم يجد شيئاً ، وما إن تولى العرش الإمبراطور الثالث جايوس الملقب كاليجولا حتى نشب صراع مسلح بين اليهود والأسكندريين ، فيما يعرف بفتنة عام ٣٨ . وذلك عندما مز بالأسكندرية أجريبيا (Agrippa) الملك اليهودى أثناء عودته من روما بعد أن ولاه كاليجولا ملكاً على إيتوريا ، وهى إمارة صغيرة إلى الشمال الشرقى من يهوذا (أى فلسطين) .

وكان هذا الملك معروفاً من قبل لدى الأسكندريين بأنه ربيب القصر الإمبراطورى فى روما ، حيث توطدت العلاقات بينه وبين الإمبراطور الجديد كاليجولا ؛ وأه كان مبذراً متلافاً إلى درجة الإفلاس . فعجبوا إذ رأوه يصبح ملكاً فجأة ، فأطلقوا عليه أسنتهم الحداد بالسخرية والتجريح . ولما

كان أجريبا صديقا لكاليجولا ، خشوا أن يغضب الإمبراطور لما أصاب صديقه من إهانات . فراحوا يتلمسون علة يبررون بها مسلكهم ، ووجدوها في إعراض اليهود عن عبادة الإمبراطور ورفضهم إقامة التماثيل له في دور عبادتهم . فهاجم الأسكندريون اليهود واقتحموا دور عبادتهم محاولين إقامة تماثيل الإمبراطور بها . وبذلك أخرجوا الوالى فلاكوس أشد الإحراج . وقد سبق أن اضطهد هذا الوالى الأسكندريين وأغاق أنديتهم ومنعهم من حمل السلاح . فإذا حاول هذه المرة قمع الأسكندريين ، فربما يفسر ذلك بأنه عدم ولاء من جانبه للإمبراطور . وبذلك نجح الأسكندريون في استمالة فلاكوس إلى جانبهم ، ولعلمهم تمكنوا من رشوته أيضا ^(١) ، فسلط على الحى اليهودى جنود الجيش الرومانى يعاونهم الأسكندريون بالقتل والسلب والنهب والتدمير . أمام هذه المحنة سعى اليهود إلى أجريبا ليتوسط لدى صديقه الإمبراطور وفعلا نجح المسمى وبعث الإمبراطور قوة عسكرية إلى الأسكندرية ، دخلتها ليلا وألقت القبض على فلاكوس وأخذته إلى روما حيث حوكم ونفى ثم قتل في منفاه . عند ذلك أرسل كل من اليهود والأسكندريين وفوداً تتماهم إلى الإمبراطور وتبرىء ساحتهم من التهم الموجهة إليهم . وقد بقى لنا وصف لهذه السفارات في كتابه « سفارة إلى جايوس » للفيلسوف فيلون ، رئيس الوفد اليهودى ، ومنه نعرف أن هذه السفارات لم تسفر عن نتيجة ذات بال ، لأن الإمبراطور شغل عنها ببعض شئونه الخاصة ^(٢)

(١) كما قد توحى P. OX., 1089. 57 = Musurillo acts of the Pagan Martyrs, No. II.

(٢) وردت أخبار هذه الفتنة في كتابى الفيلسوف اليهودى فيلون ، In Flaccum, ed by Legatio ad Gaium; Box.

الإمبراطور كلوديوس :

استمر النزاع بعد ذلك بين الأسكندريين واليهود ، بينما اجتهد الوالى الرومانى فى مصر قمع بشتى الوسائل ، حتى تولى كلوديوس عرش روما عقب اغتيال جايوس كاليجولا فى ٢٤ يناير عام ٤١ . فانتهم الجانبان فرصة تولى إمبراطور جديد العرش وأرسل كل منهم بعوثاً تهتهن بالحكم وتعرض عليه القضية برمتها .

ومن حسن الحظ أنه قد عثر حديثاً على بردية يونانية تحتوى على الرد الكامل لكلوديوس وهو عبارة عن رسالة من الإمبراطور موجهة إلى الأسكندريين ^(١) . وكل عبارة فيها تنطق بما اتصف به هذا الإمبراطور من الاتزان وسعة الحيلة . فهو فى هذه الرسالة يتناول مطالب الأسكندريين واليهود جميعاً ويرد عليها واحداً واحداً ، على نحو يضع الأمور فى نصابها ويبرئ كلا من الأسكندريين واليهود موقف الإمبراطور النهائى .

ومن دراسة هذه الرسالة نعرف كثيراً من الأوضاع الداخلية فى الأسكندرية وبعض ما كان يعانى منه كل من الأسكندريين واليهود وما كانوا يسمون للحصول عليه ، فالإمبراطور كلوديوس يقسم رسالة إلى ثلاثة أقسام رئيسية (عدا الخطاب والمقدمة والخاتمة) : الأول للرد على ما رفعه إليه الأسكندريون ، من آيات الولاء والتعجيد ، والثانى للرد على مطالب الأسكندريين ، والثالث خاص بمسألة اليهود فى الأسكندرية .

فى القسم الأول من الرسالة يعلن كلوديوس قبوله لبعض اقتراحات الأسكندريين بتكريمه وتمجيده ، عن طريق الاحتفال بعيد ميلاده وإقامة عذبة تماثيل له ولأفراد أسرته فى أنحاء مختلفة من مصر ، وإطلاق اسمه على إحدى

II, I. Bell, Jews and Christians in Egypt, P. Lond. 1912, (١)

قبائل مدينة الأسكندرية ، ولكنه يرفض رفضاً تاماً اقتراحهم بتعيين كاهن خاص لعبادته وإقامة معابد خاصة لذلك ، وينبههم إلى أن مثل هذه الفكرة تمس مشاعر معاصريه ، لأن الناس جميعاً ألفوا أن يكون الكهنة والمعابد للآلهة فقط . وهذا الموقف من كلوديوس يبين لنا مدى اتزانته وأنه لا يضعف أمام الملوك والمديح .

وفي القسم الثانى يتناول كلوديوس أموراً أكثر أهمية تتعلق بنظام مدينة الأسكندرية . فمن ذلك مثلاً ما يتعلق بمواطنة الأسكندرية ، التى كانت تمنح صاحبها امتيازات جمّة مثل الإعفاء من ضريبة الرأس وإمكان الحصول على المواطنة الرومانية مباشرة فضلاً عن المركز الأدبى الممتاز الذى كان يتمتع به الأسكندريون . من أجل ذلك حرص كثير من فئات السكان المختلفة على إحتجام أنفسهم ضمن مواطنى الأسكندرية دون وجه حق . ويبدو أن هذه المشكلة قد أصبحت مصدر قلق شديد للمشرفين على أمور المدينة^(١) ، حتى أنهم اضطروا آخر الأمر إلى رفعها إلى الإمبراطور شخصياً . وكان رد كلوديوس هو تثبيت المواطنة وامتيازاتها على كل المواطنين فى عهده ، باستثناء من كان من نسل جارية . وكذلك يوافق كلوديوس على اقتراحات الأسكندريين بأن يكون اختيار كاهن المعبد الإمبراطورى فى المدينة يتم بطريق الاقتراع ، وأن يكون مدة تولى الوظائف المدنية ثلاث سنوات . ويضيف الإمبراطور إلى ذلك قوله « سوف يتصرف الموظفون على نحواً أكثر حذراً واعتدالاً حينما يحسون بقرب تقديم الحساب عن أى إساءة ارتكبوها وهم فى الوظيفة » . ونفهم من إدخال نظام الاقتراع على وظيفة الكاهن أن تولى الوظائف الأخرى كان يتم بطريق آخر ولعله الانتخاب ؛ كما نفهم من تعليق الإمبراطور على تحديد مدة

(١) ورد ذكر هذه المشكلة أيضاً فى البردية الشهيرة P. S. I., 1160 (early empire);

الوظائف بثلاث سنوات أنها كانت قبل ذلك غير محددة أو أطول من ثلاث سنوات على أى حال .

وفى ختام هذه الفقرة يتناول الإمبراطور مطلباً عزيزاً على الأسكندرانيين طالما سعوا للحصول عليه منذ عهد الإمبراطور أغسطس نفسه ، ألا وهو إنشاء مجلس تشريعى للمدينة ، وهنا يجب على كلوديوس أن يكون على حذر فيما يقول ، فهو يعرف مدى حرص الأسكندرانيين على تحقيق هذا المطلب ، ولكنه يعرف أيضاً أن الإمبراطور أغسطس قد سبق أن رفض إجابتهم إلى رغبتهم ، إن لم يكن هو الذى سلبهم مجالسهم التشريعى ، وكل ما صدر عن أغسطس من نظم وتشريعات لا يجرؤ كلوديوس أن يتناولها بالنقض أو التغيير . ولهذا وجدناه يرد على طلب الأسكندرانيين بأنه سوف يتصل بواليه على مصر ليجت له الأمر ، وفى الواقع كان معنى هذا الرد هو تأجيل النظر فى المسألة إلى أجل غير مسمى كما نقول الآن :

بعد ذلك ينتقل كلوديوس إلى القسم الثالث من رسالته الخاص بالمسألة اليهودية ، وهنا تتبدل لهجته فى الحديث كل التبدل ، فبدلاً من أسلوب المجاملة والسياسة نجده يصطنع الصرامة والحزم ، وينذر كلا من الأسكندرانيين واليهود ، أنه لن يسكت على استمرار منازعاتهم ، فبينما ينصح الأسكندرانيين بحسن معاملة اليهود ، ينبه اليهود إلى حقيقة وضعهم فى المدينة ، لأنها ليست وطنهم الأصلى وليست مدينتهم ، وأن عليهم أن يفعلوا بما أتيح لهم فيها من رغد العيش ألا يسعوا إلى نيل أكثر مما لهم (ولعله يقصد مواطنة الأسكندرية) ، وألا يثيروا القلاقل بإحضار مزيد من اليهود إلى المدينة من خارجها سواء من مصر أو من سوريا .

هذه هى رسالة الإمبراطور كلوديوس إلى الأسكندرانيين ، وتعتبر من أهم

الوثائق التي وصلتنا عن مصر في العصر الروماني . ونحن لا نعرف مدى ما أحدثته هذه الرسالة الحكيمة . من تأثير في الخلاف بين اليهود والإغريق في الإسكندرية فأحدى برديات المجموعة المعروفة باسم أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين تبين أن في عام ٥٣ على أغلب الاحتمالات قدم إزيدور ولا مبسون من زعماء الأسكندريين لامحاكمة أمام الإمبراطور كلودبوس في روما ، وكان الطرف الآخر في التمضية أجريبا الملك اليهودي وصديق الإمبراطور^(١) . والبرديات التي تحتوي على أخبار هذه المحاكمة ناقصة ومبتورة في أكثر من موضع بحيث لا يمكننا معرفة حقيقة التهمة التي من أجلها حوكم إزيدور ولا مبسون ، ومع ذلك فانهذه الوثيقة أهميتها الخاصة لأنها تعطينا مثالا من أمثلة ذلك الأدب السياسي الذي روج له الأسكندريون في جهادهم ضد الحكم الروماني وهو الذي يطلق عليه اصطلاحاً « أعمال الشهداء الوثنيين أو أعمال الأسكندريين » للتشابه بينه وبين « أعمال الشهداء المسيحيين » فيما بعد . وأدب الشهداء الوثنيين يمثل زعماء الإسكندرية وهم يحاكون ويستشهدون دفاعاً عن مدينتهم ، مظهرين في ذلك ألواناً من الجرأة والبطولة مما يضعهم في مصاف شهداء أصحاب المبادئ . فمن النسخ المختلفة التي وصلتنا عن محاكمة إزيدور نجد هذه المواقف المثيرة :

إزيدور : مولاي قيصر ، أرجوك أن تسمع مني قصة مآسى وطني .
الإمبراطور : سأهيك هذا اليوم .

وهنا وافق على ذلك جميع أعضاء السناتوالحاضرين كساعدين للإمبراطور
لعلهم من هو إزيدور .

كلودبوس قيصر : لا تقل شيئاً ضد صديقي (أى أجريبا) . لقد سبق أن .

Musurillo. acts of the Pagan Martyrs (acta (١)
Alexandrinorum), No. IV. acta Iaidori.

قضيت على اثنين من أصدقائي ، ثيون رئيس المدينة (ا كسيجيتيس) ..
لامبسون لإيزيدور : لقد رأيت الموت بعيني ...

كلوديوس قيصر : إيزيدور ، لقد قتلت كثيرين من أصدقائي .

إيزيدور : كنت أطيع أوامر الإمبراطور حينئذ . وكذلك بالنسبة لك ،
فأنا مستعد لإدانة أى شخص أشاء .

كلوديوس قيصر : أحقاً أنت ابن راقصة ياإيزيدور ؟

إيزيدور : أنا لست عبداً ولا ابناً لراقصة ، وإنما جمتازيارخس لمدينة
الإسكندرية العظيمة . ولكن أنت ابن منبوذ لساوم اليهودية ، ولذلك ..

لامبسون لإيزيدور : قد لا نملك سوى الإذعان لإرادة ملك مجنون (بعد
ذلك يتحدث كلوديوس ، ونفهم أن الحكم قد صدر بإعدام
إيزيدور ولامبسون) .

وفي نسخة أخرى من الحكمة ذاتها ، يهاجم إيزيدور الملك أجريبا ؛ وذلك
عندما يدافع عنه الإمبراطور ، فيقول إيزيدور : « مولاي قيصر ، ماذا يعنيك
من أمر أجريبا ، وهو يهودى لا يساوى شروى نقيز » كلوديوس قيصر :
ماذا تقول ؟! إنك لأوقع الناس جميعاً ..

هذا مثال من الأدب السياسى الذى استمد الأسكندريون مادته من مواقف
حقيقية فى تاريخ صراعهم ضد السيطرة الرومانية . وهذا هو سر أهمية ذلك
الأدب بالنسبة للمؤرخ ، فرغم المبالغة التى قد يصطنعها الكاتب فى وصف الموقف
إلا أنه يعتمد فى أغلب الأحيان على معلومات حقيقية . ولهذا فنحن لانشك
أن هذه الحكمة حدثت فى عهد الإمبراطور كلوديوس وأن إيزيدور ولامبسون

لقيا حقيقتهما نتيجة للمحاكمة ، كما تؤيد ذلك بردية أخرى من القرن الثانى (١).

نيرون (٥٤ - ٦٨) :

بعد كلوديوس الحازم المعتدل تولى حكم روما نيرون الذى تمتاز شخصيته بالتطرف وعدم الاتزان فى معظم ما يصدر عنه . ورغم كثرة جرائمه فى روما ، فيبدو أن ميله المحموم نحو الفن قد جعله يكن لمصر كثيراً من الإعجاب بها ورغبة قوية لزيارة آثارها . ويقال إنه أراد أن يصيب بمصفرين بحجر واحد ، فاعتزم القيام بحملة عسكرية إلى إثيوبيا وراء حدود مصر الجنوبية ، وفى الوقت نفسه يزور مصر ويشاهد آثارها العجيبة (٢) . وبذلك يكون قد أدى واجبه كحاكم من ناحية ، وكذلك أرضى رغبته الشخصية من ناحية أخرى . ورغم الشروع فى تنفيذ هذه الخطة الهائلة ، إلا أن شيئاً منها لا يتحقق نظراً لقيام ثورة يهودية كبيرة فى فلسطين ، شغلت الإمبراطور وجيوشه ، وجعلته يحول استعداداته من إثيوبيا إلى فلسطين . وما كان من الممكن أن تحدث مثل تلك الثورة فى فلسطين ولا يكون لها صدى فى مصر ، حيث العلاقات بين الإغريق واليهود دأمة التوتر . وفعلاً نشبت فتنة بين الفريقين فى الأسكندرية وكان نيرون فى عام ٦٦ قد عين والياً على مصر تبيريوس يوليوس إسكندر ، وهو من حيث النشأة يهودى مصرى من الأسكندرية ، ولكنه ارتد عن دينه واكتسب انواطنة الرومانية وأمكنه التدرج فى سلك الوظائف الرومانية . وقد حاول تبيريوس اسكندر أن ينصح رؤساء الجالية اليهودية بالالتزام بالحكمة ، ولكن دون جدوى ، فاضطر إلى أن ينزل قوات الجيش الرومانى المعسكرة فى معسكر نيقوبوليس (مصطفى كامل برمل الأسكندرية) وأن يوجهها إلى مصدر الثورة

Musurillo, acts, No. XI. 78—80.

(١)

Anderson. in Camb. anc. Hist. Vol.X, عن هذه الحملة أنظر

(٢)

pp. 880 ff.

في منطقة اليهود ، حتى ليقال إن خمسين ألفاً منهم هلكوا في تلك الفتنة .
ويبدو مع هذا كله أن مصر لم تضرب عن فكر نيرون ، فحينما سمع بثورة
الجنود ضده واختيارهم جالبا Galba إمبراطوراً ، فكر في أن يعتزل في مصر أو
أن يطلب أن يعين واليا عليها

فبسيان (٦٩ - ٧٩) :

كان العام الذي أعقب مقتل نيرون (٦٨ - ٦٩) عام فتن وفوضى في
روما ، تعاقب فيه على العرش أربعة أباطرة ، جالبا وأوتو وفيتليوس وفبسيان
وقد عرف لهذا السبب بعام الأباطرة الأربعة . فلم يكن الإمبراطور يستقر
على عرشه سوى أسابيع أو أشهر قليلة وذلك بسبب تدخل الجيوش الرومانية
في الغرب في شئون السياسة والحكم . فكان الجنود يعينون وبمزولون الأباطرة
حسب أهوائهم المتفرقة . ولم تتدخل الجيوش في الولايات الشرقية في عملية
تعيين الأباطرة وعزلهم في أول الأمر ، حتى إذا كان عام ٦٩ أعلن فبسيان
قائد الجيوش في سوريا نفسه إمبراطوراً ، وقد بقي مركزه غير مؤكد حتى أول
يوليو حين أعلن والى مصر مناصرته له وأخذ له يمين الولاء من الجيش
الروماني في الأسكندرية ، وكان لا يزال في روما إمبراطوراً آخر له ولواء الجيوش
الغربية . عند ذلك اتجه فبسيان نحو الأسكندرية ليحارب الإمبراطور القائم
في روما وهو فيتليوس من هناك ، عن طريق منع إرسال قمح مصر إلى روما .
ولكنه لم يضطر إلى تنفيذ تلك الخطة لأن الجنود في الولايات الغربية وفي روما
أعلنوا ولائهم لفبسيان بسرعة لم تكن متوقعة . هذه الحادثة تدل على مدى
خطورة مصر بالنسبة لروما ، وليس أدل على ذلك من أن فبسيان اعتبر تاريخ بدء
حكمه منذ أول يوليو عام ٦٩ وهو تاريخ إعلان والى مصر ولائه له ، رغم أن
الإمبراطور فيتليوس بقي متربحاً على عرش روما حتى ٢١ ديسمبر من العام نفسه .

وقبل أن يذهب فسبسيان إلى روما حضر إلى مصر لأخذ البيعة بنفسه . فاستقبله الناس في الأسكندرية استقبالا رائعاً ، وعاموه معاملة الإله . وسرعان ما ظهرت له معجزات فأبرأ ضريرا ، ورد ذا عاهة سليما معافى . ولكن بعد أيام النشوة والفرح الأولى باستقبال أول إمبراطور يحضر إلى مصر شخصياً منذ أغسطس ، سرعان مات بين الأهالي أن إمبراطورهم المؤله ليس سوى رجل أعمال دقيقة ، يعرف صالح خزائنه قبل كل شيء ، فزاد الضرائب وتشد في جبايتها إلى آخر درهم . وهنا أطلق الأسكندريون عليه ألسنتهم الحداد بالسخرية ، وأطلقوا عليه من الأسماء كل ماهو ساخر لاذع حسب ماتوحى المناسبة . من ذلك أنه طالب أحد الأفراد بمبلغ ستة أوبل (وهو مبلغ زهيد لاتزيد قيمته على ثلاثة قروش) ، فأطلق عليه أهل الأسكندرية لقب « أبو ستة أوبل » فانتقم منهم فسبسيان بأن فرض على مواطني مدينة الأسكندرية ضريبة الرأس بنفس المقدار وهو ستة أوبل . وهو مبلغ تافه ، ولكن مجرد إخضاع الأسكندريين لضريبة الرأس . كان يعتبر إهانة ومساساً بمكانتهم ، نظراً لأنهم كانوا معفين منها وكانوا يعتزون بهذا الامتياز كل الاعتزاز . على أى حال يقال إن تيتوس ابن الإمبراطور شفع للأسكندريين وألغيت الضريبة^(١) .

ومن مصر أرسل فسبسيان ابنه تيتوس مع جيوش من مصر ليتولى أمر حصار بيت المقدس . وقد انتهى هذا الحصار بسقوط بيت المقدس وتدمير المدينة نهائياً سنة ٧٠ ، الذى يعتبر تاريخ نهاية دولة بين إسرائيل في فلسطين . ويبدو أن بعض عناصر من يهود فلسطين فرت إلى مصر وحاولت تأليب اليهود بها . للثورة ضد الرومان ، ولكنهم لم يصيبوا نجاحاً كبيراً . وبعد عودة تيتوس إلى مصر ، أظهر كثيراً من التودد والعطف نحو الأهالي ، كما شهد حفلة تكريس

(١) عن فسبسيان في مصر أنظر Milne, Egypt under Roman Rull, 28 ff.

عجل أليس إلهًا ، مما زاد من تعلق المصريين وحبهم له .

ويبدو أن مظاهره الإجلال التي أبداهاتيتوس نحو الآلهة المصرية تمثل اتجاهًا جديدًا في السياسة الرومانية نحو الديانة المصرية ، لأن الإمبراطور دوميتيان من بعده (٨١ — ٩٦) أنشأ معابد في روما ذاتها لكل من إزيس وسرايس . ورغم أن هذه الآلهة — وخاصة إيزيس — كانت معروفة ومعبودة من قبل في روما وإيطاليا ، إلا أن إنشاء الإمبراطور معابد خاصة لها في روما كان بمثابة اعتراف رسمي بهذه الآلهة ، بعد أن استمرت تعبد هناك بصورة غير رسمية .

تراجان (٩٨ — ١١٧)

تنشط الحياة السياسية من جديد بصورة عنيفة في عهد الإمبراطور تراجان . وتأتلف عدة عوامل لإثارة الشعور العام وبعث روح الثورة ، من ذلك سوء إدارة وسلوك الوالى الرومانى في ذلك الوقت ، ولكن أخطر من ذلك حدوث مجاعة بسبب انخفاض النيل ، وأخيراً تجدد الصراع بين اليهود والإغريق على نحو لم يسبق له مثيل .

ويبدأ تاريخ مصر في عصر تراجان بالحادثة الأولى الخاصة بالوالى الرومانى، إذ قد وصلتنا عنها بردية على جانب كبير من الأهمية . هذه البردية هي إحدى وثائق أعمال الشهداء الوثنيين^(١) . وهي تصف محاكمة الوالى لمصر أمام الإمبراطور في روما ؛ ويتولى أمر مهاجمته المتحدث، باسم وفسد الأسكندرين المائل أمام الإمبراطور لهذه المناسبة . ومما تحتويه هذه البردية نعرف أن التهم الموجهة إلى الوالى التهم ، ويسمى فيبيوس ما كسيموس ؛ متعددة متشعبة ، وهي الابتزاز والربا واستغلال السلطة والتعسف مع مخالفة القانون إلى جانب

Musurillo, acts, No. VII.

(١)

الفساد الأخلاقى والانحراف الخلقى. ويدلى المتحدث بأقواله فى قوة وثبات ، وفى كل مرة يأتى بالأدلة التى تدين الوالى ، ويقف وقفة طويلة عند موضوع الفساد الخلقى ويصف هيام الوالى بـ غلام وظهورها معا بمنظر يسيء إلى الشعور العام . ورغم أن التهمة الأصلية هى تهمة الابتزاز، فإن إيراد المسائل الأخلاقية كان المقصود منه إثارة الإمبراطور ضد الوالى وكسبه إلى جانب الأسكندرانيين ، ولا يبعد أن كاتب البردية قد أسهم فى اللبالة أيضاً بعض الشيء ليزيد من العنصر الروائى للحكاية ، مما يتفق وطابع أدب الشهداء الوثنيين ، خاصة وأن الهدف الأساسى من حفظها ونشرها هو الدعاية ضد الحكم الرومانى فى مصر، وبما لا شك فيه أن هذه التهم والشكاوى أنهت ولاية ما كسيموس على مصر فى شيء كثير من الخزى ، حتى أن اسمه أزيل من ثلاثة نقوش عثر عليها^(١) .

ولعل ما سمعه تراجان من سوء الحكم فى مصر حفزه على الاهتمام بأحوال هذه الولاية ، فأن ألت بمصر الجماعة بسبب انخفاض فيضان النيل ، اهتم تراجان بالأمر كل الاهتمام ، فأرسل إلى مصر أسطولا محملا بالغلال مما كان محفوظا لحاجة روما ، وبذلك خفف من ضائقة البلاد^(٢) .

ولكن سحائب اضطراب جديد أخذت تتجمع فى أنحاء البلاد ، إذ أخذ النزاع التقليدى بين اليهود والإغريق يظهر من جديد ، ولكن يبدو أنها كانت حركة قصد اليهود من ورائها إحراج الحكومة الرومانية عموما . بدأت من الأسكندرية ثم أخذت هناك (١١٠ أو ١١٣) ، وأرسل بعض زعماء اليهود والأسكندرانيين للحاكم أمام الإمبراطور الرومانى ، كما توضح إحدى برديات أعمال الشهداء الوثنيين المعروفه باسم „Acta Hermatici“^(٣) .

I. G. R. 1148; 1175; 1357 = C. I. L. 141482. (١)

Pliny Jun. Paneg. 31—32. (٢)

Musurillo, Acts, No. VIII. (٣)

ومن هذه البردية نعرف أن أفلوطينا ، زوجة الإمبراطور ، كانت متشيعة إلى جانب اليهود ، وأنها سعت للتأثير على تراجان ليكون في جانب اليهود . ويدرك هرميسكوس هذه الظاهرة ، ويثيرها في حديثه إلى الإمبراطور ، إذ يقول له إن مجلسه غاص باليهود، فيغضب الإمبراطور . ولكن هرميسكوس يستمر مخاطباً الإمبراطور في ثبات تام « أيزعجك إذن أن أذكر اليهود ؟ إذا كان الأمر كذلك ، فأولى بك أن تساعد بني قومك وأن لا تتصدى للدفاع عن اليهود الملحدين » .

وتنتهى البردية بعد ذلك دون أن تذكر نتيجة المحاكمة ولكنها تذكر معجزة حدثت حينئذ ، وهى أن تمثال الإله سرايس الذى كان يحمله الوفد الأسكندرى تصبب عرقاً فجأة ؛ فدهش الإمبراطور وتصايح الناس في روما وهرعوا إلى الجبال خشية نذير الإله .

ويبدو أن الاضطرابات تجددت في الأسكندرية بعد ذلك في عام ١١٤ ثم أخذت في الحال . ثم انتهز اليهود فرصة انشغال الإمبراطور في الحرب ضد البارثيين في الشرق حتى أشعلوا نار ثورة جاحمة في أنحاء مختلفة من مصر وبرقة؛ واستطاعوا أن يسيطروا على البلاد بعض الوقت . وعجزت الجيوش الرومانية القليلة الموجودة في مصر عن مواجهة الموقف ؛ فاضطر الوالى أن يلجأ إلى تجنيد الأهالى في فرق محلية في كل نوموس أو مقاطعة تحت قيادة الحاكم المحلى (Strategos) ومن حسن الحظ أن لدينا مجموعة كبيرة من أوراق البردى خاصة بأبولونيوس^(١) استراتيجوس إحدى مقاطعات الصعيد وتلقى ضوئاً على ظروف

(١) وقد نشرت هذه الأوراق في مجموعة P. Giessen (= Griechische Papyri im Museum des oberhessischen Geschichtsvereins Zu Giessen, 1910 — 1912); Die Bremen Papyri, ed. U. Wileken, (1936).

هذه « الحرب ضد اليهود » كما أسماها الأهالي . ونعرف من أوراق أبولونيوس أنه لم تحدث معركة فاصلة بين الجانبين ؛ وقام استراتيجوس كل نوموس بمعاونة الأهالي المسلحين لتأمين منطقته وتصيد الثوار المارقين من اليهود حتى قضى عليهم تماما .

ومن الإجراءات العسكرية التي تمت على عهد تراجان في مصر إدخال بعض التعديل في الحامية الرومانية ؛ وإقامة حصن جديد عند رأس الدلتا وهو المعروف باسم حصن بابليون ؛ ومنذ هذا التاريخ بقي هذا الحصن من أهم نقاط الدفاع عن مصر .

هادريان (١١٧ - ١٣٨) :

وفي عهده شهدت مصر ثالث زيارة من امبراطور روماني ؛ إذ حضر هادريان إلى مصر في شتاء عام ١٣٠ عن طريق فلسطين والفرما إلى رأس الدلتا ثم صعد في جنوب مصر إلى طيبة ثم عاد إلى الإسكندرية . وما من شك أن الهدف الرسمي للرحلة هو التفتيش على ولايات الإمبراطورية الشرقية ؛ ولكن هذه الزيارات في مصر تأخذ عادة طابع الرحلات السياحية فقد اهتم هادريان أثناء وجوده في الصعيد بدراسة أحوال البلاد قدر ما اهتم بزيارة معالم آثار مصر الشهيرة وكان من أحبها إلى نفوس الزوار حينئذ زيارة تمثالي ممنون اللذين كان يخرج منهما صوت جميل عند مشرق الشمس بفضل تبخر الندى وهبوب نسيم الصباح .

ومن أهم أعمال هادريان في مصر هو إنشاء مدينة يونانية جديدة ؛ وهي مدينة أنتينوبوليس ؛ فكانت أول مدينة يونانية ينشئها الرومان في مصر إلى جانب المدن الأربع السابقة . وقيل إن هادريان أنشأ هذه المدينة تخليداً لأحد أفراد حاشيته المقربين إليه الذي يسمى أنتينوس Antinous والذي توفي أثناء الرحلة المصرية . ونظراً لمليل هادريان القوي إلى الحضارة اليونانية فقد أراد أن

تكون هذه المدينة بمثابة مركز جديد لنشر الحضارة الإغريقية في صعيد مصر ،
ولهذا جعل مواطنيها من الإغريق في مصر ، الذين نقلهم من مدينة بطلمية ومن
الجالية الإغريقية في الفيوم المعروفة باسم « ٦٤٧٥١١ إغريقيا المستقرين في مقاطعة
أرسنوى » وقد تمتع مواطنو هذه المدينة بجميع النظم المألوفة في المدن اليونانية كما
كانت في مدينة نقراطس القديمة بما في ذلك مجلس تشريعي الذي كانوا يعتزون به كل
الاعتزاز ومن بين ما يميز به مواطنو أنتينوبوليس أيضاً هو تمتعهم بحق الزواج
من مصرية ، وهو ما لم تتمتع به المدن اليونانية الأخرى في مصر ^(١) . ولعل
هادريان أراد من وراء ذلك محاولة إيجاد جيل يجرى في عروقه الدم المصري
ومثقف ثقافة يونانية . ولكي يسر للمدينة الجديدة سبيل الازدهار الاقتصادي
مد طريقاً بينها وبين برنيقة على البحر الأحمر ، وزود هذا الطريق بمحطات
للحراسة والمياه ^(٢) . وهو مشروع عاد على المدينة بالخير العميم ، لأن تجارة
مصر الشرقية كانت في ذلك الوقت قد بلغت ذروة من القوة والنشاط وشملت
الهند . وبذلك استطاع هادريان أن يربط مدينته الجديدة منذ نشأتها بمجلة
الاقتصاد المصري .

بعد رحلة الصعيد ذهب هادريان إلى الأسكندرية حيث أعلن حمايته
للمكتبة والموسيون ، وجلس مع العلماء وتحدث إليهم ، كما زاد عددهم بإضافة
عدد من العلماء المتنقلين إلى سجل علماء الموسيون ^(٣) .

وكان لاهتمام هادريان بالثقافة اليونانية في مصر أثر واضح في بحث نشاط
فني ذي طابع يوناني مصري تجلى في الرسوم الجميلة لوجوه الأفراد التي وجدت

(١) حول مدينة أنتينوبوليس أنظر E. Kuhn, Antinoopolis (1913);
H. I. Bell, Antinoopolis, a Hadrian Foundation, Journal of
Roman Studies, 30 (1940) pp. 130 ff.
(٢) I. G. R., No. 1142.
(٣) Historia Augusta. Hadrianus. 20.

على عدد من الموميات المحنطة والتي عثر عليها في منطقة الفيوم ، وبلغت أوجها الفني في منتصف القرن الثاني^(١) .

أنطونيوس التقي (١٣٨ — ١٦١) Antoninus Pius

رغم طول مدة حكمه فإن تاريخ مصر السياسي في عهده يكاد يكون خالياً إلا من ثورة جاحمة في الأسكندرية نجح أسبابها، ولكن نعلم أن الوالى الرومانى ذهب ضحيتها (سنة ١٥٣) . وقد قاست الأسكندرية كثيراً جزاء ثورتها ، ولكن الإمبراطور بعد ذلك حضر لزيارة المدينة وأقام بها بعض المنشآت مثل ميدان للسباق وباب الشمس في الشرق وباب القمر في الغرب .

ماركوس أوريليوس (١٦١ — ١٨٠) Marcus Aurelius

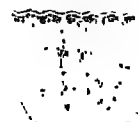
في عهد هذا الإمبراطور الحكيم الفيلسوف بدأت الإدارة الرومانية في مصر تتكشف عن عيوبها الحقيقية . فثورة المصريين ضد جباة الضرائب الرومان في عصر الإمبراطور أغسطس لم يشترك المصريون من أهل الريف اشتراكاً إيجابياً في حركة ضد الحكم الرومانى وظلت الفتن والثورات قاصرة على أهل الأسكندرية واليهود . أما منذ منتصف القرن الثانى لم يستطع المصريون احتمال شدة وطأة الحكم الرومانى ونظام الضرائب المهرق وضروب مختلفة من أنواع الخدمة والعمل الإجبارية بجانب ضريبة القمح وضريبة الرأس وضريبة الملح وضرائب الأرض المتعددة وضرائب التجارة والصناعة النوعية والتفذية ، كان على الأهالى أن يقوموا بأعمال إجبارية مجانية تتدرج من تولد وظائف مختلفة في الإدارة المحلية إلى تسخير ما يمتلكه الأفراد من دواب وفي سبيل نقل الغلال من القرى إلى الأسكندرية لتسجن بعد ذلك في السفن إلى روما . ويأتى في الدرج الأسفل

Edgar Cairo Catalogue, Graeco—Egyptian Coffins, (٢)
p. XIV; Hilde Zaloscer, Potrats aus dem Wusten—Sand, (1961)

من هذه الخدمات الأعمال اليدوية مثل بناء السدود والجسور وتقوية ضفاف النيل وقت الفيضان حتى لا تفيض مياهه فتغرق القرى والمدن . وكانت هذه الأعمال تفرض على الأهالي كرها دون أجر ، كل حسب منزلته وأملاكه . فالعمل الأرقى للأكثر مالا والعمل الأكثر للأكثر فقرا . ولكن جهود الأباطرة الأولية في شق الترع والعمل على إصلاح الأراضي وتحسين الحالة الاقتصادية عموما إلى جانب ، وجود الجيش الروماني الذي أشرف على تنفيذ رغبات الإدارة الرومانية ، كل ذلك كان كفيلا باستمرار سير العمل ومنع المصريين من التصغير في القيام بمسئولياتهم نحو الإدارة الرومانية . ولكن حين أهملت الترع والمصارف وتعاقبت بعض الفتن والثورات مثل ثورة اليهود في عهد الإمبراطور تراجان ساءت ظروف الزراعة كثيرا ولم يقبل الأهالي على العناية بأرضهم لعلمهم بعدم جدوى جهودهم وأن ثمرات أعمالهم ستذهب إلى رومادون أن يبقى لهم منها شيء يذكر .

وليس أدل على خطورة الأحوال الزراعية من أن كثيرين من أصحاب الأرض لجأوا إلى الفرار من أرضهم لعجزهم عن دفع الضرائب ؛ وكانوا يلجأون إلى المدن الكبرى وخاصة الأسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء والعثور على عمل في خضم حياتها التجارية والصناعية النشطة . فإذا تعذرت أمامهم سبل الحياة في الأسكندرية لجأوا إلى أحراش شمال الدلتا ومنشققاتها ليحيوا حياة أشرد فطري .

هذه هي الحالة التي واجهتها الإدارة الرومانية في مصر في الجزء الأخير من القرن الثاني ، وكانت أول نتيجة لهذه الحالة السيئة أن انتهز المصريون إرسال الحامية الرومانية للحرب في منطقة الدانوب ، فقاموا بثورة عنيفة تحت زعامة أحد الكهنة يدعى إزیدور سنة ١٧٢ ، وكان مركز الثورة هو منطقة شمال الدلتا . ~~وكانت~~ ^{وكانت} ~~حركة~~ ^{حركة} ~~إزیدور~~ ^{إزیدور} كانت من القوة بحيث أن القوات الرومانية



الموجودة في البلاد عجزت عن مواجهتهم حتى كادت الأسكندرية ذاتها تسقط في أيدي الثوار . ولإقاز الموقف في مصر اضطرت روما إلى إرسال قوات من سوريا يقودها الحاكم هناك المسمى أفيدوس كاسيوس (Avidius Cassius) ، وبدلاً من أن يقابل الثوار في معركة فاصلة ، لجأ كاسيوس إلى الحيلة والمكيدة وإحداث الفرقة بين صفوف الثوار ، حتى نجح في استمالة بعضهم ، ثم تعقب من تبقى منهم في شكل جماعات صغيرة حتى قضى على الثورة .

ولكن ما إن أخذت ثورة المصريين حتى واجهت روما في مصر نتنة أخرى أشد خطورة ، صاحبها ومديرها هو القائد الروماني المنتصر نفسه أفيدوس كاسيوس . ويقال إن كاسيوس تأمر مع الإمبراطورة فوستينا على اغتصابات الحكم بعد موت ماركوس أوريليوس ؛ ولما بلغه نبأ كاذب بموت الإمبراطور ، اندفع كاسيوس في الكشف عن مؤامراته وإعلان نفسه إمبراطوراً وأخذ البيعة من الجنود في عام ١٧٥ . ولم تتردد مصر كثيراً وعلى رأسها مدينة الأسكندرية في مناضرتة ، لأن المصريين في ذلك الوقت كانوا يؤيدون كل انشقاق أو فتنة ضد السلطة المركزية في روما ، وليس ذلك عن حب في التأثير أو اللشق ولكن كرها للسلطان الروماني عموماً . ويبدو أن مثل هذا الشعور كان شائعاً أيضاً في الولايات الشرقية ، إذ سرعان ما اعترف به السوربون وغيرهم في الولايات الشرقية . ولكن ثورة كاسيوس فشلت بنفس السرعة التي قامت بها ، إذ اغتاله أحد ضباطه بعد مضي ثلاثة أشهر من قيام ثورته .

وفي العام التالي (١٧٦) زار ماركوس أوريليوس الولايات الشرقية بما فيها مصر ، وبدلاً من أن ينتقم منهم لمناصرتهم ثورة كاسيوس عفا عنهم وأظهر

من ضروب الرحمة والشفقة ما يتفق وما اشتهر به هذا الإمبراطور من الحكمة والفلسفة . فقد اكتفى بمزل الوالى ونفيه وكذلك أفراد أسرة كاسيوس ذاته وكان المتوقع أن يصدر عليهم جميعاً الجزاء التقليدى للتوار والمثقين وهو الإعدام^(١).

كومودوس (١٧٦ — ١٩٢) Commodus:

لم تستمر طويلاً سياسة المسالمة وروح العطف والتسامح التى اتبعها ماركوس أوريليوس ، إذ كان ابنه وخليفته كومودوس على النقيض من ذلك ، ميالاً إلى العنف والانتقام . فأثار الأحقاد القديمة وصم على تعقب أسرة أفيدوس كاسيوس وقضى عليهم جميعاً ، كما انتقم من الأسكندريين فخاكم زعماءهم وقتل كثيرين منهم . وقد وصلتنا بردية من عهد الإمبراطور كومودوس تعتبر مثلاً متأخراً من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وتحتوى هذه البردية على أجزاء من محضر محاكمة هليودوروس (ابن كاسيوس ؟) وأبيانوس رئيس جهنازيون الأسكندرية . ويبين الحوار الذى دار بين أبيانوس والإمبراطور مدى الكراهية التى احتفظ بها أهل الأسكندرية ومصر عامة تجاه الحكم الرومانى ، كما تكشف عن جوانب من سوء الحكم وكذلك عن شخصية كومودوس نفسه . ولعل من المناسب أن نورد ترجمة الفقرات الهامة من هذه الوثيقة :

أبيانوس : ... الذين يرسلون القمح إلى المدن الأخرى ، فيبيعونه بأربعة أضعاف ثمنه ، حتى تعوضوا ما أنفقوا .

الإمبراطور . ومن الذى يأخذ هذه الأموال ؟

(١) عن ثورة كاسيوس ومسلك أوريليوس الحليم حيالها أنظر :

Historia Augusta, Marcus Aurelius Antoninus, 25—26; and
ibid, Avidius Cassius, VII.

أبيانوس : أنت

الإمبراطور : أوافق أنت من ذلك ؟

أبيانوس : كلا ، ولكن سمعنا ذلك .

الإمبراطور : ما كان ينبغي أن تنشر هذه الدعوى قبل أن تستيقن من النبأ .
(إلى) بالجلاد !

وفي موضع آخر ، حينما يؤخذ أبيانوس إلى ساحة الإعدام يرى هليو دوروس
فيقول له :

أليس لديك ما تقوله عني يا هليو دوروس بينما أنا أساق إلى الموت ؟

هليو دوروس : لن يمكننا أن نتكلم ، إذا لم يكن هناك من يستمع إلينا ؟

فامض يا بني إلى الموت ، ذلك المجد ، إذ أنك تموت من أجل وطنك
الجليل ، فلا تبتئس .

عند ذلك يستدعى الإمبراطور أبيانوس مرة ثانية ويقول له :

ألا تعرف إلى من تتحدث الآن ؟

أبيانوس : (أجل) أبيانوس يتحدث إلى طاغية .

الإمبراطور : لا ، بل إلى ملك .

أبيانوس : لا تقل أنت هذا ! كان يحق لوالدك أنطونينوس اللؤه أن
يكون إمبراطوراً . ولتعلم أنه كان أولاً فيلسوفاً ، وثانياً زاهداً ، وثالثاً خيراً .
أما أنت فلك عكس هذه الصفات : طاغية وشرير وفساد الأخلاق .

فأمر قيصر بأن يساق أبيانوس إلى الإعدام . وبينما كان أبيانوس يؤخذ
بعيداً قال :

امتنحنى شيئاً واحداً ، يا مولاي قيصر !

الإمبراطور : ماذا ؟

أبيانوس : امنحنى أن أعدم وأنا أرتدى شارات الشرف الخاصة بي

الإمبراطور : لك ما سألت ^(١)

هذه فقرات من هذه المحاكمة الهامة ، لما اشتملت عليه من إشارات لها دلالتها التاريخية . من ذلك ما يهتم به أبيانوس الإمبراطور من أن الرومان كانوا يمارسون تجارة خبيثة وهى أخذ القمح من مصر وبيعه فى الخارج بأربعة أضعاف ثمنه الأصلى . كما تكشف كلمات أبيانوس عن مدى التقدير والحب الذى احتفظ به أهل الإسكندرية لذكرى الإمبراطور أوريليوس ، فوصف بالفلسفة والزهد والخير ، وهو ما لم يوصف بها إمبراطور روماني آخر فى جميع أعمال الشهداء الوثنيين التى يغلب عليها - كما سبق أن ذكرنا - طابع مهاجمة الرومان عموماً . ويتضح من هذه المحاكمة أيضاً ، التى حدثت حوالى عام ١٩٠ أنه بعد أكثر من مائتى سنة من الحكم الرومانى أن جذوة المقاومة لازالت معتقدة فى نفوس المصريين ؛ بل نلاحظ فى هذه المحاكمة أن الموقف ازداد صراحة إذ غاب عنصر النزاع مع اليهود وأصبح الصراع ضد الرومان وجهاً لوجه . ولعل الموجهين للسياسة فى روما قد بدأوا يخشون من ازدياد تفاقم الأحوال فى مصر ، وخاصة بعد ثورة الرعاة فى شمال الدلتا وثورة كاسيوس بعد ذلك ومناصرة المصريين له ، فقام كومودوس ببناء أسطول جديد لنقل القلال من شمال إفريقيا إلى روما ، لإمكان مواجهة الموقف إذا تأخر قمع مصر ^(٢) . هذه الخطوة الهامة لم يقدم عليها الرومان إلا فى نهاية القرن الثانى مما يدل على أن الأحوال فى مصر لم تعد تبعث على الاطمئنان الكامل .

Musurillo, Acts, No. XI "Acta Appiani".

(١)

Historia Augusta, Commodus, 17. 7.

(٢)

ب - مصر في فترة المحنة الكبرى للإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث

يعتبر القرن الثالث الميلادي من أخطر فترات التاريخ لأنه يمثل مرحلة الانتقال — الكبرى من الحضارة القديمة إلى حضارة العصور الوسطى . وكما يحدث في فترات الانتقال الكبرى تكثر الأزمات المختلفة في المجتمع من سياسية واقتصادية واجتماعية ودينية ، وذلك لأن النظم القديمة تتكشف عن عيوبها وقصورها أمام الظروف الجديدة فتتدهور ، بينما تأخذ نظم جديدة أو متطورة عن النظم القديمة في الظهور . وهذا هو ما حدث في القرن الثالث في الإمبراطورية الرومانية . ولكن ليس هنا مجال الحديث عن أوضاع الإمبراطورية عامة ، وإنما سنكتفي من ذلك بما يخص مصر فقط .

ومن أبرز معالم التاريخ السياسي لهذه الفترة كثرة الانقسامات السياسية ، والتنازع حول العرش وتدخل الجيش في هذه المنازعات السياسية ، يعمنون الأباطرة ويمزقونهم أو يقتلونهم حسب انقسام ولائهم وتوزع أهوائهم . ونلاحظ أنه كان للمصريين موقف يكاد يكون موحداً في أثناء ذلك كله ، وهو مناصرة كل وعي للعرش أو تأثير على السلطة المركزية في روما . وكان السبب الأساسي لهذا الموقف من المصريين هو كراهيتهم الشديدة للحكم الروماني . وقد رأينا مثلاً من ذلك في ثورة أفنديوس كاسيوس ضد الإمبراطور الحكيم ماركوس أوريليوس . وسوف تتكرر الأمثلة بعد ذلك في خلال هذا القرن .

سبتيوس سيفيروس Septimius Severus (١٩٣ — ٢١١) :

بعد موت كومودوس تولى العرش برتيناكس (Pertinax) في أول يناير

سنة ١٩٣ ؛ ولكنه لم يبق في الحكم سوى ثلاثة أشهر حتى لقي مصرعه على أيدي بعض فرق الجيش في ٢٨ مارس سنة ١٩٣ . بعد ذلك تنازع الحكم عدد من الأدعياء رشحتهم الجيوش المختلفة هم سبتيوس سيفيروس بانونيا (بمنطقة الدانوب) وأليينوس في شمال الغالة ونيجسير في سوريا . وقد ناصرت مصر حاكم سوريا فصدرت باسمه العملة كما استخدم اسمه في تأريخ الوثائق أيضاً . ولكن سرعان ما تمكن سيفيروس من القضاء على منافسيه الواحد بعد الآخر ودانت له الإمبراطورية بأسرها .

وفي شتاء ١٩٩ — ٢٠٠ زار سيفيروس مصر وقام بالجولة المألوفة للسائح الروماني في ذلك الوقت وهي زيارة بعض معالم الآثار المصرية ومنها تمثال ممنون بطبيعة الحال . ويقال إن سيفيروس أصلح رأس أحد التمثالين ، ولكن نتج عن هذا الإصلاح توقف صدور الصوت الذي كان ينبعث منهما عند شروق الشمس . ولكن زيارة سيفيروس لمصر لم تكن لمجرد النزهة أو السياحة والترويج عن النفس ، بل كان لها هدف وتناج على جانب كبير من الأهمية . فلا بد أن سيفيروس كان على علم تام بسوء ما وصلت إليه الأحوال في مصر ، فقد ساءت الحالة الزراعية كثيراً في الجزء الأخير من القرن الثاني ، وأصيب الجهاز الإداري بمعجزتين تبعاً لذلك ، إذ تعذر وجود عدد كاف من أصحاب الأراضي لتولى جميع مناصب الإدارة المحلية في النومات المختلفة . وكان لابد من القيام بإصلاح أساسي لتدارك الحالة قبل أن ينهار النظام الإداري في الولاية تماماً ، ولهذا أقدم سيفيروس على إدخال أول إصلاح جذري على النظام الذي وضعه أغسطس لمصر منذ أكثر من قرنين من الزمان . ويتلخص إصلاح سيفيروس في أنه قرر إنشاء مجلس تشريعي (بوني boue) في الأسكندرية وفي مراكز النومات (متروبوليس وجمعها متروبولات) . وسوف نتناول أهمية هذا الإصلاح في معرض الحديث عن الإدارة ، ولكن يكفي هنا أن نقول إن الهدف الأساسي

من هذا الإصلاح لم يكن العمل على تقوية النظم السياسية الحرة في المدن ، بل جعل هذه الجمعيات التشريعية الجديدة مسئولة عن ملء الوظائف الإدارية في النوموس ، وبعبارة أخرى ألقى عبء الإدارة المحلية على كاهل أعضاء هذا المجلس التشريعي بدلا من سلطات الإدارة المركزية^(١) . ويجب أن نذكر هنا أن المدن في الولايات الرومانية الأخرى كانت تتمتع من قبل بنظام المجالس التشريعية ، وكانت مصر استثناء من هذه القاعدة . ولهذا يعتبر إنشاء المجالس التشريعية في مدن مصر محاولة لتوحيد نظم الإدارة والحكم بين مصر وسائر ولايات الإمبراطورية .

كارا كلا Caracalla (٢١١ - ٢١٧) :

كان تشريع سيفيروس الخطوة الأولى في محاولات إصلاح النظم الرومانية وقد أعقبها خطوة ثانية على جانب كبير من الأهمية . ذلك أن ابنه وخليفته الإمبراطور كارا كلا أصدر في عام ٢١٢ تشريعا هاما فحواه منح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية من الأحرار . ويفهم من المصادر الأدبية والقانونية القديمة — كما ورد عند ديون كاسيوس وأدليان — أن هذا المنح كان عاما شاملا^(٢) . ولكن عثر حديثا على بردية تحتوي على نص

(١) المصدر الأدبية يجعل منح المجلس التشريعي قاصرا على الأسكندرية : (Dio Cassius, 75, 13 ; Historia Augusta, Severus, 17) ولكن ثبت من الوثائق البردية أن هذه المجالس أُنشئت في جميع مراكز النومات منذ زمن سيفيروس وقد جمعت المصادر البردية ودرست بواسطة : P. Jougue, La Vie Municipale, pp. 334 ff; id., Les Boulai à la fin du IIIe Siecle, Revue d'Egypte, N. S. I. p. 73; A. H. M. Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces. p. 329 and notes; E. P. Wegener, in Symbolae van Oven, pp. 160 ff; and in Mnemosyne (1948) pp. 15—42; 115—132; 297—326.

Dio Cassius, 77: Ulpian, Digest I. 5. 17 : "In orbe (٢) Romano qui sunt ex constitutione imperatoris Antonini (J. e. Caracalla) cives Romani effecti - sunt".

قانون كارا كلا^(١)، ونظراً لأن هذه البردية مشوهة وناقصة في أكثر من موضع صعب تفسير عبارة وردت بها توحى بأن منح المواطنة الرومانية لم يكن شاملاً وأن هناك استثناء معيناً ينص على عدم تمتع الطبقة المسماة « بالخاضعين » (dediticii) بمنحة هذا القانون. ورغم أن المقصود بلفظ « الخاضعين » dediticii هم الأعداء الذين حملوا السلاح وحاربوا الشعب الروماني ولما هزموا خضعوا^(٢) فقد اختلف المؤرخون المحدثون فيما إذا كان قانون كارا كلا (المعروف اصطلاحاً باسم Constitutio Antoniniana) يشمل المصريين أو أنهم كانوا ضمن طبقة الـ dediticii ولذلك ظلوا خارج المواطنة الرومانية، وأن قانون كارا كلا طبق في مصر على أهل المدن وعواصم النومات (متروبولات) فقط. ورغم استمرار الاختلاف بين العلماء حول هذه المشكلة إلى الآن، إلا أن الدراسات الحديثة المعتمدة على الوثائق البردية بصفة خاصة قد أثبتت أن تطبيق قانون كارا كلا في مصر كان عاماً شاملاً للمصريين جميعاً سواء من أهل المدن أو الريف^(٣). (ونكتفي الآن بهذا القدر عن قانون كارا كلا، وسوف نعود للحديث عنه وعن نتائجه في مصر في فصل الإدارة).

في عام ٢١٥ زار الإمبراطور كارا كلا مصر، أي بعد ثلاثة أعوام من صدور قانون المواطنة الرومانية، ولعله كان ينتظر أن يستقبله الأهالي بالحفاوة

(١) P. Gissen, 40

(١)

Gaius, Inst. I, 14. "Vocantur autem peregrini deditici
hi qui quondam adversus populum Romanum gravis sus-
ceptis pugnauerunt, deinde victi se dediderunt.

(٣) أنتمل دراسة حديثة لموضوع قانون كارا كلا هو كتاب : Christoph Sasse, Die Constitutio Antoniniana (1958).
والتفسير الذي أخذت به في النص أعلاه:
E. Bickermann, Das Edict des Kaisars Caracalla in P. Giss.
40 (Berlin, 1926): H. W. Beranio, The Deditici of the
Constitutio Antoniniana, in Transaction of the American
Philological Association, 85 (1954) pp. 188—196.

والإكبار ، شكراً وتقديراً لقانونه ، ولكن يبدو أن الأسكندريين لم يحتفلوا بهذا القانون ولم يسعدوا بصدوره — كما سنبين فيما بعد ، ولذلك سخروا من الإمبراطور الذى شبه نفسه بالإسكندر الأكبر ، وألحوا فيما أطلقوا عليه من أسماء أنه قاتل أخيه جيتا ، الذى كان شريكه فى الحكم . فلم يحتمل كارا كلا هذه السخرية وانتقم من الأسكندريين شر انتقام ، فاجتمع بهم فى الجنائزوم وخاطبهم بلهجة قاسية وأمر بأن يجند شبان الجنائزوم ثم قتلهم: ثم أرسل جيشه فى المدينة بالقتل والسلب والتدمير^(١) . كما أمر بإخراج جميع المصريين الذين ازدحموا فى الأسكندرية فارين من قراهم ، حتى يتجنبوا دفع الضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية . ولم يستثن سوى بعض المصريين الذين لهم عمل أساسى فى المدينة^(٢) .



الجزء الأكبر من القرن الثالث بعد ذلك بين كارا كلا ودقلديانوس يعتبر من أعصب فترات التاريخ ، كثرت فيها الحن والمؤامرات والانقسامات السياسية والحروب الأهلية فى معظم أجزاء الإمبراطورية الرومانية . وكان من الطبيعى أن تضعف السلطة المركزية فى روما نتيجة لذلك ، فكثرت أذعياء العرش ، كما كثرت محاولات الاستقلال فى الولايات ، قام بها زعماء محليون تارة أو قواد الجيوش الرومانية ذاتها تارة أخرى ولم يشذ تاريخ مصر فى تلك الفترة عن هذه الصورة العامة للإمبراطورية . وسوف نحاول الإيجاز قدر المستطاع فى تناول تاريخ هذه الفترة ، نظراً لأن أى إفاضة فى دراستها ستدخلنا فى تاريخ روما ذاتها وتخرجنا عن حدود موضوعنا وهو مصر فى العصر الرومانى . ولهذا

Dio Cassius 77, 22—23; Historia Augusta, Caracalla, 6. (١)

P. Giss, 40

(٢)

سنقتصر على الإشارة إلى أحداث الإمبراطورية التي شملت مصر ، فتأثرت بها أو أثرت فيها .

فمن بين الأحداث التي ابتدأت بها محنة الصراع من أجل السلطة الخلاف الذى نشأ بين مارقينوس (Marcinus) الذى خلف كارا كلاباً مباشرة سنة ٢١٧ وإيلاجبالوس (Elagabalus) الذى ادعى أنه ابن كارا كلاب ، واحاز الأسكندريون إلى جانب مارقينوس ضد ابن كارا كلاب حصصهم القديم ، بينما اتخذ الجيش جانب إيلاجبالوس ، وتعرضت الأسكندرية نتيجة لذلك لمعركة بين الفريقين قاست المدينة من جرائها أهوالاً كثيرة . ويذكر أن مارقينوس عين قائداً للجيش مصر من بين أعضاء السناتو ، مخالفاً بذلك لأول مرة قاعدة وضعها أغسطس منذ حوالى قرنين ونصف قرن^(١) . ولكن يجب ألا نبالغ في أهمية هذه الحادثة ودلالاتها ، فإن نظام أغسطس لحكم مصر قد نقض في أركانه الأساسية بحيث فقد صفاته وملامحه الأصلية ، وخاصة على يد سيفيروس وكارا كلاب .

ومن المحتمل أن الإمبراطور سيفيروس اسكندر زار مصر في عام ٢٢٨/٢٢٩ وحاول التخفيف عن الولاية بالتنازل عن بعض الضرائب . ولكن الأباطرة تلك الأيام كانوا تحت سيطرة الجنود ، وكان سيفيروس اسكندر من هذا النوع من الأباطرة ، ورغم طيب طويته لم يتمكن من أن يمنع الجنود من القضاء على اثنين من خيرة رجال هذا العصر وهما أولبيانوس الفقيه القانونى الشهير ، وديون كاسيوس آخر مؤرخى روما الكبار . وأخيراً راح سيفيروس إسكندر نفسه ضحية مؤامرات الجنود وقتل في عام ٢٣٥ .

وتلاحقت على مصر أخبار الأباطرة وأحياناً تضاربت هذه الأخبار ، دون

Dio Cassius. 78. 35.

(١)

أن تشترك مصر في صنع هذه الأخبار ، ولم يزد تأثير هذه الأحداث في مصر على تغيير اسم الإمبراطور في كتابة تواريخ الوثائق . وكثيراً ما سقطت أسماء بعض الأباطرة من هذه التواريخ لشدة قصر الفترة التي قضاها على العرش في روما . حتى إذا كان منتصف القرن الثالث تربع على عرش روما الإمبراطور ديثيوس ، وكان المسيحيون قد بدأوا بظهور كقوة يحسب لها حساب في الحياة العامة، فقرر هذا الإمبراطور القيام بحملة شاملة للقضاء على جميع أتباع الدين الجديد قضاء تاماً في الإمبراطورية . وكانت خطته هي أن يفرض على جميع الأهالي أن يعلنوا تمسكهم بمعتقداته في الآلهة القديمة عن طريق العبادة والتضحية لها ، وأن يتم ذلك أمام الموظفين المسؤولين ، وعلى كل فرد أن يحصل على شهادة من هؤلاء الموظفين باستيفاء هذا الاختبار ، ومن يرفض القيام بهذا الاختبار كان جزاؤه الموت . وكانت فترة حكم هذا الإمبراطور (٢٤٩ - ٢٥١) محنة كبرى للمسيحيين عموماً ، وقد وجدنا نماذج من هذه الشهادات على بعض البرديات التي ترجع إلى هذا التاريخ^(١) .

وقد بلغت الفوضى السياسية والعسكرية في القرن الثالث أوجها في الفترة التالية (١٥٢ - ٢٦٨) حين كثر التطاحن بين أدعياء العرش وانقسم ولاء الجنود واشتد ضعف السلطة المركزية في روما ، مما أدى إلى إعلان كثير من الولايات استقلالها عن روما ، بما في ذلك مصر فن الواضح أن مصر في سنة ٢٦٠ اعترفت بمرقيانوس وكويتوس الأباطرة في سوريا ، وكلها بعد ذلك أعلنت الوالي إيمليانوس إمبراطوراً بها ، حتى تمكن أحد ممثلي السلطة المركزية في روما من القضاء على هذه الفتن المحلية ، وألقى القبض على إيمليانوس ورد مصر إلى حظيرة الإمبراطورية الرومانية . ويبدو أن كثيراً من القتلى راحوا ضحية

Eusebius, Hist. Eccles VI. 41; Bell. Gults and (١) Creeds, p. 85.

هذه الأحداث حتى لقد قيل إن الأسكندرية فقدت نحوها من ثلثي أهلها^(١) .

زنبوبيا ملكة تدمر تبسط سلطانها على مصر :

في أثناء القرون الثلاثة الأولى من الإمبراطورية ازدهرت في الشرق إمارة تدمر (Palmyra) الواقعة في الصحراء التي تفصل بين سوريا ودولة بابل . وكان محور نشاطها ومصدر ثروتها الأساسي هو نقل التجارة بين الشرق الأقصى وبابل من ناحية وسواحل سوريا من ناحية أخرى . كما مدت نفوذها التجاري جنوباً ونافتت الأسكندرية في تجارة البحر الأحمر ، ومنذ القرن الثاني كثيراً ما تعاون تجار تدمر مع تجار الأسكندرية في العمل معاً في التجارة الشرقية ، ويشهد على ذلك عدد من النقوش التي تثبت وجود تجار تدمريين مستقرين في مدينة قفط في صعيد مصر ، ومركز النقل التجاري من البحر الأحمر إلى الأسكندرية^(٢) .

هذه الجمهورية التجارية في الشرق دخلت سلطان الإمبراطورية الرومانية منذ عصر مبكر ، ولعله يرجع إلى زمن الإمبراطور تيريوس^(٣) ، ولكنها عومت معاملة ودية وتمتعت بنوع من الاستقلال الداخلي ، واستطاعت أن تفيد كثيراً من ظروف النشاط التجاري في الإمبراطورية الذي تزعمته الأسكندرية في القرنين الأول والثاني ، مما مكنها من أن تلعب دوراً سياسياً إيجابياً في القرن الثالث . منذ استطاع أحد حكامها . أودينات^{أديس} . Odenathus أن يستخدم ثروة مدينته في تكوين جيش قوى ساعد به الإمبراطور الروماني جالينوس (Gallinus) ، حتى أن هذا الإمبراطور عينه قائداً عاماً على

(١) Eusebius, Hist. Eccles. VII. 21.

(٢) A. J. Reinach, Rapport sur Les Fouilles de Coptos. (٣) p. 17; C. I. S, II. 3. 3910; O. G. L, S. 639; S E G. VIII. 703

(٣) يذكر جوجيه أن تدمر أضيفت إلى الإمبراطورية زمن تراجان، (Precis de l'Histoire d'Egypte, p 398) ولكن جونز بين أن ضمها إلى الإمبراطورية كان أقدم من ذلك كثيراً. Jones, Cities, 267 and notes.

ولايات الشرق . ولما توفى أوديناث خلفه ابنه الطفل « وهب اللات » (Thus) (Vabalila) الذي سيطرت عليه وعلى الدولة معا والدته الملكة الطموح المعروفة باسم زينوبيا . هذه الملكة لم تقنع بالمركز الممتاز والثراء العريض اللذين كانت تتمتع بهما تدمر وإنما أرادت أن تكون لها إمبراطورية ، وبدأت تبسط سلطانها على الولايات الشرقية ، بما فيها مصر . فأرسلت إلى مصر جيشاً ضخماً عام ٢٦٩ واحتلتها ، بناء على اتفاق سابق مع بعض الزعماء المحليين المسمى

تياجينيس (Timagenes) ورغم مقاومة الحامية الرومانية في مصر وصمودها ضد حيوش زينوبيا في أكثر من موقع إلا أنها فشلت في الاحتفاظ بمصر من أيديهم . حتى إذا تولى عرش روما الإمبراطور أوريليانوس عام ٢٧٠ ، لجأ إلى أعمال السياسة في مواجهة الخطر التدمري فاعترف أولاً بوهب اللات ابن زينوبيا شريكاً له في الحكم ، وصدرت العملة في الأسكندرية تحمل صورة الإمبراطورين على الوجهين : ولكن بعد مرور عام واحد رفض وهب اللات الاستمرار في هذا الحكم المشترك وقرر الاستقلال وأعلن نفسه امبراطوراً ، مما أدى إلى قيام الحرب بين روما وتدمر . وصدرت العملة في الأسكندرية تحمل صورة وهب اللات وزينوبيا فقط ، مما يكشف عن مدى نفوذ هذه الملكة في توجيه السياسة في تلك الأيام . على أي حال في الحرب التي نشبت بين تدمر وروما ، هاجم الإمبراطور بنفسه من الشمال في آسيا الصغرى ، بينما أرسل القائد برويوس (Probus) إلى مصر ، وسرعان ما سقطت مصر في أيدي الرومان من جديد في عام ٢٧١ . ورغم انتصار الإمبراطور أوريليانوس على تدمر أيضاً وأخذ زينوبيا أسيرة في موكب نصره إلى روما ، فإن قيادته الولايات الشرقية لم يسلس له تماماً ، وسرعان ما قامت ثورة في كل من تدمر والأسكندرية عام ٢٧٢ . وكان قائد الثورة في الأسكندرية أحد كبار تجارها يسمى فرموس (Firmus) ، الذي يقال إنه جمع ثروة طائلة من تجارة البردى

والصنع العربى ، واستطاع أن يجمع جيشاً من ماله الخاص . إن قيام تاجر مثل فيرموس بثورة الأسكندرية يوحى بأنه كان على علاقة مع ثوار تدمر أيضاً . أمام هاتين الثورتين فى وقت واحد ، اتجه الامبراطور أوريليانوس إلى تدمر أولاً ، وقضى على الثورة هناك ، ثم تحول إلى مصر حيث انتصر على فيرموس وحاصر الثوار فى حى البروخيون فى الأسكندرية ؛ حتى اضطروا إلى التسليم ولكن بعد أن دمر هذا الحى تماماً وكان مركز الأهم مبانى المدينة^(١) .

بعد ذلك غادر أوريليانوس مصر وتركها فى أيدي قائده برويوس (Probus) لإخضاع قبائل البليبي فى الجنوب ، الذين استغلوا فرصة الثورات المتتالية وتوغلوا فى مصر الجنوبية . وبينما كان برويوس يعمل على إخضاع مصر العليا توفى أوريليانوس ، فانتهمز الجيش فى مصر هذه الفرصة وأعلنوا قائدهم إمبراطوراً . وقد استطاع برويوس أن يفرض نفسه على الإمبراطورية بأسرها وأن يبقى فى الحكم مدة خمسة أعوام (٢٨٦ — ٢٨٢) ، قضاه فى نشاط جم فى حروب ومواقع مستمرة على حدود الإمبراطورية المختلفة . ولكنه قتل فى عام ٢٨٢ بواسطة الجنود ، الذين قتلوا ثلاثة من الأباطرة أيضاً فى العامين التاليين حتى تولى عرش الإمبراطورية دقلديانوس الذى سيتولى مهمة بناء الإمبراطورية من جديد على أسس جديدة تعتبر فاتحة طور جديد من أطوار الإمبراطورية الرومانية .

(١) عن مصادر هذه الفترة أنظر :

Jouguet. *Precis de l'Hist. d'Egypte*, I. p. 404.

وأهم مصدر عن فيرموس وثورته Historia Augusta, Firmus.

الفصل السابع

معالم النظم والحضارة في مصر في العصر الروماني

تكوين المجتمع

يذكر المؤرخ جوزيفوس في نهاية القرن الأول أن عدد سكان مصر — باستثناء سكان الأسكندرية — كان سبعة ملايين ونصف مليون^(١). فإذا قدرنا للأسكندرية نصف مليون من السكان^(٢)، أصبح المجموع ثمانية ملايين نسمة تقريباً. وهو رقم تقريبي ويجب أن نكون على حذر من تطبيقه على مصر في جميع عصورها القديمة، فنحن نعرف ما يصيب السكان من الزيادة والنقصان حسب ظروف الرخاء أو ظروف الأوبئة والقحط والحروب. أما من حيث تكوين هذه الملايين الثمانية، فهي لم تختلف كثيراً عن تكوينها في عصر الأسرة البطلمية، فلا زالوا غالبية من المصريين وأقليات متفاوتة الحجم من الإغريق واليهود وجماعات مختلفة من السوريين والفينيقيين والليبيين وغيرهم. ولكن أهم تغير طرأ على المجتمع المصري هو وجود عنصر جديد هام، وهم المواطنون الرومان الذين جاءوا مع الحكم الجديد سواء ممن جاءوا للعمل كموظفين في إدارة الولاية أو جنود في الجيش الروماني، أو من رجال الأعمال والتجار. وكثير

Josephus, Bell. Jud., II. 16 4.

(١)

(٢) يذكر ديودور الصقلي (XVII. 52. 6) أن عدد الرجال الأحرار في الأسكندرية في عام ٦٠ ق. م. يزيد على ٣٠٠ و ٠٠٠ رجل. فإذا أضفنا إلى هؤلاء النساء والأطفال والعبيد. فإن اقتراح نصف مليون سكان الأسكندرية — في المتوسط — يكون رقماً محافظاً لا مبالغ فيه.

من هؤلاء استقر في مصر وكونوا بمرور الزمن جالية رومانية وجدت في مناطق مختلفة من مصر بعد ذلك .

ومن وجهة النظر القانونية الرومانية قسم سكان مصر إلى قسمين أساسيين رومان ومصريين ، ثم اعتبر الأسكندريون طبقة ممتازة من المصريين أحيطت بكثير من الامتيازات الخاصة . ومن ثم أصبح لفظ المصريين يطلق اصطلاحاً على جميع سكان مصر عدا الأسكندريين ، من إغريق ويهود ومصريين وغيرهم ^(١) . ومقياس هذا التقسيم هو ضريبة الرأس Laographia التي فرضت على المصريين ، ولهذا فهي لا تقع على المواطنين الرومان في مصر ، أما الأسكندريون فقد « أعفوا » منها ^(٢) ، أما سائر السكان فكانوا يدفعون ضريبة الرأس . ومع ذلك فقد حرص الرومان على إبقاء المجتمع المصري مقسماً تقسماً طبقياً . فميز بين فئات « المصريين » في المعاملة ، فتفاوت مقدار ضريبة الرأس بالنسبة للعناصر الإغريقية أو المتأخرة من سكان عواصم النومات (المتربوليين Metropolitans) وبالنسبة للمصريين الفلاحين من أهل القرى والريف ^(٣) .

ولنبداً بالحديث عن الطبقة الجديدة في المجتمع المصري وهي طبقة الرومان ، أرقى طبقة في مصر في ذلك الوقت وتمتعت بأكبر قدر من الامتيازات . من حيث تكوينها ، نجدها تتكون أساساً من الموظفين الرومان الذين عينهم الإمبراطور في المناصب الكبرى بالإدارة المصرية ، ومن رجال الأعمال الرومان

E. Bickermann, in Archiv of Papyrsforschung, (1927) (١)
p. 239; (1428) pp. 40 ff.

(٢) أشير إلى هذا الاعتقاد أكثر من مرة في المصادر القديمة = P. S. I. 1160 Musurillo, No. 1; and No. IV, col, ii, 25—30; Dio Cassius, 66, 8, 5; cf Wallace, Taxation, pp. 118 ff.

(٣) بشأن الضريبة التي فرضها فسبسيان عليهم .

Wallace, Taxation, pp. 121 ff.

(٣)

الذين حضروا إلى مصر من أجل عقد صفقات تجارية في الأسكندرية ، ومن جنود الحامية الرومانية . ومامن شك أن الحامية الرومانية كانت أهم مصدر لإحضار الأجانب إلى مصر ، ذلك أنها كانت تضم أصلاً أفراداً من جميع أنحاء الإمبراطورية في أعداد كبيرة . وعند تسريحهم كانوا يمنحون الجنسية الرومانية ، وكثيراً ما آثروا البقاء في مصر بعد ذلك لأسباب مختلفة . ولكي نعرف مقدار ما أسهم به الجيش الروماني في تكوين الطبقة الجديدة يجب أن نذكر أولاً أن عدد ذلك الجيش في عصر الإمبراطور أغسطس كان ٢٢٨٠٠ جندي ، ثم خفض إلى ١٦٧٠٠ جندي في عصر الإمبراطور تiberius ، ثم خفض أخيراً في القرن الثاني إلى ١١١٠٠ جندي^(١) . ورغم أن الجيش الروماني كان يسمح لمواطني المدن اليونانية في مصر بالانخراط في سلكه ، إلا أن العدد الأكبر من أفرادهم كان يؤخذ عادة من مواطن الولايات الرومانية الأخرى ، وخاصة في أثناء المائة وخمسين عاماً الأولى من الحكم الروماني ، وبعد ذلك ازداد عدد من الجنود محلياً في مصر حتى أصبحوا الغالبية في جيش مصر البيزنطية^(٢) .

ولم يبق جنود الحامية الرومانية معزولين عن الأهالي داخل معسكراتهم ، لا يظهرون أمام الناس إلا وقت الثورات والحن . بل على العكس من ذلك ، فإن ثورات المصريين في ذلك الوقت كانت في معظم الأحيان في فترات متباعدة

J. Lesquier, *L'Armée Romaine d'Egypte*, esp. pp. (١)
101—114

(٢) المصادر الأساسية الخاصة بالجيش الروماني في مصر هي: C. I. L. III.6627 (Early first century); Musée d'Alexandrie, Ino. No. 2577, (157 A. D.). ed by Abdullatif Aly, in *Annals of the Faculty of arts*, Ain Shams University, (1955) pp. 113—146; C. I. L. III. 5680 (194 A. D.). وتوجد إشارة إلى كثير من المعلومات الجزئية الأخرى الواردة في البردي والنقوش في كتاب: G. Forni: *Il Re crutamento delle Legioni de Augusto a Dio Cleziso* (1953) in *Appendice*, B. Tab. 1. p. 167, Tab III, p. 185. Tab IV, p. 204. and p. 95.

وكثيراً ما طالت فترات الهدوء والاستقرار . فكان من الطبيعي أن يبحث الجنود لأنفسهم عن مجالات أخرى لنشاطهم ، خاصة وأن فترة الجندية في الجيش الروماني كانت تمتد عادة إلى خمسة وعشرين عاماً ، وهي سنوات شباب ونضج الإنسان . ولذلك لم يكن مستغرباً أن يخرج من معسكراتهم وأن يتصلوا بالأهالي في مختلف وجوه الحياة اجتماعياً واقتصادياً ، رغم مخالفة ذلك لقوانين الجيش الروماني . فمن الناحية القانونية مثلاً ، كان محظوراً على الجندي أن يتزوج طوال مدة خدمته العسكرية ، ولكن في الواقع كثيراً ما أنشأ الجنود علاقات خاصة مع النساء من أهل البلد وخاصة في الأسكندرية ، وأنجبوا منهم أطفالاً غير شرعيين . وكان من المستحيل أن تقف السلطات الرومانية في مصر من هذه الحالات موقفاً متمتداً ، وإنما أغضت أعينها عما كان جارياً ، وعند تسريح الجنود كان يعترف بزواجهم (Epigamia) الذي تم بصورة غير قانونية أثناء الخدمة ، وكان الجنود وزوجاتهم وأبنائهم يمنحون المواطنة الرومانية ^(١) .

وتبين لنا أوراق البردي كيف كان هؤلاء الجنود يعقدون هذه الزيجات أثناء الخدمة العسكرية . ففي إحدى البرديات نجد خطاباً موجهاً من شخص في الأسكندرية إلى والده يذكر فيه أن جندياً قد طلب الزواج من أخته وهو يستشير والده في الأمر ^(٢) . ولكن مادام مثل هذا الزواج معتبراً غير قانوني فإن عقد زواج حقيقي لا يمكن تسجيله . ولذلك لجأ الطرفان إلى حيلة قانونية تجعل الاتفاق بين الجندي والمرأة في صورة عقد يكفل للزوجة ضماناً كافياً ،

(١) كان يتم ذلك على الأقل بالنسبة للوحدات المعروفة باسم auxilia وخير مثال على ذلك هو البردية المشهورة

B, G. U. 113 (140 A. D.) = Wicken, Chrest. No. 458.

بأن زواج الجنود أنظر : Lesquier, L'armée Romaine. pp. 263—279. G. L. Chessman, The Auxilia of the Roman Arm , (1914) pp 119 ff.

P. S. I., VIII, 967 (1st or 2nd Century A. D.) (٢)

وذلك عن طريق اعتبار «المهر» - الذى كانت تقدمه الزوجة عادة عند زواجها - بمثابة ودیعة لدى الزوج ، ووقع الطرفان عقد ودیعة . وقد وصلتنا على أوراق البردى إحدى هذه العقود الذى تم بين جندى فى الجيش الرومانى يسمى جايوس يوليوس أبوليناريوس وامرأة تسمى بترونيا . وفى هذا العقد يعترف الجندى أنه استلم من بترونيا ملابس نسائية قيمتها ثلاثمائة دراهمة إلى جانب حلى من الذهب « المشفول » ^(١) . ورغم أن جميع الشروط الواردة فى هذا العقد تشبه تماماً شروط عقد الودیعة ، إلا أن الأشياء المودعة تكشف وجه التحايل على القانون ، إذ من المستبعد والمستغرب أن تودع امرأة ملابس نسائية لدى جندى يقيم داخل معسكراته . خاصة وأن هذه الأشياء المودعة هى نفس الأشياء التى يرد ذكرها عادة فى وصف مهر المرأة فى عقود الزواج العادية ^(٢) .

ويبدو أن مثل هذا الزواج عُمر وتكونت منه أسر لها أبناء وعبيد أيضاً ، ولدينا أدلة كثيرة تثبت أن هؤلاء الجنود كانوا يرغبون أبناءهم من زوجاتهم غير الشرعيات رعاية جميع الآباء لأبنائهم . وفى عدد من الوثائق البردية نجد جنوداً يتعاقدون مع مرضعات لأطفالهم وأطفال عبيدهم أيضاً ^(٣) . كما أن أبناء هؤلاء الجنود كانوا يجندون عادة فى فرق الحامية الرومانية ، وكان يذكر رسمياً أمام أسمائهم أنهم من مواليد المعسكرات (Kastresios) باليونانية ex castris باللاتينية ^(٤) .

لم يقتصر نشاط جنود الجيش الرومانى فى مصر على الزواج وتكوين

B. G. U. III. 729 (144 A. D.) (١)

B. G. U. IV. 1050—2 (Augustan Age). مثل (٢)

B. G. U. IV. Nos 1105 ; 1107 ; 1107 ; 1108 ; 1109 (٣)
(Augustan age).

(٤) أنظر مثلاً : C. I. L. III. 6627; and 5680 والجدول الواردة فى نهاية كتاب ; Forni, II Recrutamento, Appendice B

الأسر ، بل كثيراً ما نقابلهم في وثائقنا في مجالات مختلفة من النشاط المالي والاقتصادي ، وخاصة كلاك للأراضي^(١) وممولين ، بقروض المال نظير فوائد مجزية . وهي تجارة مربحة مارسها كثير من الأثرياء في مصر الرومانية^(٢) .

يتضح من هذا العرض أن جنود الحامية الرومانية في مصر لم يهدوا الحياة العسكرية كل وقتهم ، وأنهم بالتدريج امتزجوا بالحياة في البيئة حولهم اجتماعياً واقتصادياً . ولعل الواجب العسكري لم يحتل المكان الأول من اهتمامهم ويبدو أن هذه الحال لم تكن قاصرة على الجيش الروماني في مصر ، فإن ظروف السلام والاستقرار النسبي التي سادت الجزء الأكبر من تاريخ الإمبراطورية في القرنين الأولين شجعت الجنود الرومان في الولايات المختلفة على الانغماس في أوجه النشاط السلمي في البساتن التي وجدوا بها^(٣) ولعل خير ما يصور هذه الحقيقة هو الوصف الذي يورده المؤرخ تا كيتوس لجنود الحامية الرومانية في سوريا في عصر الإمبراطور تيرون ، عندما عهد إلى كوربولا (Corbula) أن يقودهم ضد البارثيين : « فقد وجد خمول جنوده أشد خطراً عليه من مكيدة أعدائه ؛ إذ أن جيشه كان يتكون من فرق أتت من سوريا ؛ كسالى من جراء

(١) الاعتقاد السائد أن أغسطس منح إقطاعات عسكرية Colonia للجنود الرومان في مصر . أنظر : Rostovtzeff. p. 328; Lesquier, L'Armée romaine. p. 287, Soc. & Ec. Hist. of the Roman Empire, 2ad ed; p. 287, وقد ورد ذكر الإقطاعات العسكرية Colonia في بعض الوثائق البردية مثل : P. Giss. 60. Col iii, 6 (119 A. D.); Wilcken, Chrest. 461, 26 (beginning of 3rd. cent. A. D); of also P. Ryl. II. 202 (late 1st cent. A. D.) and the remarks of Rostovtzeff. op. cit, vol. II, p. 669, note 44

P. Hamb. No. 1(57 A.D.); P. Lond. II. 142. p. 203 (65 A.D.) (٢) B. G. U. III, 741 (193—4 A. D); p. Found, 45 (153 A.D)

(٣) قفى شمال إفريقيا مثلاً نجد أن نحواً من نصف المجندين للفرقة الرومانية Legio III. Augusta يذكرون أنهم من مواليد العسكرات : C. I. L. VIII 18067 (Castris)

السلام الذى استمر طويلاً ، لا يكادون يحتفلون بحياة المعسكرات . وكان من بين هذا الجيش أيضاً جنود لم يقوموا بالحراسة أو الملاحظة ، فكانوا ينظرون إلى الأسوار والخنادق على أنها نوع من غرائب الوجود . ليس لديهم خوذات أو دروع ، وإنما هم رجال أعمال مترهلون قضوا خدمتهم العسكرية داخل المدن^(١).

هذه كلمة مختصرة عن أفراد الجيش الرومانى كمعصر من عناصر المجتمع المصرى أثرت فيه وتأثرت به ثم اندمجت فى صفوفه آخر الأمر . لأن هؤلاء الجنود ، بعد أن ارتبطوا بالبيئة المصرية اجتماعياً عن طريق الزواج واقتصادياً عن طريق ملكية الأرض والمعاملات المالية الأخرى ، لم يفادروا مصر بعد أن قضوا بهامدة خمسة وعشرين عاماً تحت اسم الخدمة العسكرية ، واستقروا بالبلاد نهائياً أصبحوا الأساس الذى تكونت منه الجالية الرومانية فى مصر . ويمكن أن نضيف إليهم ، كما سبق أن ذكرنا بعض الموظفين الذين حضروا من روما للعمل فى إدارة الولاية ، وكذلك بعض من حضروا من أجل الاستفادة من عمليات التبادل التجارى . ولكن هؤلاء كانوا أقل بالنسبة لأعداد الجنود الذين استقروا فى مصر . على أن الجالية الرومانية لم تبق قاصرة على هؤلاء ، وإنما انضم إليهم عدد كبير من أبناء الطبقات الممتازة فى مصر الذين سمح لهم بالخدمة العسكرية فى الجيش الرومانى واكتسبوا الجنسية الرومانية عن هذا الطريق ، وكذلك عدد من طبقة الأسكندريين الأرستقراطية الذين استطاعوا الحصول على المواطنة الرومانية . وقد زاد عدد الجالية الرومانية فى مصر كثيراً من هذا السبيل فوجدنا كثيراً من الرومان يحملون أسماء مختلفة ، الجزء الأول عن الاسم - رومانى - وهو عادة اسم الإمبراطور الذى اكتسب المواطن فى عهده المواطنة الرومانية - والجزء الأخير من الاسم يونانى ، مما يكشف عن أصله من بين

صفوف الإغريق في مصر وخاصة من مواطني الأسكندرية^(١) .

هؤلاء المواطنون الرومان - مهما كان أصلهم والطريقة التي حصلوا بها على المواطنة الرومانية - كانوا يمثلون الطبقة العليا في مجتمع مصر الرومانية . فكان يختار منهم كبار موظفي الإدارة ، كما كانوا يتمتعون بامتيازات كثيرة مثل الإعفاء من بعض الضرائب أو دفع ضرائب مخفضة ، والإعفاء من القيام بالخدمة الإجبارية وتولى الوظائف المحلية - في بداية العصر الروماني على الأقل^(٢) . وحيثما وجد الرومان في مصر أعدادا كبيرة كونوا لأنفسهم رابطة تجمعهم (Conventus Civium Romanorum) ، وساهموا كجموعة مستقلة في حياة المدينة أو البلدة التي هم بها . ومن ذلك ما تكشف عنه بردية من (البهنسا) في صعيد مصر، إذ تتحدث عن اجتماع عام لأهل مدينة أو كسيرنخوس (البهنسا) ، وتذكر أنه اشترك في هذا الاجتماع موظفو المدينة وشعبها والمواطنون الرومان والأسكندريون المستقرون بها^(٣) .

وقد بقي المواطنون الرومان في مصر متمتعين بهذا الوضع الممتاز حتى بداية القرن الثالث عندما صدر قانون كاراكالا بمنح المواطنة الرومانية لجميع سكان الإمبراطورية .

* * *

إذا ما نظرنا إلى عناصر المجتمع الأخرى التي كانت موجودة من قبل ،

(١) مثل أسماء Sabina Apollonarian, Marcus Antonius Heliodorus, and Marcus Antonius Aper, in P.S.I. No. 1325 (176—180 A.D.)

(٢) الصادر الخاصة بهذه الامتيازات هي B.G.U. 180 (172 A.D.) Wilcken: أنظر كذلك : Chrest 396. Wilcken Chrest 463, i, 10—20 (87—9) Wilcken, Grundz, p 339 ff.; Oertel, Liturgie, p. 387 ff. Johnson, Roman Egypt, p. 609 ff.

(٣) P, Ox. III. 73 (138—160 A.D.)=Wilcken, Chrest, No. 33

نجد على قمة الهرم الطبقي المصرى طبقة الأسكندريين ، وقد بقيت محتلة هذه المكانة أيضا وتلى الرومان مباشرة . فنجريا على عادة الرومان في حكم الولايات من اصطناع أقلية أرستقراطية في الولاية ، يمنحونها امتيازات خاصة ، لذلك فعلوا في مصر وحافظوا على وضع الأسكندريين الممتاز . بل يمكن أن يقال إن الوضع القانوني لمواطني الأسكندرية اكتسب أهمية خاصة في العصر الروماني فعدا بعض الامتيازات التي تمتعوا بها مثل الإعفاء من ضريبة الرأس التي فرضت على جميع المصريين ، وحق الالتحاق بالجيش الروماني جعل للرومان حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة (وليس عن طريق الخدمة العسكرية) قاصرا على الأسكندريين ، بحيث أن أى مصرى آخر كان عليه أن يقال مواطنة الأسكندرية أولا حتى يسمح له باكتساب المواطنة الرومانية ^(١) . وقد انعكس هذا الوضع الممتاز للأسكندريين بالنسبة لسائر سكان مصر في لغة الوثائق الرسمية الخاصة بالضرائب وقوائم أصحاب الأملاك فنجد هذه الوثائق في بداية العصر الروماني تقسم الملاك إلى فئتين هما « الأسكندريين » و « المحليين » ^(٢) (والمقصود بالفئة الأخيرة هم سائر الملاك من أهل المنطقة التي بها الأرض) . هذه المقابلة بين الأسكندريين وسائر الأهالي في وثائق الضرائب تبين قوة الإسكندريين كطبقة اقتصادية ، وفي الواقع يسبب تحكمهم في وسائل الإثراء عن طريق التجارة العالمية أصبحوا أثرى طبقة في مصر وأكبر ملاك للأراضي .

ولكن الأسكندريين لم يقنعوا بكل هذه الامتيازات ، ولعلمهم كانوا يضيّقون بوجود طبقة أخرى أرق منهم رسمياً داخل البلاد وهي طبقة المواطنين

Pliny, Epist. X. 6—7

(١)

P. Lond. II. 192, p. 222, l. 82 ff Augustus or Tiberius; (١) and in the edict of the Prefect Tiberius Julius Alexander, O. G. I. S. II. 669 = S. B. V, No, 8444.

الرومان ؛ فعملوا على الدخول في دائرة المواطنين على أوسع نطاق ممكن . وقد تمكنوا من تحقيق ذلك بفضل بعض الامتيازات القانونية التي منحت لهم ، أولا عن طريق السماح لهم بالالتحاق بالجيش الروماني . وثانياً بجعل حق اكتساب المواطنة الرومانية مباشرة قاصراً عليهم في مصر . وسرعان ما أصبح عدد كبير من المواطنين الرومان في مصر أسكندريين أصلاً . وإذا بهذا التطور ينعكس أيضاً في لغة الوثائق الرسمية ، وأصبحت قوائم الضرائب تقسم أصحاب الأراضي إلى فئتين ، هما « فئة الرومان والأسكندريين » و « فئة المحليين » . ظهر هذا الربط بين الرومان والأسكندريين في الوثائق لأول مرة بعد منتصف القرن الأول بقليل ، واستمر استخدامه خلال القرن الثاني ، مما يبين أن الرومان والأسكندريين كانوا في نظر الإدارة المركزية يكونون طبقة اقتصادية واحدة^(١) . ويوضح ظاهرة هذا الترابط الطبقي ويؤكد وضعهم الممتاز وثيقة بردية ترجع إلى عام ١٣٩ وتحتوي على خطاب من إستراتيجوس فقط إلى الوالي ، ويشكو إليه أن المواطنين الرومان والأسكندريين والجنود القداماء المستقرين في نوموس فقط والمكلفين بجمع الضرائب قد عصوا وأمره ، ويدعون أنهم لا يخضعون لسلطان الإستراتيجوس مثل جامعي الضرائب المحليين (enchorioi) ومن الغريب أن رد الوالي على هذا الخطاب يأتي مؤيداً لموقف الرومان والأسكندريين والجنود القداماء ؛ إذ يأمر الوالي بأن يرفع الإستراتيجوس هذه المسألة إلى موظف أرقى منه مرتبة وهو الإبيستراتيجوس (epistrategos) ، الذي كان من اختصاصه الإشراف على عدد من النومات معا^(٢) . هذه الوثيقة الهامة توضح مدى ما تمتعوا به من امتيازات إلى درجة عدم خضوعهم للموظفين المحليين .

P, Merton, II. 63, 7 ff. (58 A. D.); Stud Pal. p. 62 ff., (١)
i, 331 f. (72—3 A. D.); B. G. U. IX. 1894 (158 A. D.)
B. G. U. III. 747 (129 A. D.) (٢)

غير أن الإصلاحات التي تمت في خلال القرن الثالث من نشر نظام الحكم الحلى في النومات ومنح المواطنة الرومانية للجميع في أول هذا القرن ثم إلغاء امتيازات الأقليات وتطبيق اللامركزية تطبيقاً مطلقاً على يد دقلديانوس في نهاية القرن نفسه ، قضى امتيازات الأسكندريين والرومان معا ، إذ أصبح الجميع مواطنين روماناً ، يدفعون الضرائب على قدر سواء ويتحملون نصيبهم كاملاً في الحكم الحلى ، كل حسب قدرته المالية .

* * *

عدا الرومان والأسكندريين يأتي سائر السكان الذين كانوا اصطلاحاً يسمون « مصريين »^(١) . وليس معنى هذا أنهم جميعاً كانوا يكونون طبقة واحدة ، فقد كانوا ينقسمون بدورهم إلى طبقات وفئات مختلفة الميزة والمكانة . ولكن الصفة الميزة لهم جميعاً هي خضوعهم لضريبة الرأس ، ومع ذلك لم يعاملوا كلهم بخصوص هذه الضريبة معاملة سواء . فوجدنا الفئات الأكثر رقياً وأكثر ثراء مثل الإغريق والتأغريق من أهل للثربولات يدفعون ضريبة الرأس مخفضة الى اثني عشر دراخمة أو ثمانية عشر دراخمة ، حسب منزلتهم الاجتماعية . أما الغالبية الكبرى من فقراء الفلاحين المصريين فكانوا يدفعون الضريبة كاملة وهي أربعون دراخمة^(٢) .

وقد حرص الرومان منذ البداية على هذا التقسيم الاجتماعى والتفرقة الطبقيّة^(٣) . فظهرت في مناطق مختلفة جماعات عرفت باسم الهيلىنيين وخاصة

(١) يتضح هذا التقسيم بين أسكندريين ومصريين أيضا في P. Columbia, 123

التي نشرت في Apokrimata, Decisions of Septimius severus on Legal Matters, ed by W. L. Westermann and A. A. Schiller, New-York, (1954).

(٢) Wallace, Taxation, pp.

(٣) خير وثيقة تظهر هذه الحالة هي مذكرة القوانين المالية للابديوس لوجوس B.G.U.V.I وتوجد ترجمة إنجليزية لهذه البردية في كتاب : Johnaux, Roman Egypt. No. 444

في الدلتا والفيوم ، وكان أرقى مظهر لهم جاعة مواطني مدينة أنتينوبوليس التي أنشأها هادريان ، وكانوا يسمون « بالهيلينيين الجدد » ^(١) . وقد كان هادريان شديد العطف على مدينته الجديدة ومنح مواطنيها كثيراً من الامتيازات ، كما سبق أن ذكرنا في حديثنا عن هادريان ومن هذه الامتيازات أنه أعفى مواطني هذه المدينة من القيام بتولى الوظائف خارج مدينتهم ^(٢) ، ومن المحتمل أنهم أعفوا أيضاً من ضريبة الرأس ولو أننا لامتلك نصاً صريحاً في هذا الصدد .

ووجد في كل نوموس بعد ذلك طبقة ممتازة من أهل عاصمتها المتروبوليس ، وعرفوا باسم المتروبوليين (metropolitai) ، وكان الطابع الغالب على هؤلاء هو الطابع الإغريقي سواء في اللغة أو أسلوب الحياة ، رغم أن كثيرين منهم كانوا مصريين متأغرقين ^(٣) . ويبدو أنه وجدت بين هؤلاء المتروبوليين طبقة ضيقة ممتازة تعرف باسم أبناء الجنازيوم (apo tou gymnasiom) ^(٤) وهم المواطنون الذين تعلموا وتخرجوا في معهد المدينة . وكان أبناء الجنازيوم يكونون ما يشبه بطبقة أرستقراطية محلية في الريف وكان منهم موظفو الحكم المحلي .

أما خارج المتروبوليس وجد ملايين الفلاحين وصفان المزارعين من البصريين المنتشرين في القرى والكفور . وكانوا أكثر الطبقات فقراً وأكثرها أعباءً ، يدفعون ضريبة الرأس كاملة (أربعين دراهمة) ، ويؤدون جميع الضرائب الأخرى ، كما كانوا يخضعون لأعمال السخرة ، مثل بناء الجسور وترميمها وشق الترع وحفر المصارف ، إلى غير ذلك من أعمال الحراسة والنقل .

(١) ورد ذكر الهيلينيين في الدلتا وطيبة وأنتينوبوليس في O, G. I. S. 709 وفي الفيوم (أرسنوى) P. M. Meyer, Jun. Pap., No. 48; and P. Tebt. II. 566 (131—2 A. D.).

B. G. U. IV. 1022 (196 A. D) = Wildeem, Cluest. 29. (٢)

(٣) أنظر: Bickerman, in Archiv für Papyrusforschung (1928) p, 356.;

Ibid. p. 376.

(٤)

وقد استمر هؤلاء المصريون على أسلوب حياتهم القديمة التي ألفوها منذ آلاف السنين . يتحدثون اللغة المصرية الشعبية ، (التي وصلت إلينا في حروفها الديموطيقية) ويعبدون الآلهة المصرية القديمة ، ويقومون بالواجبات نفسها نحو الأرض ونحو سادة الأرض . ولكن لما اشتدت وطأة الحكم الروماني على البلاد وكثرت أعباء التزامات طبقة الفلاحين وصغار المزارعين مع تأخر الأحوال الاقتصادية ، ضاق أفراد هذه الطبقة بالحال ولجأوا إلى الفرار من أراضيهم ، باحثين عن غنى في مستنقعات الدلتا الشمالية وأحراشها ، أو ملجأ في مدينة كبيرة مثل الإسكندرية حيث يمكنهم الاختفاء في زحمة سكانها وربما وجدوا بها عملاً يقيمون به أودم^(١) . وليس أدل على خطورة الفرار من الوطن الأصلي على هذا النحو من الثورة المعروفة باسم ثورة الرعاة عام ١٧٢ في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس . وكان السبب الرئيسي للفرار من الأرض هو شدة وطأة الضرائب التي يميز كثير من الزراع عن دفعها ، وخشوا وحشية معاملة جامعي الضرائب فأثروا الفرار دون أن يخبروا أحداً . ولكن جامعي الضرائب كانوا يذيقون أهل المزارعين الفارين أسوأ أنواع العذاب ليعرفوا منهم مكان مخبأهم أو ليأخذوا منهم الضريبة . وقد وصلتنا بردية من القرن الثاني تحتوي على خطاب من صبي علم باعتزام والده الفرار سرا ، فكتب إلى أحد أقاربه يطلب منه أن يحصل له من والده على مبلغ من المال يمكنه هو أيضاً من الفرار إلى الإسكندرية خشية أن يقتبص موظفو الإدارة منه بعد اختفاء والده^(٢) .

P. Princ. 1, 9; III, 8, 16 (31 A. D.); and 14, III, 20, V, (١)

21 (23—40 A. D.); P. Graux, nos. 1 (45 A. D.); 2 (55—9

A. D.); and 3 (51 A. D.); P. Uppsala, 7 (163 A. D.)

P. Philadelphie. No. 33 (2nd cent. A. D.) (٢)

وقد عرض المؤلف لهذه البردية في الفصل الذي كتبه عن « الإسكندرية في العصر الروماني » في كتاب « تاريخ الإسكندرية منذ أقدم العصور » الذي قامت بنشره محافظة الإسكندرية (١٩٦٣) ص ٨١ .

ويبدو أن حالات الفرار هذه نت كثيرة ومتكررة بحيث أنها كانت تصيب الحياة في الريف بضرر شديد لقلة الأيدي العاملة ، بقدر ما كانت تقسد الحياة في المدن الكبرى حين تكتظ بالمعطلين . ولهذا وجدنا الولاة يصدرون بيانات خاصة بهذا الشأن ، يطلبون فيه من كل شخص أن يعود إلى موطنه وعمله الأصلي . وقد وصلنا بيانان من العصر الروماني بهذا الشأن ، الأول أصدره الوالى فيبيوس ماكسيموس عام ١٠٤ ، يعلن فيه أنه بمناسبة الإعداد لإجراء إحصاء عام للسكان يجب على كل من ترك موطنه لأي سبب من الأسباب أن يعود ثانية وأن يستأنف عمله في زراعة الأرض . ومع ذلك يتضمن البيان استثناء واحدا بشأن الذين تحتاج مدينة الإسكندرية إلى عملهم ، وهؤلاء كانوا معروفين ومسجلين لدى السلطات الرسمية^(١) . أما البيان الثانى فهو بيان الإمبراطور كاراكلا الذى أصدره عند زيارته لمصر سنة ٢١٥ ، وصاحبها اضطرابات عنيفة في الإسكندرية ، أدت إلى قتل الكثيرين من أهلها . وسواء أكان صدور هذا البيان علامة باضطرابات الإسكندرية أو أنه محاولة لإقارار الناس على موطنهم الأصلي ولإنعاش الريف ، وخاصة بعد تصميم الموانئ الرومانية وإلغاء التفرقة بين فئات المجتمع المختلفة من الناحية القانونية ، فقد أمر كاراكلا بأن يطرد من الإسكندرية المصريين ، واستثنى من ذلك فئات معينة ، مثل تجار الخنزير ، ورجال القوارب النيلية وجالو الحطب لوقود الحمامات . ولعل هذه هي الفئات التى استثناءها بيان ماكسيموس السابق ، لأن الوقود واللحوم (ومن بينها وأهمها للمدينة لحم الخنزير) كان المواد الأساسية التى كانت تجلب إلى الإسكندرية من داخل البلاد ؛ ورجال القوارب هم الذين يقومون بالمواصلات بشتى صفوفها بين الريف والعاصمة . ويتعلق هذا البيان

(١) لدينا من العصر البطلمى المذوق العام الذى أصدره الملك يوجينيس الثانى .

(٢) P. London, 904 (104 A D.) = Wilcken, Cbrest. 202.

بطبيعة الحال بالمصريين الذين لم يكن مقرهم الأصلي الإسكندرية ، أى المصريون الغرباء بها ، الفارين من الريف لسبب أو لآخر . فقد كان من بين سكان الإسكندرية الأصليين كثير من المصريين ، وهؤلاء لا يشملهم قرار الطرد . وينبه إلى ذلك الجزء الأخير من البيان حيث يقول : من اليسير التمييز بين عمال النسيج المصريين (من أهل المدينة) وبين الفلاحين المصريين (الفارين من الريف) عن طريق لغتهم ومظهرهم وعاداتهم^(١) . وهو يبين ما سبق أن ذكرناه من أن المصريين وخاصة من أهل الريف ظلوا محافظين على أساليب حياتهم ولغتهم وتقاليدهم ولم يتأثروا كثيراً بالأجانب الذين حكموا مصر في العصرين البطلمي والروماني .

* * *

خالية أخيرة يجب أن نتحدث عنها وهى جالية اليهود فى مصر الرومانية . عرفنا فى دراستنا للسكان فى العصر البطلمي أن اليهود كانوا من أقدم الجاليات الأجنبية فى مصر وأكثرها عدداً ، ولا شك أنهم استمروا كذلك فى العصر الروماني . فمن حيث كبر حجم هذه الجالية يذكر فيلون أن عدد اليهود فى مصر فى بداية العصر الروماني بلغ المليون^(٢) . ورغم أننا لا نستطيع تحقيق هذا النبأ ، إلا أن ذكر فيلون لمثل هذا الرقم يدل على ضخامة الجالية اليهودية فى مصر فى ذلك العصر ، بل لعل عددهم زاد فى الإسكندرية فأصبحوا يشغلون اثنين أو أكثر من أحياء المدينة الخمس ، بعد أن كانوا يقطنون حياً واحداً وهو المعروف باسم « دلتا »^(٣) .

(١) عثر على بيان كراكلا هذا فى البردية المشهورة : P. Giss. 40, lines

16 ff. = Wilcken Chrest 22.

Philo, In Flaccum. 6.43

(٢)

Philo, In Flacc. 55; and Legatio, 20, 132; Joseph. Bell. (٣)

Jud. II. 487; Apion, No. 33.

وقد وجد الرومان في اليهود فئة أجنبية عن البلاد يمكن استئثارها واستخدامها لصالحهم، ولذلك سارع الإمبراطور أغسطس إلى الاعتراف بجميع الامتيازات والنظم التي تتمتع بها اليهود في العصر البطلمي^(١). فأقر حريتهم الدينية وسمح لهم بالحفاظ على رابطةهم العنصرية المعروفة باسم پوليتيوما (politeuma)، بما لها من رئيس (ethuarch) ومجلس شيوخ (gerusia)، وهو أمر اعتزوا به كل الاعتزاز نظراً لأن أغسطس رفض السماح للأسكندريين بممارسة حياة سياسية عن طريق مجلس تشريعي. وكان وضع اليهود الممتاز وعطف الرومان عليهم، مصدر إثارة لحقد الأسكندريين عليهم، مما أدى إلى كثير من حوادث 'الفتن والاضطراب بين الفريقين في الأسكندرية في العصر الروماني، كما سبق أن بينا في الفصل الخاص بالتاريخ السياسي.

ويبدو أن اليهود لم يقنعوا بما نالوه من عطف ورعاية الرومان، فأخذوا يدعون لأنفسهم مزيداً من الحقوق والامتيازات. فمن ذلك أنهم ادعوا أن يهود الأسكندرية كانوا مواطنين أسكندريين، متمتعين بمواطنة المدينة كاملة. وقد انقسم العلماء قديماً وحديثاً بشأن هذه القضية أشد الانقسام، وليس هنا مجال العرض التفصيلي لجميع جوانب هذه المشكلة التاريخية، وإنما سنكتفي بالعرض لها باختصار، خاصة وأن حدة الخلاف قد هدأت في الأعوام الأخيرة وأن الرأي السائد الآن هو عدم صحة دعوى اليهود القديمة. وأنهم لم يكونوا مواطنين أسكندريين.^(٢)

(١) عن معاملة أغسطس لليهود أنظر: Joseph. Antig XIV. 7.2; XIX. 5, 2; P. Lond. 1912, 85 ff. in «Jews and Christians» by Bell; Strabo, 17.1; Philo, Legatio, 10.

(٢) الدراسات الأساسية لهذا الموضوع هي: Schubart, in Archiv Pap V (1909—1913) pp. 118—120. Bell, Jews and Christians, pp. 10—21. esp. p. 10 note 1; Corpus Papyrorum Judaicarum, 1, Introduction by Tchirikover, pp. XIII. ff.; Cl. Præaux, Les Etrangers à l'Epoque Hellenistique, Societé Jean Bodin, IX. (1958) pp. 157 ff.

ظهرت هذه المشكلة في بداية العصر الروماني ، ولعل السبب في قيامها هو أن مواطنة الأسكندرية اكتسبت في ذلك الوقت امتيازين جديدين ، وهما أن مواطنة الأسكندرية أصبحت الطريق المؤدى إلى الحصول على المواطنة الرومانية بالنسبة للمصريين (ويهود مصر كانوا مصريين من وجهة النظر الرسمية) ؛ ومن ناحية أخرى تمتع مواطنو الأسكندرية بامتياز هام آخر وهو إعفاؤهم من ضريبة الرأس التي زحفت على المصريين جميعاً . فأراد اليهود أن ينتهزوا فرصة عطف الرومان عليهم واكتساب هذه الامتيازات عن طريق اعتبارهم مواطنين أسكندريين . وراح زعماء اليهود وكتابهم قديماً من أمثال جوزيفوس يثبتون صدق هذه الدعوى ويدللون عليها بشتى الحجج والأساليب ، وأن تتمتعهم بهذا الحق قديم قدم المدينة ذاتها .^(١) وفي الوقت نفسه انبرى زعماء الأسكندريين يفندون حجج اليهود ويدحضون دعوهم .^(٢) وبذلك غاب وجه الحق في هذه المشكلة ، وانقسم العلماء المحدثون بشأنها انقسام القدماء ، ولم يخل انقسامهم من ميل إلى نزعة عنصرية أو دينية أحياناً . وظل الأمر كذلك حتى مطلع القرن العشرين حين نشرت بردية على جانب كبير من الأهمية .^(٣) وبالرغم من أن البردية مهشمة في بعض أجزائها ، إلا أن مابقى منها واضح المعنى وله أهمية كبيرة . فالبردية تحتوي على شكوى مقدمة إلى والى مصر من شخص يهودى من مدينة الأسكندرية يسمى هيلينوس ، ويطلب أن يعفى من دفع ضريبة الرأس نظراً لبلوغه سن الستين . وأهمية هذه البردية ترجع إلى الطريقة التي وصف بها هيلينوس وضعه الرسمي في المجتمع ، فوصف نفسه أولاً بأنه مواطن أسكندري (Alexandreus) ؛ ولكن موظفاً رسمياً فيما يبدو أصلح هذا الوصف وجعله

Joseph. C. Apion, I, 189; II, 37; Bel'. Jud. II. 487; (١)

Antiq. XIV. 188; XIX, 281; Philo, In Flacc. 8. 53.

Joseph. C. Apion, II. 38. نجد رأى أيون الأسكندري في : (٢)

B.G.U. IV 1140 (Angustan age); cf Archiv Pap. V. (٣)

pp. 118—120.

يهودى من الأسكندرية .^(١) ثم يذكر هيلينوس بعد ذلك أن والده مواطن أسكندري Alexandreus . من هذه المعلومات القليلة يمكن استنتاج بعض الحقائق الهامة :

أولاً: أن هناك فرقاً فنياً بين الصفتين «مواطن أسكندري» (Alexandreus) و«يهودى من مدينة الأسكندرية» (Joudaios the apo Alexandrias) ، وإلا لما لزم تصحيح التعبير من الواحدة إلى الأخرى ، لأن المواطن مواطن مهما كان عنصره^(٢) .

ثانياً : أن من الممكن لليهودى أن يصبح مواطناً أسكندرياً ، كما ثبت لقب والد هيلينوس الرسمى . ولكن لما لم يكن الابن هيلينوس نفسه مواطناً ، اقترح جوجيه أنه حينما منح اليهودى مواطنة الأسكندرية كانت المنحة شخصية إلى درجة أنه لم يستطع توريثها لأبنائه .^(٣) ولكن ليس لدينا ما يثبت صحة هذا الإقتراح ، لأن مواطنة الأسكندرية كانت وراثية ولعل تفسير اختلاف الصفة الرسمية بين الابن ووالده ، هو أن الابن ولد قبل أن يحصل والده على المواطنة ولهذا اكتسب الوضع الاجتماعى لوالده الذى ولد فيه ، ولما حصل الوالد على المواطنة فيما بعد لم يكتسبها هيلينوس لهذا السبب .

ثالثاً : من أهم مميزات المواطن الأسكندري أنه كان معفى من ضريبة الرأس ، ومن الواضح من هذه البردية أن يهود الأسكندرية وبالتالي يهود مصر جميعاً كانوا يدفعون هذه الضريبة .

من هذا يتضح أن اليهود فى مصر الرومانية استمروا فى الوضع الاجتماعى نفسه الذى كان لهم فى العصر البطلمى ، وأن أغسطس والأباطرة الرومان من

Bell, Jews and Christians. p. 14 ;

(١) أطر

Jouguet, La Vie Municipale . p. 21,

(٢)

بعده أقروا لهم الامتيازات التي منحها لهم الملوك البطالمة . فكانت لهم حرية العبادة الدينية ورابطة خاصة بهم تسمى بوليتيوما ، ومجلس شيوخ ، ورئيس جالية ، وأن هذا الرئيس ومجلس الشيوخ كانوا يكونون محكمة خاصة باليهود تفصل في القضايا التي تتعاق بالشئون الدينية ، كما كان لهم مكتب خاص لتسجيل الوثائق المتعلقة بهم . ورغم العطف الذي ناله يهود الأسكندرية على أيدي الرومان إلا أنهم لم يصبحوا جزءاً من جماعة مواطني الأسكندرية وظلوا من الناحية القانونية في نظر الإدارة الرومانية بعض « المصريين » يدفعون ضريبة الرأس ^(١) ، كما كان يدفعها سائر سكان مصر عدا المواطنين الرومان والأسكندريين .

عرصنا فيما سبق للعناصر الأساسية الكبرى التي تكون منها المجتمع المصري في ذلك الوقت ؛ وقد وجدت أيضاً فئات أخرى من الأجانب من بلاد أسيوية مختلفة أو بلاد إفريقية مجاورة أو من الولايات الرومانية المختلفة . منهم من كان يقيم في مصر أو في الأسكندرية إقامة مؤقتة من أجل التجارة أو أى سبب آخر ، ومنهم من كان يقيم إقامة مستديمة . هذه الأقليات الأجنبية التي استوطنت مصر لم تبق طويلاً محتفظة بشخصيتها القومية وسرعان ما تأغرقت واصطبغت بالطابع الإغريقي في اللغة والمظهر والعادات وأصبحوا ضمن الفئة المصرية اليونانية

(١) هناك بردية أخرى تتعلق أيضاً بدفع اليهود ضريبة الرأس هي *Acta Isidori* من أعمال الشهداء الوثنيين (*Musurillo, Acta. IV*) وفيها إشارة غير واضحة من جانب لازيدوروس إلى أن اليهود كانوا مثل المصريين . وسأون لدافعي الضريبة . فيرد أجرياً ملك اليهود قائلاً إن المحكام فرضوا الضريبة على المصريين . أما (اليهود) فلم يفرضها عليهم أحد . وقد نتج عن هذا التعارض الظاهر في النص انقسام بين العلماء . ولكن يبدو لي أن التفسير الصحيح هو ما يقترحه روبرتر (*C. H. Roberts*) وهو أن أجرياً يتحدث عن اليهود كأمة خارج مصر وأن ضريبة الرأس لم تفرض عليهم . أما اليهود في مصر فيدفعونها لأن هذه الضريبة قد فرضت في مصر (أنظر الاقتراح الذي ورد في *Musurillo' Acta, pp. 139—140*)

الذين سكنوا عواصم النومات ، وكانوا يمثلون الطبقة البوجوازية في الريف المصرى .

وأخيراً يجب أن نعلق هنا على اصطلاح وجد في وثائق مصر اليونانية الرومانية وكثيراً ما أسمى فهمه ، وهو لقب « فارسى من السلالة » (Perses les epigones) معلوماننا عن أصل هذا الاصطلاح قليلة جداً ، ولا نكاد نعرف الظروف التي نشأ واستعمل فيها بادية ذى بدء وأول ما قد يتبادر إلى الذهن أنه لقب لأفراد من سلالة الجالية الفارسية كانت موجودة بمصر في عصر السيادة الفارسية قبل الفتح المقدوني . وسواء أكان هذا هو المعنى الأول لهذا الاصطلاح أو لم يكن ، فالوثائق البردية التي نشرت حديثاً تثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن لقب « فارسى من السلالة » لم يعن منذ نهاية القرن الثاني قبل الميلاد قومية أو جنساً أو طبقة اجتماعية ، كما ظن بعض الدراسين^(١) ؛ وأن استخدامه ، اقتصر في نهاية العصر البطلمى والعصر الرومانى على كونه تعبير قانونى يستخدم اختياراً في العقود بواسطة الأفراد الذين يقع عليهم الإلزام المادى ، وخاصة في حالة المدين . ولقد أمكن إثبات هذا التفسير عندما لاحظنا في عقود الديون أن أفراداً من طبقات وجنسيات مختلفة يستخدمون هذا التعبير عندما يكونون مدينين فقط وأهمية استخدام هذا الاصطلاح في العقد ، أنه بمثابة ضمان إضافي للدائن ، إذ يصبح له شخصياً حق اعتقال المدين في الحال أى (agogimos) إذا ما أخل بشروط العقد .

(١) أنظر مثلاً : R. Taubenschlag, The Law of Greco-Roman Egypt, pp. 7—8; Schubart, in Archiv Pap. V, p. 112 ff.
(٢) صاحب هذا التفسير هو T. G. Tait, in Archiv Pap. VII. p. 180 والصادر الأساسية هي : P. Ryl. IV. 588 (84 — 78 B. C.) esp. Introduction to it by Turner; P. Hamb 1. 2 (59 A. D.).
(٣) حول دلالة اصطلاح agogimos أنظر : Taubenschlag, Law, p. 407.4

١ - الأسماء والألقاب :

من وسائل التنظيم الاجتماعى فى أى دولة ضبط أسماء المواطنين حتى لاتضطرب الحقوق . وقد كان، هذا التنظيم ممارساً فى مصر القديمة ، فكان كل فرد يسجل عند ميلاده ووفاته . وفى العصرين اليونانى والرومانى ازداد الاهتمام بهذه الناحية اهتماماً كبيراً نظراً لوجود جنسيات متباينة تمتعت بعضها بامتيازات خاصة ، كما وجدت المدن اليونانية التى تتمتع مواطنوها بقوانين وحقوق خاصة . وفى العصر الرومانى زداد الأمر تعقيدا نظراً لأن حق الانضمام إلى الجيش الرومانى كان قاصراً على مواطنى المدن اليونانية ، كما أن ضريبة الرأس التى فرضت على السكان طبقت بنسب مختلفة للفئات والطبقات المختلفة كما أعفى منها الأسكندريون نهائياً . لذلك كله كان ضبط السلم الاجتماعى والطبقى أمراً بالغ الأهمية من الناحية المالية بالذات بالنسبة للقائمين على الإدارة والحكم . فوضعت قواعد دقيقة جداً لمراعاة كتابة الاسم واللقب والوضع الاجتماعى بطريقة وافية . وأى محاولة للتزوير بتغيير الاسم أو الوصف الاجتماعى كانت تجازى بأشد العقاب^(١) .

وفىما يتعلق بأسماء الأفراد ، كان هناك ميل متزايد بين المصريين نحو اتخاذ أسماء إغريقية . فلو تركت هذه الظاهرة دون تنظيم فلا بد أنها ستنتهى إلى حالة من الفوضى ؛ لهذا عهد إلى رئيس الإدارة المالية فى العصر الرومانى المعروف باسم « إديوس لوجوس » للإشراف على مسألة تسجيل الأسماء ، وكان على كل من يرغب فى تغيير اسمه أن يتقدم إليه بطلبه^(٢) ولعل الأسماء المختلطة التى نقابلها فى الوثائق (مصرية ويونانية) تبين أن أصحابها قد اكتسبوا أسماء

(١) يتضح من مرسوم ملكى أنه فى العصر البطلمى أن فى بعض حالات التزوير قد تصل العقوبة إلى حكم الإعدام : B G. U. VI. 1250 (II B. C.)

(٢) Wicken, Chrest. 52 (194 A. D.); of Suetonius, Claudius, 25.

يونانية مؤخراً ، فاستخدموا أسماءهم المصرية القديمة إلى جانب أسمائهم اليونانية الجديدة للدلالة على شخصياتهم . من هذا يتضح مدى اهتمام البطالمة أولاً والرومان من بعدهم بضبط الأسماء والألقاب ؛ ولا غرو فالاسم واللقب يعينان الوضع الاجتماعى للفرد فى البناء الطبقي للمجتمع والوضع الاجتماعى يعين مسئولية الفرد والطريقة التى يعامل بها فيما يتعلق ببعض الأعمال والضرائب وخاصة ضريبة الرأس .

فما يتعلق باختلاط الدم بين عناصر المجتمع المختلفة ، فما لا شك فيه أن ذلك تم عن طريق الزواج بينهم ^(١) . فلا بد أن الدم الذى جرى فى عروق فئة المترولين من أهل عواصم النومات كان مختلطاً أشد الاختلاط ، من إغريق ومصريين وأسيويين وغيرهم ؛ إذ لم يمنع القانون زواج هذه العناصر بعضها من بعض . وحتى مؤسسة هادريان الهيلينية فى مصر مدينة أنقنوبوليس ، منحت لمواطنيها « الهيلينيين الجدد » امتياز حق الزواج من نصريات . أما المدن اليونانية الأخرى فى مصر فقد حظرت على مواطنيها الزواج من النصريات ، ومع ذلك فتتنص بعض مواد قانون الإيديوس لوجوس بأنه إذا حدث زواج بين مواطنى الأسكندرية المصريين ، « على جهل منهم بحقيقة الأمر » ، فإن الدولة كانت تعترف بالأمر الواقع وتمنح أبنائها مواطنة الأسكندرية ^(٢) . أما الزواج بين الرومان والمصريين ، فيبدو أنه منع من حيث المبدأ ^(٣) .

يتضح من ذلك على أى حال أن العناصر الأجنبية اختلطت بالمصريين ، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك الاتجاء بمرور الزمن هو زيادة تمصير الإغريق وغيرهم بالتدريج ، حتى إذا العصر البيزنطى بعد ذلك غلب الطابع المصرى فى كثير من أوجه النشاط فى الدولة ، وخاصة فى المجال المذهبي الدينى .

Wilcken, Grundz., p. 23.

(١)

P. Gnomon, articles, 45—47,

(٢)

P. Gnomon, article, 52.

(٣)

ب- نظم الإدارة

كانت السياسة الرومانية في مصر محافظة إلى حد بعيد ، ولم تدخل النظام الإدارى المصرى من التعديلات إلا ما كان ضروريا جداً وفى أضيق الحدود فى بادئ الأمر . فيمكن أن يقال إن التعديل الأساسى الذى أدخله أغسطس فى نظام مصر هو إقامة موظفين جدد ليقوموا بمهام منصب الملك البطلمى السابق ، أما سائر الموظفين والنظم فقد بقى كما هو ، حتى أن الأسماء والاصطلاحات الرسمية بقيت دون تغيير هام فى معظم الأحيان ^(١) .

فما يتعلق بمنصب الملك ، فقد أصبح الإمبراطور الرومانى هو الملك الشرعى وفرعون مصر ؛ فمثل على المآبد ، كما كان البطلمية يمثلون من قبل ، فى زى الفراعين المصريين . وفوق رأسه التاج المزدوج لمصر العليا والسفلى ، وأمامه اسمه محفوراً داخل « خرطوشة » بالحروف الهيروغليفية . ولكن كان ذلك كله ضرورة من ضرورات الحياة الدينية والسياسية والاجتماعية المصرية ، التى لا تستقيم إلا بوجود فرعون على رأسها ، ولو كان مجرد رمز بعيد ، كما كان الإمبراطور الرومانى .

أما من الناحية العملية فقد أقام أغسطس موظفاً جديداً ليمارس جميع سلطات الملك السابقة وسمى Praefectus أو والى . وكان اسمه الرسمى والى مصر

(١) قام عدد من العلماء بدراسة النظام الإدارى لمصر الرومانية مثل :

Jouguet, La Vie Municipale; Oertel, Die Liturgie;
U. Chapot, L'Egypte Romaine, pp. 271 ff.; Milne.
Egypt Under The Romans Rule, pp. 120 ff; A. H. M.
Jones, Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 311 ff,

(Praefectus Aegypti) وأحيى ——— اناسى والى الأسكندرية ومصر (Praefectus Alexandreae et Aegypti)^(١). وكما سبق أن ذكرنا، كان والى مصر يختار عادة من طبقة الفرسان الرومان، ولكنه منح سلطانا برو قنصليا^(٢) — بصفة استثنائية — ليتولى قيادة الجيش الرومانى فى مصر. فقد كان هذا والى هو الحاكم الفعلى للبلاد، هو الرئيس الإدارى، وقائد الحامية الرومانية، والقاضى الأعلى لجميع أنواع القضايا. وهو يستمد هذا السلطان من الإمبراطور شخصياً الذى يعينه، وبذلك يصبح والى ممثل الإمبراطور فى الولاية. وعدا كبار الموظفين الذين كانوا يعينون بواسطة الإمبراطور، كان والى يعين سائر الموظفين فى جميع المستويات الإدارية. ويبدو أنه كان له حق تعيين حكام المدن اليونانية فى مصر بعد أن يتم ترشيحهم واختيارهم بواسطة المواطنين. ومن حيث سلطته القضائية، فقد كان من حق الأفراد والجماعات أن يرفعوا شكاياتهم وقضاياهم إلى والى، سواء فى الأسكندرية، أو فى أثناء الدورة القضائية التى كان يقوم بها مع هيئة محكمة فى مراكز الولاية الرئيسية (الأسكندرية فى منتصف الصيف، يناير فى الفرما، وأول الربيع فى ممفيس). عدا هذه المسئوليات الإدارية والقضائية والعسكرية، كان من أهم واجباته الإشراف على الناحية المالية للولاية، وخاصة جمع الضرائب وإرسالها إلى روما، سواء من القمح أو نقداً بالعملة^(٣) ولا يخفى أن والى كان فى حاجة إلى معاونة مجموعة من كبار الموظفين تساعد على إنجاز مسئولياته المتعددة. ويأتى على رأس هذه الجماعة من المساعدين الرئيس القضائى

(١) كما فى نقش جالوس أول والى رومانى فى مصر 654 O.G.I.S. = د. عبد اللطيف أحمد على: مصر والإمبراطورية الرومانية، ص ٩٠ (مع ترجمة عربية).

(٢) Ulpianus in Digest, I. 17. 1

(٣) أم دراستين عن والى الرومانى فى مصر ها: O.W. Reinmuth. The Prefect : of Egypt from Augustus to Diocletian (1935); and Stein, Die Praefekten Von Aegypten in der römischen Kaiserzeit (1950).

أو وزير العدل (*juridicus* أو *dicaiodites*) الذى يعتبر مع الوالى أهم تجديد أدخله الرومان على نظام الموظفين فى مصر . ورغم قلة مالدينا من المعلومات عن منصب الرئيس القضاى (*juridicus*) واختصاصاته ، إلا أن الهدف الأساسى من إنشاء هذه الوظيفة الجديدة هو تزويد الإدارة الرومانية فى مصر « بنخب قانونى » ، نظراً لأن الوالى من طبقة الفرسان التى يشتغل أفرادها عادة بالقضاء والقانون فى روما، وإنما كان معظمهم من رجال الجيش أو السلك الإدارى أو الأعمال التجارية والمالية ، ممن لم تكن لديهم خبرة خاصة بالقانون الرومانى . ولهذا أنشأ أغسطس وظيفة الرئيس القضاى ليكون بمثابة مستشار قانونى ورفيق فى نفس الوقت على تصرفات الوالى حتى لا تتعارض أحكامه وإجراءاته مع مبادئ القانون العام فى روما . وفى كثير من الأحيان كان الوالى يستشير فى الأحكام قبل إصدارها أو أن ينييه عن نفسه فى النظر فى القضايا الكثيرة التى كانت ترفع إليه . الرئيس القضاى (*juridicus*) على هذا النحو قام فى بعض اختصاصاته بمهام قاضى القضاة (*archidicastes*) فى العصر البطلمى .

عدا هذين المنصبين الجديدين بقى النظام الإدارى لمصر فى أساسه دون تغيير هام ، ولو أن اختصاصات بعض الموظفين أصابها شىء من الزيادة أو النقصان حسب اتجاهات الحكم الجدد . ففما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد استمر يشرف عليها المشرف المالى (*Dioicetes*) ورئيس الحساب الخاص أو الإديوس لوجوس (*idios logos*) ولكن الأول (*dioicetes*) فقد كثيراً من أهميته السابقة فى العصر البطلمى ، وأصبح الآن مجرد موظف إدارى يساعد الوالى فى الجانب الاعتيادى من المالية ، وهو تقدير الضرائب سنوياً وجمعها . وذلك لأن الوالى أصبح المسئول الأول عن مالية البلاد . أما الإديوس لوجوس فقد زادت أهميته كثيراً ، وأصبح هو المشرف على الجانب غير الاعتيادى من المالية . ونظراً لاضطراب الحياة الاقتصادية للبلاد فى نهاية العصر البطلمى ومحاولة الرومان

إصلاحها على أسس جديدة فقد عهد إلى الإديوس لوجوس بمهمة تنفيذ القوانين الجديدة . ومن أهم واجباته الإشراف على إدارة الأراضى والممتلكات التى قرر القانون مصادرتها باسم الدولة سواء لأن أصحابها قد هجروها أو تأخروا فى دفع الضرائب المستحقة عليها أو لأنهم ارتكبوا مخالفة قانونية جزاؤها استيلاء الدولة على أملاكهم أو جزء منها ^(١) . ثم زيد فى مهام هذا الموظف مرة أخرى حين استولت الدولة على ممتلكات المعابد وجعلت الإديوس لوجوس الكاهن الأكبر للمعابد والمشرى المالى على مالىتها وممتلكاتها ^(٢) .

وفىما يتعلق بالإدارة المالية للبلاد عين عدد من الموظفين يحملون لقب *procurator* أو *epitropos* للإشراف على إدارات فرعية معينة . ومن أهم هؤلاء الموظفين بروكوراتوس مخازن الغلال فى الأسكندرية (وعرف الحى الذى وجدت فيه هذه المخازن باسم نيابوليس *Neapolis* ومن اختصاصاته الإشراف على جمع الغلال ونقلها إلى الأسكندرية حيث كانت تخزن استعدادا لشحنها إلى روما . وهناك موظف آخر من هذه الطبقة وهو المشرى على أملاك الإمبراطور الخاصة (*Procurator usiacus*) وكانت هذه الأملاك تشمل على مساحات كبيرة من الأرض الزراعية ، وكان للإشراف عليها أهمية خاصة للإمبراطور شخصياً ^(٣) . وكان هذان الموظفان يعينان عادة من بين عبيد الإمبراطور المحررين ، وهى فئة استخدمها أغسطس وخلفاؤه فى كثير من مرافق الإدارة فى شتى أنحاء الإمبرطورية ؟ وذلك نظرا للولاء الذى يربط عبد الإمبراطور المحرر بشخص الإمبراطور .

(١) اختصاصات الإديوس لوجوس المالية مجددة فى مصدرين رئيسيين : Strabo, 17. 1. 12 (c. 797); P. Gnomon, in B G. U. Vol. V.

(٢) P. Tebt. II 302 (71—2 A. D.) = Wilcken, Chrest. 368, of. Wilcken, Grundz. pp: 158—9, 300 ff; and Jones. Cities, p. 316.

of. Milne, Egypt, p. 125.

(٣)

عدا هؤلاء الموظفين الكبار في الإدارة المركزية في الأسكندرية والذين كانوا يختارون بواسطة الإمبراطور شخصيا من المواطنين الرومان من طبقة الفرسان عادة ، وجد موظفان نعرفهما من العصر البطلمي أيضا وهما قاضى القضاء (archidicastes) والسكرتير العام (hypomnematographos) يبدو أن هذين الموظفين كانا يعملان كمساعدين للوالى ، يستشيرهما في الشئون القانونية والإدارية المصرية المحلية ، ويمكن أن ينييهما في تقرير بعض الأمور . ولكن يبدو أن وظيفة قاضى القضاء (archidicastes) قد طرأ على طبيعتها بعض التغيير ، إذ استولى الرئيس القضائى الرومانى الجديد (juridicus) على اختصاصاته القضائية ، وأصبحت وظيفة قاضى القضاء إدارية قبل كل شيء ، وهى رئاسة دار المحفوظات الرسمية التى تحفظ بها نسخ من جميع الوثائق والعقود التى تعقد فى أنحاء مصر جميعا ، وكان مقر عمله هو الأسكندرية ، وترفع إليه الوثائق من جميع الأهالى فى النومات المختلفة وكانت وظيفة قاضى القضاء (archidicastes) والسكرتير العام (hypomnematographos) يمثلان أرقى منصب يستطيع أن يشغله مواطن فى مصر ، ويبدو أنه كان يعين فيهما عادة مواطنون من مدينة الأسكندرية^(١)

وظيفة أخيرة أصبح يتولاها مواطنون رومانيون من طبقة الفرسان وهى وظيفة الإيبيستراتيجوس (epistrategos) ، وهى تعتبر حلقة الوصل بين الإدارة المركزية فى الأسكندرية والإدارة المحلية فى سائر البلاد. ذلك أن مصر كانت مقسمة إلى ثلاث أجزاء إدارية كبرى هى الدلتا ومصر الوسطى (Heptakomia) ومنطقة طيبة فى

(١) كما اقترح تيرنر Turner فى تعليقه على P. Ox. XXII. 2349 فيما يتعلق بوظيفة archidicastes . أنظر قائمة بأسماء من شغلوا هذه الوظيفة فى A. Calaki Aegyptus, 32, (1952). pp. 408 ff.

الجنوب (Thebaïd) ، ويشرف على إدارة كل إقليم موظف كبير هو الإيبيستراتيجوس . ومن الثابت أن هذا التقسيم وهذه الوظيفة ترجع إلى العصر البطلمي^(١) ، وأن الجديدي نظامها الروماني هو أن من تولوها كانوا من المواطنين الرومانيين ؛ وفي حين أن إيبيستراتيجوس طيبة في العصر البطلمي كانت له سلطة عسكرية وإدارية فإن هذا الموظف في العصر الروماني أصبح موظفاً إدارياً فقط . فالإيبيستراتيجوس كان الرئيس الإداري لعدد من النومات تنقسم إليها منطقته ، وكان مرؤوسه المباشر هو الإستراتيجوس ، رئيس النوموس ، ولكن يبدو أن الإيبيستراتيجوس لم يكن يقيم في منطقة إدارته ، بل في العاصمة بالأسكندرية ، وكان يكتفى بالقيام بجولات إدارية وتفتيشية في النومات التي تتبع إدارته ؛ كما كانت ترفع له التقارير أو المظالم في مقره بالعاصمة بانتظام ، أما عن طبيعة وظيفته فهي الإشراف على حسن سير العمل في منطقة اختصاصه من الناحية الإدارية ، والقيام بأي تحقيقات إدارية ، إلى جانب رفع ترشيحات الموظفين في الإدارة المحلية ليتم تعيينهم بواسطة والي . وقد بقيت هذه الوظيفة حتى نهاية القرن الثالث حين ألغها الإمبراطور دقلديانوس^(٢) .

هذا من حيث الوظائف الرئيسية في الإدارة المركزية في العاصمة والتي توليها عادة مواطنون رومانيون أو مواطنون أسكندريون في الوظائف الأقل أهمية ؛ أما عن الإدارة المحلية بدرجاتها المختلفة في الريف فيمكن تقسيمها إلى طبقات ثلاث . الأولى هي إدارة المدن اليونانية والتي بقيت متمتعة بنوع من

(١) كان هناك خلاف حول نشأة هذه الوظيفة وتاريخها ولكن P. Tebtunis No. 778 (1788. c.) قد أثبتت أنها ترجع على الأقل إلى بداية القرن الثاني ق . م . في مصر الوسطى أيضاً .

(٢) حول هذه الوظيفة انظر: V. Martin, Les Epistrateges, Geneva (1911).

الحكم المحلى المستقل كما كانت في العصر البطلمى . والثانية هي إدارة النومات التى كانت تنقسم إليها البلاد إدارياً ؛ والثالثة هي إدارة القرى التى كانت تنقسم إليها كل نوموس بدورها .

ولنتناول أولاً إدارة النوموس التى كانت أساساً جزءاً من الإدارة المركزية العامة . ويمكن تقسيم إدارة النوموس إلى نوعين من الوظائف ، النوع الأول يشمل وظائف تمثل الإدارة المركزية العامة في البلاد ، وأهمها وظيفة الإستراتيجوس (strategos) والكاتب للملكى (Basilico-grammateus) . والإستراتيجوس هو الرئيس الفعلى لإدارة النوموس ويمثل الوالى فيه ، ويشمل إشرافه جميع النواحي الإدارية والمالية . فهو الذى يصدر تقديرات الضرائب السنوية على الأراضى والأفراد حسب الإحصاءات التى يجمعها بمعاونة رؤوسيه من الموظفين المختلطين . كما كان مسئولاً عن نظام الشرطة فى النوموس ، ولكن لم تكن له سلطة النظر فى القضايا وإصدار الأحكام إلا بناء عن تفويض رسمى من الوالى أو أحد كبار الموظفين القانونيين فى الإدارة المركزية فى العاصمة . ولكن كان يجوز له أن يقوم بتحقيق أولى فيما يرفع له من مظالم أو يقع من خلاف فى منطقة اختصاصه ثم يرفع الأمر إلى الوالى ليفصل فيه فى الأسكندرية أو أثناء القيام بجولته القضائية فى الأقاليم . وكان لكل نوموس إستراتيجوس واحد ، باستثناء الفيوم فوجد بها اثنان ، وذلك أنها قسمت إلى ثلاث مناطق ، فتولى إدارة منطقتين منها إستراتيجوس ، وآخر للمنطقة الثالثة . وكان الإستراتيجوس تختار من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية من أهل عاصمة النوموس (متروبوليس Metropolis) ، وكان يراعى ألا يعين الإستراتيجوس فى النوموس التى ينتمى إليها .

وكان التعمين لهذه الوظيفة يصدر من الوالى بناء على ترشيح الإستراتيجوس ، ويستمر لمدة ثلاث سنوات عادة ، كما كان شاغها يتقاضى راتباً سنوياً ، ولو أننا

لا نعرف مقدار هذا الراتب ^(١) .

أما عن الكاتب الملكي (basiliogrammateus) فهو الساعد الأيمن للإستراتيجوس ، وقد احتفظت وظيفته بالاسم البطلمي رغم زوال الملكية . ويعتبر الكاتب الملكي من أهم من يمثل البيروقراطية المصرية في ذلك العصر ، فجميع الإحصاءات والتقديرات والتقارير التي كانت تكتب عن النوموس وترفع إلى الإستراتيجوس كانت تخرج من مكتب هذا الموظف . ومن ثم تظهر أهميته الإدارية وخاصة في مسألة الضرائب وتقديرها ، ومسألة الترشيح للوظائف الأخرى والأعمال الإجبارية ، لأن الكاتب الملكي كان الموظف المختص بعمل قوائم المرشحين المناسبين للأعمال المختلفة ، كل حسب ما يمتلك من عقار . ونظرا لأهمية هذا الموظف فقد كان له راتب سنوي ، وكان يختار مثل الإستراتيجوس من بين أفراد الطبقة الإغريقية المصرية في المتروبوليس . وكان يوجد في كل متروبوليس دار لحفظ الوثائق والأوراق الرسمية يشرف عليها موظف أرشيف كما نقول الآن ، ولقبه الرسمي bibiophylakes ويعتبر المساعد المباشر للكاتب الملكي ^(٢) .

إلى جانب هذه الوظائف التي تمثل السلطة المركزية في النوموس وجدت منذ بداية العصر الروماني وظائف أخرى ذات صبغة محلية في عاصمة النوموس (المتروبوليس metropolis) ^(٣) .

الغرض الأساسي من وجود هذه الوظائف هو أن يهتم مواطنو كل

(١) أنظر : V. Marrin, *Strateges et Basilicogrammates du nome Arsinoites à l'époque romaine*, Archiv Pap, VI, (1920) pp. 137 ff.; of. Milne, *Egypt Under Roman Rule*, pp. 126 ff.

(٢) أنظر المرجع السابق .

(٣) أنظر 319 p. *Cities of the Eastern Roman Provinces*, Jones.

متروبوليس بشئون مدينتهم الخاصة ، مثل الإشراف على الجنازيوم أو تموين المدينة بمواد الغذاء الأساسية من القمح والزيت مثلاً ، أو الإشراف على سوق المدينة ومراقبة عمليات البيع والشراء حتى لا يحدث تلاعب . هذه الوظائف لم تكن مأجورة وإنما اعتبرت تشريعاً لمن يتولاها ، ومن هنا سمي أصحابها « حكاما » (archontes) واشتملت على رئيس الجنازيوم أو جنازيارخس ورئيس هيئة الموظفين أو exegetes ، ومسجل الجنازيوم أو كوزيتيس ، والموثق أو المشرف على السوق (agoranomos) والمشرف على التموين (euthenarches) وأخيراً رئيس الكهنة الرسمي للمدينة (archiereus) . وكما يتضح من ألقاب هؤلاء الحكام هي نفس الوظائف التي عرقتها المدن اليونانية من قبل في نظام حكمها المحلي ، ولعلها اقتبست من مدينة الإسكندرية ، التي كانت المثل الأعلى للمدن في مصر . ولكن يجب أن نذكر أن المتروبوليس في مصر لم تعرف هذه الوظائف جميعاً دفعة واحدة ، لأن الفرض الأول من نشر نظام هذه الوظائف المحلية في عواصم الريف كان للتخفيف عن الإدارة المركزية ولم يسعياً وراء تطبيق نظام الحكم المحلي فيها . ويمكن أن يقال إن الإدارة الرومانية لم تشرع في تطبيق نظام الحكم المحلي في المتربولات إلا تحت ضغط الظروف الاقتصادية والإدارية السيئة في الولاية كما سنبين عند الكلام عن إصلاحات الإمبراطور سيفيروس والقرن الثالث .

المرحلة الأخيرة في نظام الإدارة الرومانية في مصر هي إدارة القرية ، إذ كانت كل نوموس تنقسم إدارياً إلى قرى . وهنا أيضاً نجد النظام الإداري المزدوج ممثلاً أيضاً ، فالإدارة المركزية ممثلة في شخص كاتب القرية (Komogrammateu) ، وهو الموظف المسئول عن إمداد الإدارة المركزية بالمعلومات الضرورية عن القرية فيما يتعلق بالضرائب أو الخدمة الإجبارية . فهو

المستول عن عمل قوائم بأهل القرية وعدد الرجال البالغين بها ، ومقدار ملكية كل شخص وما يقع عليه من ضرائب أو القيام بالخدمات الإجبارية مثل بناء الجسور وحفر الترعة وتنظيف القنوات وغير ذلك . وهو الذى يرفع التقارير السنوية عن حالة الأرض فى القرية وهل روتها مياه الفيضان أو لم تروها ونوع المحصول الذى تنتجه كل أرض وهكذا ، حتى يمكن تقدير الضرائب السنوية تقديراً صحيحاً . أما عن مسئولية الأهالى فى الإشراف على شئون قريتهم فكانت ممثلة فى لجنة من «شيوخ القرية» ، اختلف عددهم حسب ظروف كل قرية . ومهمتهم الرئيسية هى قيامهم بدور الوسيط بين الدولة والأهالى فى مسألة جمع الضرائب وإمداد الدولة بالعمال للأغراض المختلفة عند الضرورة ويبدو أن العضوية فى لجنة شيوخ القرية كانت من ضمن الأعمال الإجبارية (*leiturgia*) التى كانت تقع على طبقة ملاك الأراضى من الأهالى ، وتستمر العضوية لمدة سنة واحدة على الأرجح^(١) :

المدن الإغريقية :

لم تكن الإدارة الرومانية أكثر حرصاً من الحكومة البطلمية على نحو نظام المدن اليونانية فى مصر ، ولهذا اكتفت بأن تركت المدن الأربع التى كانت موجودة زمن البطالمة ، ولم تقدم على زيادة عددها إلا بعد مضى ما يزيد على مائة وخمسين عاماً على حكمهم ، أى فى سنة ١٢٠ حين أنشأ هادريان مدينة أنتينوبوليس فى الصعيد . ورغم ندرة معلوماتنا عن ثلاثة من المدن الأربع القديمة وهى نوقراطس وبطلميس وبريتونيوم ، إلا أن مالدينا من دليل يكفى لإثبات أنها جميعاً احتفظت بنظام المدينة اليونانية ؛ فكان لها حكام منتخبون

(١) Wilcken, Chrest. No. 272 (136 A.D.); and id. Grundz pp. 43 and 217. Also of. Milne, Egypt, 129 f.

(archontes) ومجلس تشريعى (boulé) ولسكل مدينة مواطنها (politeia) الخاصة بمواطنيها^(١).

أما عن مدينة الأسكندرية فقد أصاب نظامها ووضعها بعض التغيير . لقد سبق أن أوضحنا فى العصر البطلمى أن الأسكندرية تمتعت منذ البداية بنظام المدينة اليونانية كاملا ، بما فى ذلك المجلس التشريعى (boulé) ، أهم أركان ذلك النظام . ومن سوء الحظ أن معلوماتنا عن تاريخ هذا المجلس قليلة جداً فى العصر البطلمى إجمالاً ، ومنعدمة فى الجزء الأخير منه ، مما دعى بعض العلماء إلى إنكار وجود مجلس تشريعى فى الأسكندرية وخاصة فى الجزء الأخير من العصر البطلمى^(٢) . ولكن كل من عانى دراسة التاريخ يعلم خطورة استنتاج حقائق التاريخ بطريق الاستدلال من صمت المصادر ؛ فلا بد من وجود دليل قاطع للاطمئنان إلى صحة الاستنتاج التاريخى . ولهذا نحن أميل إلى الاعتقاد بأن المجلس التشريعى استمر فى الأسكندرية طوال العصر البطلمى ، وأنه ألقى فى بداية العصر الرومانى^(٣) . فالمصادر الأدبية والوثائق البردية المعاصرة تذكر فى غير موارد أن الإمبراطور أغسطس أمر الأسكندريين بتدبير الحياة العامة فى المدينة دون مجلس تشريعى ، وأن الأباطرة من رفضوا إجابة مطلب الأسكندريين بإقامة المجلس

(١) خير مرجع عن المدن اليونانية فى هذا العصر هما : Jouguet, *La Vie Municipale*, pp. 115 ff.; and Jones, *Cities*, pp. 311 f.

(٢) Bell, *The Problem of the Alexandrian Senate, Aegyptus*, 12, (1932) 172 ff.; Norsa and Vitelli, in *Bulletin de la Société d'Archeologie d'Alexandrie*, Supp. Fasc., 25 (1930) pp. 9 ff.; and *Ibid* 27 (1932) pp. 1—17; Mommsen, *Roman Hist., Provinces*, Transl. W. P. Dickson, II, p. 236 ff, and Tarn, *Hellenistic Civilization* (1950) p. 161,

Milne, *Egypt*, pp. 282 ff.

(٣) من هذا رأى أيضاً :

لأن أغسطس أقر نظام المدينة بدون مجلس تشريعى (boulé)^(١) . هذا الإجراء من جانب أغسطس يعتبر طعنة لكبرياء الأسكندرية ، ولعل الفرض الحقيقى منها هو إشعار مواطنيها بتبعيةهم الجديدة لروما . ومع ذلك فقد بقيت الأسكندرية المدينة الأولى فى مصر والمثال الذى تقاس به وتحتذى سائر المدن . فمن ناحية أخرى اكتسبت مواطنة الأسكندرية أهمية خاصة فى العصر الرومانى - كما سبق أن ذكرنا - لأن مواطنى الأسكندرية أعفوا من ضريبة الرأس ، كما أصبح لزاما على كل مصرى أن يحصل على مواطنة الأسكندرية قبل أن يجوز له أن يحصل على المواطنة الرومانية . هذان الامتيازان جعلوا مواطنى الأسكندرية يكونون رسمياً طبقة أرستقراطية بين سكان مصر جميعاً .

أما عن نظام حكم مدينة الأسكندرية وإدارتها ، فقد كان مبدأ الازدواج الإدارى ممثلاً فيها أيضاً : موظفون مدنيون يمثلون المواطنين ، وموظفون معينون يمثلون السلطة المركزية . ولعل الأسكندرية فى ذلك كانت المثال الذى احتذى فى نظام المتربوليس^(٢) . فقد وجدت فى الأسكندرية جمع الوظائف المدنية التى وجدت فى المتربولات وهى : الأكسيجيتيس (exegètes) وجمنازيارخس (gymnasiarchos) وكوسميتيس (cosmetes) وأجورانوموس (agoranomos) والسكاهن (neocoros) . وكانوا فى مجموعهم يكونون اللجنة تسمى (prytanis) تحت رئاسة الأكسيجيتيس ؛ وكان يضاف إليهم أعضاء آخرون معينون من قبل الإمبراطور شخصياً ، وكانوا عادة من عبيد المحررين (Kaisarioi) .

أما عن طريقة تولى هذه المناصب ، فنعلم من خطاب الإمبراطور كلوديوس المشهور أنه قد وافق على جعل وظيفة السكاهن فقط بالاقتراع بين المتقدمين ، مما يدل على أن سائر المناصب تم بطريقة أخرى وهى الانتخاب بواسطة المواطنين .

(١) Dio cassius, 51, 17; P.S.I. 1160; P. Lond. No. 1912
in Bell, Jews and Christians.

Jouguet, loc. cit; and Jones, loc. cit.

(٢) نظر :

وعما يؤيد هذا الاعتقاد أن رئيس الجنازيوم أو الجناريارخس كان يقوم دائماً في العصر الروماني بدور الزعيم الشعبي ضد الحكم الروماني ، كما يتضح من مجموعة أعمال الشهداء الوثنيين . وفيما يتعلق بمدة تولي المناصب فإن كلوديوس في الخطاب ذاته يقر جعلها مدة ثلاث سنوات فقط .

ورغم وجود هذه الوظائف المدنية فيجب ألا نظن أن الرومان كانوا أرحب صدرأ فيما يتعلق بحرية المدن واستقلالها ، بل على العكس من ذلك ، فقد كان للسلطة المركزية موظفين في المدينة يشرفون ويتدخلون في كثير من شئونها . وقد رأينا رجال الإمبراطور معينين في لجنة حكام المدينة ؛ وفوق ذلك وجد أيضاً حاكم للمدينة (shatezos) وقائد للبوليس . ويسدو أخيراً أن النظام القضائي قد تعرض لتغير جذري ، فلم نعد نسمع عن محاكم المدينة ، وجميع القضاة أصبح الآن بيد السلطة المركزية أو من يمثلها فقط ^(١) . وحتى منح مواطنة المدينة لغير أبناء الأسكندرانيين كانت في يد الإمبراطور ^(٢) . ومحاكمة من ألقوا بأنفسهم في سجل المدينة بغير وجه حق من سلطة الوالي ^(٣) .

أما عن المدينة الإغريقية الجديدة التي أنشأها الرومان في مصر وهي أنقيدوبوليس ، فقد أسسها هادريان في عام ١٣٠ على موقع مدينة مصرية قديماً ، تخليداً لأحد أصفياه الذي غرق في مياه النيل . ويعتبر تأسيس هذه المدينة من دلائل اهتمام هادريان بالحضارة الإغريقية ، فقد منحها نظام المدن اليونانية المستقلة ، وأنها نظمت على مثال أقدم مدينة يونانية في مصر وهي نوقراطس ، فكان

(١) أهم مصدرين هما : P. Lond. 1912. in Bell.,

(ولكن أنظر نقد نص استرابون في كتاب (Jeuguet, op. cit. pp. 167 ff)

Strabo. 17. 1. 12 Jews and Christians.

Pliny; Epist. X. 7.

P. Gnomon. 40.

(٢)

(٣)

لها نظام الحكم المحلى عن طريق الموظفين المدنيين المنتخبين ومجلس تشريعى (*boulé*) وهو ما قد حرمت منه الأسكندرية ذاتها فضلا عن سائر المتروبولات أما مواطنو هذه المدينة الجديدة فقد جلب بهم من إغريق مدينة بطلميسة فى منطقة طيبة ومن إغريق منطقة الفيوم الذين عرفوا باسم « ال ٦٤٧٥ إغريقيا فى نوموس أرسنوى » ؛ وكذلك من الجنود المسرحين من الجيش الرومانى . وقد منح مواطنو أنتينوبوليس امتيازاً خاصاً لم يمنح للبدن اليونانية الأخرى وهو حق الزواج من المصريين . وقد قسم المواطنون إلى قبائل وأحياء (*phylai ، demoi*) ، كما كان الأمر فى الأسكندرية وأثينا أيضاً . هذه هى أهم معالم المدينة الجديدة ومنها يتضح أنها قد ولدت من حيث النظام مدينة يونانية كاملة ، وقد ساعد على ازدهارها المادى أول الأمر ، ذلك الطريق التجارى الذى بناه هادريان ليصل مدينته الجديدة بالبحر الأحمر ، فى فترة بلغت فيها تجارة مصر الشرقية مرحلة من أزهى مراحل نشاطها^(١) .

إصلاحات القرن الثالث :

هذه هى المعالم الرئيسية لنظام الحكم فى مصر فى خلال القرنين الأولين من الحكم الرومانى . وقد أمكن العمل بهذا النظام بنجاح خلال القرن الأول وأكثر من نصف القرن الثانى ، ولكن فى النصف الثانى من القرن أخذت تكشف عن قصور وعيوب مختلفة أُنذرت فى نهاية القرن بفشله وسقوطه . وكان من الطبيعى أن يتعرض مثل هذا النظام للفشل بعد مضى بعض الوقت ، لأن كل نظام إدارى أو سياسى مرتبط بضرورة بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية فى البلاد . ولتوضيح ذلك نقول أن سكان

(١) خير مرجعين عن مدينة أنتينوبوليس هما : E. Kuhn, *Antinoopolis* (1913). Bell, *Antinoopolis. A. Hadrianic Foundation in Egypt*, J. R. S., 30 (1940), 133—147.

كل نوموس في الريف المصرى كانوا فى القرنين الأولين ينقسمون أساساً إلى فئات أو طبقات ثلاث :

أولاً : أقليات من الرومان والأسكندريين تتمتع بامتيازات مختلفة .

ثانياً : أهل عواصم النومات الأصليون (متربوليون) وهم من أصل إغريقى أو مصريون متأغرقون . ويمثلون الطبقة الوسطى فى المجتمع المصرى .

ثالثاً : أهل القرى والريف من صغار المزارعين والفلاحين . ويمثلون الطبقة الدنيا فى المجتمع المصرى .

وقد رأينا عند وصف النظام الإدارى فى مصر الرومانية أنه كان ينقسم إلى قسمين أساسيين : الأول مأجور أى يتقاضى الموظف فيه راتباً سنوياً ، وهذا القسم يشمل المناصب الكبرى فى سلك الإدارة المركزية مثل وظائف الإستراتيجوس والكاتب الملكى . والقسم الآخر غير مأجور ويشمل فى درجاته العليا مناصب الحكم المحلى فى المتروبولات التى كانت تعتبر تشريفاً لمن يتولاها ، وفى درجاته السفلى وظائف الأعمال والخدمات الإجبارية (leiturgia) بما فيها كاتب القرية أو العضوية فى لجنة شيوخ القرية وما دون ذلك من أعمال الحراسة والنقل والحفر ، مما كانت الدولة تفرضه فرضاً على الأهالى حسب قدراتهم المادية .

فإذا ما بحثنا عن نصيب كل طبقة من الطبقات الثلاث من هذه المسئوليات الإدارية بأنواعها المختلفة ، سهل علينا تبيان وجه الخلل فى النظام بأسره خلال القرنين الأولين كثيراً ما تولى الرومان والأسكندريون المقيمون فى الريف للمناصب الهامة فى الإدارة المركزية فى النومات مثل مناصب الإستراتيجوس والكاتب الملكى ؛ ولكنهم قلما تولوا الوظائف المدنية الأخرى غير المأجورة أو وظائف الخدمة الإجبارية ، مع استثناء القيام بعملية جمع الضرائب بطريق

الالتزام ، التي كثيراً ما كانت تدرك عليهم الربح الوفير . فيبدو أن المواطنين الرومانيين والأسكندريين لجأوا إلى كل وسيلة ممكنة للهروب من تحمل أى أعباء إدارية في الريف^(١) ؛ ولا شك أن مواطنهم ساعدتهم على إثبات أنهم لا يمتنون إلى المتربولات ، ولهذا لا يجوز أن يتحملوا تبعات وظائفها — لأن المبدأ الأساسي في تولى الوظائف المدنية هو الموطن (origo)^(٢) ، أى أن كل شخص في موطنه . لهذا السبب وقع عبء الإدارة في الريف على كاهل الفئتين الثانية والثالثة فكانت : وظائف الحكم المحلي في المتربولات تقع على المتربوليين ؛ بينما تحمل القرويون الأعمال اليدوية والوظائف القروية من الخدمات الإجبارية العامة . ومن تتبع الحياة العامة في الريف المصرى في القرن الثانى يتبين أن الأعباء التي أُلقيت على كاهل هاتين الطبقتين الأخيرتين كانت أكثر من أن تتحملها طاقتهن المادية . فكثير من أهل القرى فروا من قراهم إلى المدن الكبيرة أو إلى مجاهل شمال الدلتا ، هرباً من الضرائب والخدمات الإجبارية ؛ بينما تحولت الوظائف الإدارية المختلفة في المتربولات إلى خدمات إجبارية تفرض على القادرين من الأهالى فرضاً دون اعتراف بأى نظام من نظم الاختيار الشخصى . ونظرا لكثرة تكاليف هذه المناصب ، فقد عانى المتربوليون كثيراً من جرائمها ، حتى أصبح من المتعذر في نهاية القرن الثانى العثور على عسك كاف من الأفراد ممن تتوفر فيهم الشروط اللازمة لشغل جميع الوظائف حتى أوشك النظام الإدارى بأسره على الانهيار^(٣) .

زار مصر في ذلك الوقت الإمبراطور سيثميون سيفيروس (١٩٩ — ٢٠٠)

(١) وحتى القيام بالالتزام جمع الضرائب كانوا يتهربون منه عند الضرورة كما يتضح من :

B.G.U. 747 (137 A.D.)=Wilcken, Chrest 35

(٢) حول الوطن (origo) أنظر : Jouguet, La Vie Mun. 91 ff.

(٣) يوجد وصف واف لدلائل هذا الإنهيار في كتاب Jones, Cities, pp 319 ff

ومنح مدينة الإسكندرية وعواصم النومات (متروبولات) نظام المجلس التشريعي (boulé) ؛ وهي محاولة لتوحيد النظام الإداري في مصر وسائر ولايات الإمبراطورية الرومانية . ولكن هدف سيفيروس الحقيقي من وراء هذا الإصلاح لم يكن تعميم نظام الحكم المحلي وتعزيز الحريات السياسية ، بقدر ما كان من محاولة لإلقاء مسئولية الإدارة على الأهالي بدلا من السلطة المركزية . ففند ذلك التاريخ أصبحت طبقة أصحاب الأملاك في كل متربوليس مسئولة بأجمعها في هيئة مجلس عن شغل وتمويل المناصب العامة ^(١) . من أهم نتائج هذا الإصلاح في مصر على أى حال هو الزيادة من أهمية المتروبولات بعد أن سووا بالعاصمة الإسكندرية وأصبحوا جميعاً يتشعرون بمجلس تشريعي . ويبدو من ناحية أخرى أنه لم يسمح للفئات الممتازة من الرومان والأسكندريين المقيمين في الريف بالتهرب من تحمل نصيبها في الإدارة المحلية في ظل نظام المسئولية الجماعية الجديد . فلعله من الطريف أن أول عضو في المجلس التشريعي الجديد في مدينة أوكسيرنخوس (البهسا) في سنة ٢٠١ كان مواطناً أسكندرياً ^(٢) .

ومن الإصلاحات الخطيرة أيضاً التي جاءت في أعقاب تشريع سيفيروس قانون الإمبراطور كاراكالا الذي صدر في سنة ٢١٢ بمنح المواطنة الرومانية لجميع السكان الأحرار في الإمبراطورية باستثناء طبقة الخاضعين (dediticii) في مصر ، على أى حال ، شمل هذا القانون الجديد المصريين جميعاً ، وكانت له النتائج التالية :

(١) أنظر : Jones, Cities, 329 f.; and E. P. Wegener, The Bouleutai of the Metropoleis, in Symbolae Van Oven, P. 160 6.; and in Mnemosene (1947) pp. 15—42, 115—132, and 297—326.

(٢) P.S.I., 13 وأنظر 13 Calderini. Bouleutica. Aegyptus (1951) XII. No. 1328 (201 A.D.)

أولاً من الناحية القانونية ، أصبح جميع السكان قانوناً مواطنين رومانيين ، رغم أنه استمر تطبيق القانون المصري الإغريقي^(١) . ثانياً من الناحية السياسية ، لم يعد هناك تمييز رسمي بين المواطنين الرومانيين والألكسندريين من ناحية والمتروبوليين من ناحية أخرى . القاعدة الجديدة لتحديد مسؤولية الأفراد هي الوطن (origo) ، والذي كان وراثياً ؛ حتى أن الأسكندريين المقيمين في الريف الذين كان يحق لهم أن يدعوا أن موطنهم الأصلي هو الأسكندرية ، لم يجدوا فائدة تجنباً من تمسكهم بكرائمتهم القديمة ، وكثيرون منهم تدريجياً اتخذوا مكان إقامتهم في الريف بمثابة موطن لهم (origo)^(٢) . يتضح من هذا أن نتيجة هامة لقانون كاراكلا من وجهة النظر السياسية أنه قد تمت عملية تسوية هابطة في اتجاهها بين الفئات القديمة الممتازة من الرومان والأسكندريين وفئة المتروبوليين أي أن قانون كاراكلا ألغى جميع الامتيازات المحلية . ويبدو أن هذه التغييرات لم تكن قاصرة على مصر وحدها ، بل كانت عامة في ولايات الإمبراطورية المختلفة نتيجة لتطبيق قانون كاراكلا^(٣) .

ثالثاً من الناحية الإدارية : نتيجة أخيرة وثيقة الصلة بالنتيجة السالفة هي أن الرومان والأسكندريين المقيمين في المتروبولات أصبحوا ملازمين بالدخول في عضوية المجالس التشريعية المحامية الجديدة وفي تولي مناصب الحكم المحلي ، شأنهم في ذلك شأن المتروبوليين سواء بسواء . ولم تقتصر هذه المسؤولية على أولئك الذين

(١) V. Arangio—Ruiz, L'Application du droit Romain en Egypte après la Constitution Antoninienne, Bull la It. d'Egypte, 29 (1948) pp. 83 ff.

(٢) أنظر مثلاً : S.B. 178 (III A.D.); P. Ox VIII, 1115 (237 A.D.); P. S. I., XII, 1249 (255 A. D.); P. S. I. No. 203 (III A.D.); P. For. 50 (III A.D.).

(٣) أنظر Jones, A.H.M.: Studies to Roman Government and Law (1960) pp. 136 ff.

أخذوا من المتروبوليس موطناً لهم ، ولكن شملت الأفراد الذين كانوا مقيمين فقط في المتروبوليس وكانوا يمتلكون النصاب المالى اللازم لتولى الوظائف . وذلك لأن الرومان والأسكندرانيين - كما سبق أن ذكرنا - لم يعودوا فئات ممتازة ذوى مواطنة خاصة ، ولذلك لم يكن هناك من سبيل إل التهرب من تحمل نصيبهم في الإدارة المحلية ^(١) . ولا نجد استثناء من هذه القاعدة إلا مواطني مدينة أتينوبوليس الذين كانوا يتمتعون بامتياز قديم كان قد منح لهم وهو إعفاؤهم من تولى مناصب الحكم المحلى والخدمات الإجبارية خارج مدينتهم . ويبدو أنهم ظلوا يتمتعون بهذا الامتياز حتى عام ٢٥٤ ^(٢) ، ثم ألغى بعد ذلك مباشرة ، وطبق عليهم المبدأ العام من إمكان تولى المناصب في أكثر من مكان عند توفر الشروط اللازمة ^(٣) .

وفما يتعلق بطبقة القرويين والفلاحين التى شملها أيضاً قانون كارا كلا ، فقد كان يحدث أحيانا أن يطالب أفراد منهم بتولى الوظائف في المتروبولات ،

(١) لقد وردت مسألة تولى الوظائف المدنية في الموطن أو في محل الإقامة في النص القانوني: "Digest 50.1.17.4" - Sed eodem tempore non sunt honores in duabus civitatibus ab eodem gerendi: cum simul igitur utraque deferreintur, potior est originis causa... ويعنى أنه لا يجوز أن يتولى الشخص الواحد مناصب الحكم المحلى المدنية (honores) في مدينتين في الوقت ذاته . ولكن عند حدوثهما في مكانين في وقت واحد ، فإن الموطن الأصل (origo) أولى بخدمات مواطنيه . نستنتج من هذا النص أنه عند مطالبة مواطن مقيم في غير موطنه الأصل بتولى المناصب في مكانين (الموطن ومحل الإقامة) في وقت واحد ، فلهذا المواطن أن يختار بينهما ، ولو أن القانون يفضل الموطن . ولكن يبدو أيضاً أن القانون يتيح للفرد أن يتولى الوظائف في مكانين مختلفين إذا حدث ذلك في أوقات مختلفة.

(١) أنظر P. Ox. 1119, (253-4 A.D) = Wilcken, Chrest 397.

(٢) أنظر P. Ox. 2130 (267 A.D); P. Flor. I. 95 (365-376 A.D.); and P. Vindob. Gr. Inv. 25-945 (242 A.D) in Wegener, The Bouleutai et , Symbola van Dven, pp. 181-182.

إلا أن القاعدة العامة أنهم لم يتولوا هذه المناصب إما لفقرهم عموماً أو لأنه كان من حقهم أن يتمسكوا بالخدمة في موطنهم الأصلي (origo) فقط وهي القرية حيث كانوا يقيمون^(١) . وعلى ذلك فيمكن أن يقال إن أهم نتيجة إدارية لقانون كاراكلا أن عدداً لا بأس به من أفراد الطبقات الثرية من الرومان والأسكندريين وغيرهم المقيمين في الريف قد أجبوا نهائياً في طبقة أهل عواصم النومات من التربوليين .

S.B. 7696 (250 A.D.); of. Wegener, Moemosene, (1947) (١)
pp. 115 ff.

٥- الحياة الثقافية

نظام الأراضي :

لم يكن الإمبراطور أغسطس ولوعاً بالظهور بمظهر التأثير المغير ، بل لعله كان أكثر ولعاً بالإصلاح . دون أن يصبغه بالصبغة الثورية ، فكان حريصاً على أن يضيف على أعماله مظهراً تقليدياً ، بعيداً في الظاهر عن مظهر الثورة والتبديل ، رغم أن أعماله كثيراً ما كانت ثورية في واقع الأمر ، جذرية في آثارها في عصره ومن بعده إلى زمن بعيد . وتتضح هذه السياسة بجلاء في الخطة التي اختطها أغسطس بشأن نظام الأراضي في مصر . فمن حيث المظهر تبدو وكأنها استمرار لنظام الأراضي البطلمي ، إذ أبقى على تقسيم الأرض بأنواعها البطلمية مستخدماً نفس الإصطلاحات البطلمية في أغلب الأحيان . فبقيت أرض مصر تنقسم أساساً إلى نوعين من الأرض : العامة التي تمتلكها الدولة ، والخاصة التي يمتلكها الأفراد . هذا من حيث المظهر فقط ، أما من حيث الواقع فإن أغسطس أسس سياسة تختلف تماماً مع سياسة البطالمة الرسمية . فبقدر ما كان البطالمة يأخذون بمبدأ ملكية الدولة ممثلة في شخص الملك ، اتجهت السياسة الرومانية الجديدة نحو تشجيع الملكية الخاصة والاستثمارات الشخصية بأنواعها المختلفة . هذه هي نقطة التحول في الاقتصاد المصري بين المصريين البطلمي والروماني . فبالرغم من أن الملكية الخاصة وجدت ونمت في العصر البطلمي إلا أنها كانت ظاهرة تسير في عكس اتجاه السياسة الرسمية للدولة ، أما في العصر الروماني فإن السياسة العامة كانت تدفع نظام الملكية الخاصة دفعاً إلى الانتشار والنماء .

في ظل هذه السياسة العامة يمكننا أن نتحدث عن كل نوع من أنواع

الأرض وبنين ما أصاب كل واحد منها من تطور في العصر الروماني .^(١)
ونبدأ بالأرض التي كانت تمتلكها الدولة وكانت تسمى عموماً الأرض العامة
(gé demosia) ، وكانت تتكون أساساً من الأرض الملكية
(gé basiliké) المعروفة منذ العصر البطلمي . وظل هذا النوع من الأرض كما
كان من قبل يؤجر في شكل قطع صغيرة إلى الفلاحين المزارعين المالكين
مقابل إيجار معلوم يقدر بنسبة معينة من المحصول السنوي للأرض .

وفي نطاق أراضي الدولة نرى نوع من الأرض عرف باسم الأرض العامة
أيضاً (gé demosia) ولكن معناه لم يتحدد بعد ، ونحل هذا النوع المعين
من الأرض كان يضم قطعاً صغيرة من الأرض مثل شواطئ النهر أو الزيادة
التي تطرأ على مساحة الجزر النهرية ، والتي لم يتم وضعها ضمن قسم معين من
أقسام الأرض الأخرى^(٢) .

أما عن أرض المعابد (gé hierétiké) التي كانت ضمن أقسام الأرض
الرئيسية في العصر البطلمي ؛ فلم يسمح أغسطس باستمرارها وصادرها وألحقها
بملكية الدولة . ورغم أن الإصلاح القديم يظهر أيضاً في وثائق العصر الروماني .
فإن ذلك خطأ كان يرتكب عمداً بواسطة الموظفين الذين اعتادوا استخدام هذه
الاصطلاحات في أوراقهم ، واستسهلوا إطلاق الأسماء القديمة على الأرض بعد
أن تغيرت صفتها الرسمية . أما عن طريقة إدارة أرض المعابد بعد استيلاء الدولة
عليها ، فقد أضيفت هذه المسئولية إلى الموظف المالي المعروف باسم الإيديوس
لوجوس ، الذي تولى أيضاً منصب رئيس الكهنة في مصر . وهي أكبر

(١) فيما يتعلق بنظام الأراضي في مصر الرومانية أنظر :
Rostovtzeff, Soc. and Econ. Hist. of Roman Empire, 2nd. ed., pp. 281 ff.
and notes; Wilcken, Grunzuge Vol. 1, ch. VII. pp.
287 ff.; and Johnson, Roman Egypt, pp 25 ff.

Johnson, Roman Egypt, p. 25.

(٢)

خطوة اتخذها أغسطس للسيطرة على المعابد والسكنة ماديا وسياسيا^(١)

ولم يكتف أغسطس بالاستيلاء على أرض المعابد ، بل استولى على أراضي أخرى وضمها إلى ملكية الدولة ، مثل الأراضي الخاصة أو التي كانت هبة من الملك البطلمي ثم أهلها أصحابها أو هجروها أو قصرها في دفع ما كان مستحقا عليهم من الضرائب فكان من حق السلطة المركزية الاستيلاء على هذه الأراضي وضمها إلى أملاك الدولة ، وكان يشرف عليها أيضا الإيديوس لوجوس^(٢) .

هذه هي الأقسام الرئيسية التي كانت تشملها الأرض العامة ؛ وقد وجدت أنواع أخرى ولكنها كانت أقل أهمية من الناحية الاقتصادية ، وليس مجال الإفاضة عنها . وقد يقبدر إلى الذهن بعد ذكر هذه المصادرات الخلفة أن سياسة أغسطس لم تختلف كثيراً عن سياسة البطالمة من حيث الحرص على جعل الملكية العامة هي أساس الاقتصاد المصري في مجال الزراعة . ولكن في الواقع لم تكن هذه المصادرات إلا إجراءات أولية الفرض الأساسي منها هو ضبط الاقتصاد المصري في أول الأمر ومنعه من التدهور الشديد كما كانت الحال في الجزء الأخير من العصر البطلمي . لأن كل الدلائل تثبت أنه بالرغم من أن ملكية الدولة ظلت تتحكم في قطاع هام من الأرض الزراعية ، فإن الرومان انتهجوا سياسة جديدة أكيدة تهدف نحو تشجيع الملكية الخاصة بشكل لم يسبق له نظير . وكانت هذه السياسة جزءاً من سياسة أغسطس العامة في سبيل استعادة اقتصاد البلاد . ومن أجل تنفيذ هذه السياسة لجأ إلى أساليب مختلفة ؛ من ذلك أنه اعتبر الإقطاعات العسكرية البطلمية Kleroi ملكية خاصة لأصحابها بعد أن

P. Tebt. II. 302 (71—2 A.D.) = Wilcken, Chrest. No. (١)

368; cf. also Wilcken, Grundz., pp. 300 ff,

Strabo, 17. 12 (c. 797. 12); P. Ox. IV. 721 (13—14 (٢)

A. D.) = Wilcken, Chrest. 369.

كانت من الناحية الرسمية على الأقل هبة مؤقتة ، كما سبق أن بينا ^(١) . وبذلك يمكن أن يقال إن الاتجاه العام الذى ظل ينمو فى العصر البطلمى نحو خروج هذه الإقطاعات من ملكية الدولة تحقق نهائياً فى العصر الرومانى ، وعلى هذا النحو زادت الملكية الخاصة (*gé idiotiké*) سيادة كبيرة .

بعد أن آتم أغسطس فتح مصر مباشرة ، يبدو أنه منح جنوده الذين استقروا فى البلاد إقطاعات عسكرية لتكون ملكاً لهم ، ولكن التقليد الذى اتبع بعد ذلك هو منح الجنود مكافآت مالية وتشجيعهم على شراء الأرض من الدولة بأسعار إسمية . ^(٢) ولم يكن بيع هذه الأراضى التابعة للدولة قاصراً على الجنود ، بل كان مباحاً للجميع ، لأن الهدف الرئيسى هو تشجيع شتى الطبقات على استثمار أموالهم فى الزراعة من أجل النهوض بحالة البلاد اقتصادياً . فقد كانت أسعار الأراضى المباعة مشجعة للغاية حتى بالنسبة لسعر الأراضى البور التى كان يتكون منها معظم هذا النوع من الأرض . ولنضرب على سبيل المثال بعض الأسعار التى أمكن جمعها من الوثائق البردية : ١٢ دراخمة للأورورا فى أوكسيرينخوس ، ^(٣) ٢٠ دراخمة للأورورا فى هرموبوليس ، ^(٤) ٢٨ دراخمة للأورورا فى تبتونس وكذلك فى كرانس (وكلاهما فى الفيوم) . ^(٥) وفى بردية أخرى من هرموبوليس نجد أن قطعة أرض صادرتها الدولة وباعتها بالزاد العلنى ، قد زاد سعرها قليلاً إلى ٤٠ دراخمة للأورورا . ^(٦) ولكى يتضح مدى

Wilcken, Grundz; pp. 303—306. (١)

Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. Rom. Emp., pp. 147 f.; (٢)
Lesquier, L'Armée romaine d'Egypte, p. 328.

P. Ox. 721 (14 A.D.); P.S.I. 320 (18 A.D.). (٣)

P. Amh. 68 (60 A.D.) (٤)

S.B. V. 7599 (95 A.D.); B.G.U. 422 (140 A.D.). (٥)

S.B. 5675 (147 A.D.). (٦)

انخفاض هذه الأسعار عموماً نذكر أن متوسط سعر الأورورا من الأرض الزراعية كان ١٨٥ دراخمة في القرن الأول ، و ٣٢٤ دراخمة في القرن الثاني . هذه الإجراءات التشجيعية قفزت بالملكية الشخصية في الأرض قفزة كبرى منذ بداية العصر الروماني ، ^(١) ولكن نوعاً معيناً من الملكية الخاصة يستحق مزيداً من الإفاضة هنا نظراً لأهميتها الاقتصادية ، وهى الملكية الكبيرة التى عرفت باسم *ousia* (أو الوسية فى الاستعمال الدارج الآن) . والسبب فى نشأتها أن الإمبراطور أغسطس ، من أجل الإسراع بعملية استصلاح الأراضى على نطاق كبير — لجأ إلى أسلوب شبيه بأسلوب الملك فيلادلفوس ، وإن اختلفت وسيلة التطبيق فى الحالين . فبدلاً من منح إقطاعات كبيرة من الأرض (*doreae*) إلى أصفياؤه وكبار موظفيه ، دعا أغسطس أفراد الطبقة الأرستقراطية فى كل من روما والألكندرية إلى أن يستثمروا أموالهم فى زراعة مساحات كبيرة من الأرض فى مصر . الإقطاعات أو الملكيات الكبيرة من الأرض هى التى عرفت فى العصر الروماني الأول باسم « وسية » *ousia* ، وكانت تمنح أو تباع للأفراد من الأراضى الكثيرة التى صادرتها الدولة فى بداية العصر الروماني . ولقد أثبتت تجربة الوسية هذه نجاحها ، كما فعلت سابقتها إقطاعات البطالمة (*dorea*) فى القرن الثالث قبل الميلاد ، ويبدو أن « وفيات » العصر الروماني لعبت دوراً كبيراً فى إنعاش الحياة الاقتصادية للبلاد على أسس رأسمالية فى القرن الأول الميلادى .

ويكفى النظر إلى قوائم أسماء أصحاب الوفيات لتبين أهمية هذه الطبقة ، فجميعهم أفراد ذوو ثروة وسلطان . أباطرة أو أفراد العائلة الإمبراطورية أو أصفياء الإمبراطور أو وزراء رومان أو المحررون من عبيد الإمبراطور ، أو

Johnson, Roman Egypt, pp. 14 ff.

(١)

رؤساء المجتمع الإسكندري . وبفضل أموالهم الطائلة تمكنوا من تحويل كثير من الأراضى البور إلى أراضى زراعية تنتج ما كانت تنتجه قديماً من محاصيل . كانت الوسية من الناحية القانونية ملكية خاصة لصاحبها ، أما من حيث الضرائب فلم تكن هناك قاعدة محدودة ، ولكن تمتع أصحاب الوسيات عموماً بامتيازات مختلفة ، تدرجت بين الإعفاء من الضرائب ودفـع ضرائب مخفضة . (١)

ولدينا بردية تلقى ضوءاً عن كيفية حصول أحد أفراد الأرستقراطية فى الإسكندرية على أرض وسيته ، وهو جايوس يوليوس ثيون الذى شغل مناصب كبيرة فى الدولة وابنه بالاسم ذاته ويبدو من الوثيقة أن جايوس يوليوس ثيون الكبير تقدم أصلاً بطلب شراء أرض من الدولة ، وأن الوالى تورانيوس (سنة ٧ - ٤ ق . م) صرح له بشراء أرض من أملاك الإمبراطور على أن يسدد جميع استحقاقات الدولة . ولكن لسبب غير معلوم لم يتم تعيين الأرض وتسجيلها ولم يدفع المبلغ المستحق عليها . على أى حال بعد ذلك بقليل تقدم ابن الطالب الأول بطلب جديد فى عام ١٠ / ١١ م . وعين له الوالى أكويللا فى نوموس أوكسيرنخوس أرضاً كانت تنتمى أصلاً إلى معبد إيزيس . ونعلم من البردية أن مجموع استحقاقات الدولة من ثيون الصغير زاد على تالنتين (٢) ، أى ما يساوى ١٢٠٠ دراخمة . فإذا ما فرضنا أن السعر الذى دفعه ثيون هو متوسط السعر الذى كان يدفع لأرض الدولة المباعة فى ذلك الوقت وهو عشرون دراخمة للأرورا ، فإن مساحة الأرض التى اشتراها تزيد على المسمائة أرورا . هذا مع العلم أن من

(١) خير عرض لموضوع الوسية فى بداية العصر الرومانى هو مؤلف : Rostovtzeff, Soc. l Ec. Hist. of Rom. Emp., 2nd ed., pp. 292 ff., esp. notes 45 and 46. See also P. Philad. No. 19 (I—II cent. A.D.).

(٢) P. Ox. XII. 1434, lines 6—17 (7—4 B. c.—11 A.D.)

المحتمل أن السمر كان أقل من ذلك بسبب كبر حجم الأرض - وكانت هذه الوسيات الكبيرة تعتبر وحدات اقتصادية هامة في الريف المصرى ، وكان يديرها وكلاء عن أصحابها الذين كانوا يقيمون عادة بعيداً عن أرضهم في الأسكندرية أو روما . وكثيراً ما تمت على الوسية حركة صناعة نشطة تعتمد على منتجات الأرض ، مثل صناعة الزيوت ، والخمور من الزيتون والأعشاب التي تنتجها الوسية .

على أن هذه الموجة من ملكية الوسية لم تستمر كثيراً بنفس هذه القوة ، إذ سرعان ما تغيرت النظرة الرومانية الرسمية نحو الملكيات الكبيرة التي يمتلكها أفراد لا يقيمون في البلاد ، وأتجهت السياسة نحو قصر تملك الأرض على سكان البلاد . ولذلك لم ينته القرن الأول الميلادى إلا وكانت معظم وسيات أعضاء الأسرة الإمبراطورية والأرستقراطية الرومانية قد آلت إلى ملكية الإمبراطور الشخصية إما عن طريق وراثتها أو مصادرتها حين يموت صاحب الأرض أو لأى سبب آخر . مجموع هذه الأراضي التي استولى عليها الإمبراطور أصبحت تكون قطاعاً جديداً من قطاعات الأرض في مصر الرومانية يعرف باسم *géousiaké* (رغم أن الأراضي استمرت تحمل أسماء أصحابها الأصليين) .

ولكن يجب ألا نستنتج أن موجة مصادرة الوسية في نهاية القرن الأول قضت على ظاهرة الملكيات الكبيرة في مصر^(١) ، فوثائق القرن الثانى الميلادى تثبت أن كثيراً من الملكيات الكبيرة استمرت موجودة من القرن الأول ؛ مما يدل على أن أثرياء الأسر في الأسكندرية والريف المصرى ظلوا محافظين على

(١) كما ذهب كل من : Roslovtzeff. Soc. Ec. Hist. Rom. Emp, 294—5, and Johnson and West, Byzantine Egypt, p.39 f

ملكياتهم الكبيرة التي حصلوا عليها في بداية العصر الروماني^(١) . نتيجة لذلك كله نستنتج أن سياسة روما الجديدة في مصر وهي بيع الأراضي المصادرة سواء في مساحة كبيرة أو صغيرة أدت في النهاية إلى زيادة الملكية الخاصة زيادة لم يسبق لها مثيل .

أما عن أرض المدن الإغريقية ، فقد استمرت أيضاً في العصر الروماني ، وزادت أيضاً عن ذي قبل بسبب زيادة هذه المدن ، أولاً بإنشاء مدينة أتينوبوليس سنة ١٣٠ ؛ ثم بعد ذلك حين أصبحت عواصم النومات (المتروبولات) مدناً ، لها نظام المدن الإغريقية ، بفضل إصلاح سبتيميوس سيفيروس في بداية القرن الثالث . فجميع هذه المدن منحت قطعاً من الأرض خاصة بها وأصبحت تسمى بالأرض المدنية gé politiké .

من سوء الحظ أننا لا نمتلك من العصر الروماني وثيقة توضح مدى انتشار الأنواع المختلفة في الأرض في مصر ، ولكن دراسة حديثة لمجموع وثائق هذه الفترة تبين أن نسبة الأرض الخاصة للأرض العامة كانت ٥٠ : ٥٠ خلال القرنين الأولين ؛ مع ازدياد نقصان مساحة الأرض العامة بصورة مضطردة حتى تختفي تماماً في القرن الرابع^(٢) .

وتبين دراسة أحوال الأرض في القرن الثالث كيف حدث هذا التطور . فإن ظروف الاستقرار والرخاء التي عمت الإمبراطورية الرومانية في أثناء القرن الثاني لم تستمر إلى القرن الثالث حين تعرضت الإمبراطورية الرومانية لأزمات

(١) أمثلة من الملكيات الكبيرة توجد في : P. Strassb. I, no, 3; 24; 74-5; 78 (c. 118 A.D.); P.R. Univ. Milan. No. 28 (162—3 A.D.); P.S.I. I, 31 (164 A.D.), and B.G.U. I. 603—4. (167—8 A.D.); B.G.U. III. 959 (148 A.D.) and P. Berl. Leihg. No. 18 (163 A.D.).

(٢) أنظر : A. Segré: The Byzantine Colanate, in Traditio, 5 : 103—133, esp. pp. 130—131, (1947)

سياسية متتالية أجهزت بالأحوال الاقتصادية كل الضرر مما جعل المؤرخين يطلقون على هذا القرن اسم فترة المحنة الكبرى . ولم تسلم مصر من آثار تلك الأحداث العامة في الإمبراطورية ؛ وبدا ذلك واضحاً منذ الجزء الأخير من القرن الثاني حين بدأ النظام الإداري في مصر يتكشف عن عيوبه ، وتحول نظام تولى الوظائف العامة من الاختيار إلى الإلزام ، وطبق نظام الخدمة الجبرية على معظم الوظائف في الإدارة المحلية . وقد شرحنا في فصل سابق كيف أصبح من المتعذر أن يقدم عدد كاف من أصحاب الأملاك على تولى الوظائف في المتربولات بدافع من رغبتهم الشخصية ، حتى اضطر الإمبراطور سيفيروس في أول القرن الثالث إلى أن يقوم بإصلاحه المشهور وهو تعميم نظام المجالس boulae في الأسكندرية والمتربولات ، وإلقاء تبعه شغل وتمويل الوظائف المحلية على أعضاء هذه المجالس ، على أنهم مسئولون مسئولية جماعية .

ولما كانت الملكية الخاصة هي الضمان الأساسي لتولى الوظائف ، ازدادت نتيجة لذلك أهمية الملكية الشخصية ، فزاد حرص طبقة ملاك الأراضي على زيادة أملاكهم ليتمكنوا من القيام بالمسؤوليات الإدارية التي أصبحت تفرض عليهم فرضاً . فزادت الملكيات الكبيرة بشكل ملحوظ ، وأصبحت « الوسية » من مظاهر الأرض المألوفة في هذا القرن ^(١) . وقد ساعدت ظروف مختلفة من تمكين الأثرياء من شراء الأراضي على نطاق كبير من بين تلك الأسباب أن القانون يقضى بأن الشخص الذي يرشح لتولى أحد المناصب ويرفض توليها كان يفقد ثلثي ممتلكاته للدولة ، التي كانت تستولى عليها ، وتبيعها بالمزاد العلني . ونظراً لاضطراب الأحوال الاقتصادية العامة فقد كثير من متوسطى وصغار الملاك أرضهم عن هذا السبيل . ومن الطبيعي أن يتمكن الأفراد الأكثر ثراء

(١) أنظر : Rostovtzeff, Soc. Ec. Hist. R. Emp. pp. 489 ff and notes

من شراء الأرض التي تستولى عليها الدولة وتبيعها بالزاد العلى^(١) . وأحياناً أخرى تورط متوسط وصغار الملاك في ديون اقترضوها من كبار الملاك ، فإذا ما عجز هؤلاء الدينون عن سداد ديونهم - وكثيراً ما حدث هذا - استولى الدائنون على بعض أملاكهم التي يقدمها الدينون هنا . ضماناً لديونهم^(٢) ،

ولقد وجدت كذلك السبل العادية للحصول على الأملاك عن طريق الشراء والميراث ، ولكن كثرة تكرار الظروف التي يضطر فيها الأفراد إلى التخلي عن أملاكهم هي التي تكشف عن عدم الاستقرار في المجتمع . ففى مثل هذه الظروف يتمكن الأفراد الطموحون من أصحاب الثروة من زيادة ملكياتهم على حساب صغار الملاك ؛ وهو ما حدث في القرن الثالث الميلادى ، حتى إذا ما جاء القرن الرابع رأينا أن الملكية الكبيرة هي الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر .

الصناعة والتجارة :

لئن كان الاحتلال الرومانى قد قضى على كل سيادة سياسية لمصر ، فإنه لم يصب اقتصادها بنفس الأثر ؛ بل على العكس من ذلك بذل الرومان جهوداً كبيرة في سبيل إنعاش البلاد اقتصادياً ، لأن جزءاً كبيراً من فوائد ازدهار الحياة الاقتصادية في مصر ، كان يذهب إلى روما ذاتها سواء عن طريق الضرائب أو عن طريق أرباح كبار المستثمرين من الرومان . وكما شجعت الإدارة الرومانية الملكية الخاصة في المجال الزراعى ، كذلك شجعت سياسة الاقتصاد الحر في كثير من أوجه الصناعة والتجارة ، ولو أننا لا نعرف معرفة يقينية مدى تطبيقهم لهذه

(١) أنظر مثلاً : P.Ox. III. 513 (184 A.D.); and XX. 2269 (269 A.D.);

P.Apokrimata, lines 16 ff.; P.Giss. 34 (265 6 A.D.); P.S.I. (٢)

XIII. 1328 (201 A.D.); P. Lips. I. 10 (240 A.D). P.

Flor. I. 56 (234 A.D), P. Lips. 9 (233 A.D).

السياسة الجديدة . فبينما بقيت المفاجم مثلاً محتكرة بواسطة الدولة، تركت صناعة الزيت حرة في أيدي الأفراد ؛ في حين أن الإدارة الرومانية مارست درجات مختلفة من التحكم والإشراف على صناعات أخرى مثل النسيج، والبردى والطوب والجمعة^(١) . ويبدو أن سياسة الرومان من ناحية وظروف الإمبراطورية العامة التي انتشرت فيها السلام مدى قرنين من الزمان وموقع مصر المتوسط بين الولايات ثم موقعها على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، كل ذلك ساعد على ازدهار الصناعة والتجارة بها على نحو لم تبلغه مصر من قبل . ويمكن أن نقول أن الإسكندرية أصبحت أكبر مركز للصناعة والتجارة في الإمبراطورية الرومانية بأسرها . ولدينا نص يصف الحياة الصناعية في لأسكندرية بهذه العبارات : « إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ، ولا يوجد بها عاطل عن العمل ، فالبعض يعمل في صناعة الزجاج ، وآخرون يعملون في صناعة أوراق البردى وكثيرون يعملون إما في صناعة النسيج أو في أية حرفة أو صناعة أخرى ، حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كل له عمله ، حتى من فقدوا أيديهم لا يقضون حياتهم عاطلين هناك . الجميع يعبد إلهاً واحداً هو المال ؛ هذا الإله يعبد المسيحيون واليهود وكل طائفة أخرى في الواقع^(٢) » إن البيئة الصناعية التي تصفها هذه العبارة ذات أهمية بالنسبة لدراستنا ، نظراً لأنها تذكر الصناعات الرئيسية التي عرفت بها مصر وليست الإسكندرية فقط ، وهي صناعات الزجاج والبردى والنسيج . فنحن نعرف أن المصريين القدماء تخصصوا في صناعة الزجاج منذ

(١) خير عرض لصناعة مصر في العصر الروماني هو : Johnson, Roman Egypt, pp. 325 ff.

(٢) ينسب هذا النص إلى الإمبراطور هادريان في مجموعة سير الأباطرة الرومان المعروفة باسم Historis Augusta, Saturninus, VIII. 5—7 ، ولكن من الثابت أن هذه النسبة غير صحيحة وأنه من وضع أحد مؤلفي المجموعة . ومع ذلك ، فإن هذا النص أهميته لأنه يلمح ضوءاً على الحياة الصناعية في الإسكندرية .

أقدم العصور ، وأنهم ارتقوا بصناعته إلى درجة عالية من الإنقان حتى أنه كان يصدر إلى مناطق مختلفة من البحر الأبيض . ويبدو أن مصر تمكنت من المحافظة على تفوقها في هذه الصناعة في العصر اليوناني والروماني^(١) ؛ فهذا استرابون الجغرافي الذي زار مصر في بداية العصر الروماني يذكر أن صناع الزجاج في الأسكندرية كانت لهم أسرار خاصة بصناعتهم ، وأن تربة مصر كانت تحوى مادة معينة تصلح لصناعة الزجاج المتعدد الألوان^(٢) . ومن كتاب القرن الثاني يذكر أثيناؤس أن صناع الزجاج في الأسكندرية ارتقوا كثيراً بصناعتهم ليحافظوا على مكانتهم في الأسواق الخارجية أمام المنافسة الأجنبية ، ومن ذلك أنهم صنعوا الزجاج على أشكال مختلفة محاكين في ذلك أشكال الأواني الفخارية التي كانت ترد إليهم من الخارج^(٣) .

أما صناعة ورق البردى وتصديره إلى الخارج فقد ظل احتكاراً لمصر دون أن تخشى أى منافسة أجنبية في هذا المجال . ولقد أدرك البطالة من قبل مركز مصر الفريد ذلك وتمكنوا من التحكم في أسعار البردى في الأسواق العالمية عن طريق احتكار انتاجه في الداخل وتصديره إلى الخارج . ولكن الرأي انقسم بين العلماء حول سياسة الإدارة الرومانية في مصر من هذه السلعة والسبب في ذلك هو أن مصادرنا الأدبية لم تكن واضحة فيما يتعلق بهذه النقطة . فالكاتب الروماني بلينيوس الكبير^(٤) رغم الوصف المفصل الذي يورده عن صناعة البردى في مصر — لا يذكر شيئاً عن سياسة الحكومة . وأما الجغرافي استرابون فله جملة اختلف في معناها ، وهي قوله « هناك فئة ممن يريدون زيادة دخولهم...

(١) أنظر : Johnson, Roman Egypt, pp. 336—7, and note 3
 (٢) Strabo, 16, 2, 25.
 (٣) Athenaeus, XI, 784. C.
 (٤) Pliny, Natura Historia, 13, 11—12.

ولذا لا يسمعون بنمو البردى في مواضع كثيرة، مما يؤدي إلى ندرته التي ينتج عنها ارتفاع أسعاره، وبذلك تزداد دخولهم، بينما هم يسيثون إلى الصالح العام^(١) « ومن العلماء من يفسر هذه العبارة على أنها تصف سياسية المسئولين الرسميين، ومنهم من رأى أنها تصف كبار الرأسماليين المنتجين للبردى. والفرق الأساسي بين وجهتي النظر أن أصحاب الرأى الأول يذهبون إلى أن الرومان أقاموا احتكاراً حكومياً لإنتاج البردى^(٢)، أما أصحاب الرأى الأخير فيذهبون إلى أن إنتاج البردى في العصر الروماني كان حراً دون أن يخضع لاحتكار حكومي^(٣). ولقد جاءت اكتشافات الوثائق البردية الحديثة مؤيدة لهذا الرأى الأخير وأن زراعة البردى وصناعته كانت حرة على الأقل في بداية العصر الروماني. ويبدو أن الإدارة الرومانية بدلاً من أن تتدخل في إنتاج البردى وتجارته تدخلا مباشراً، اقتصرت فيما بعد على أن تفرض ضريبة مالية على البردى (chartera)^(٤) وضريبة نوعية أخرى منه (anabolica species)^(٥) تنجي سنوياً وترسل إلى روما ولعلها كانت من الحجم بحيث تكفى حاجة العاصمة.

الصناعة الكبرى الثالثة هي صناعة النسيج وكانت من أكثر الصناعات انتشاراً في مصر، وقلماً خلى منزل من منسج لنسيج حاجة الأسرة إلى الملابس.

(١) Strabo, 17. 1. 15.

(٢) Wilcken, Grundz. pp. 55—6; Walbank, Decline of : أنظر: the Roman Empire, p. 12.

(٣) Lewis, L'Industrie du Papyrus, 101 ff., Johnson, Rom. Eg. 329.

(٤) B.G.U. IV. 1121. and 1146 (augustan age).

(٥) S.B. 5636 (2nd cent. A.D.)- P. Mich. II. 123 (45 A.D.) P. S'rassb. I. 59 (228 A.D.).

ولكن إلى جانب الصناعة المنزلية وجدت مصانع تخصصت في إنتاج أنواع راقية من المنسوجات الثيلية التي اشتهرت بها مصر منذ أقدم العصور . ويخبرنا بلينيوس الكبير عن تقدم هذه الصناعة في مصر أن الأسكندرية اشتهرت بنوع التيل المزين بالرسوم والذي كان يصنع بنسج عدد من الخيوط معاً ويسمى لذلك « polimitta »^(١) . ونحن نعرف أن المنسوجات المصرية كانت واسعة الانتشار في الخارج وأنها كانت تصدر بكميات كبيرة إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند وكذلك إلى مواطن متعددة في البحر الأبيض المتوسط . ولم تكن صناعة النسيج من أجل التصدير مركزة في الأسكندرية فحسب ، بل يبدو أنها وجدت في مراكز أخرى من مصر على قدر عظيم من النشاط والتقدم وكانت منطقة الفيوم إحدى كبريات هذه المراكز التي تخصصت في تصدير إنتاجها إلى الأسواق الشرقية في بلاد العرب والهند . وبقدر ازدياد التجارة الشرقية في النشاط في العصر الروماني ازدادت صناعة النسيج المصرية قوة وإنتاجاً ، حتى أن الكاتب بلينيوس الكبير اعتقد أن مصر دفعت قيمة وارداتها من الهند وبلاد العرب عن طريق تصدير المنسوجات الثيلية^(٢) .

ولكن ترى ماذا كان موقف الحكومة الرومانية من هذه الصناعة الهامة ، هل احتكرتها أو تركتها حرة في أيدي الأفراد . نحن نعرف أن هذه الصناعة لها أهمية خاصة بالنسبة للرومان ، لحاجتهم المستمرة إلى كميات كبيرة من الملابس لأفراد الجيش ، ولذلك من صالحها التحكم في إنتاج النسيج . ومع ذلك فلم تلجأ إلى سياسة الاحتكار الكامل بل لجأت انتهاج سياسة محكمة تحقق الإشراف السكامل عليها . وتتلخص هذه السياسة أولاً في امتلاك المصانع الخاصة

Historia Augusta, Aureliani, 45. 1.

(١) .

Plinius, Natura Historia, XIX. 7- The Periplus, 8 (See (٢) translation of W.H. Schaff). P. Hawara, 208.

بها .^(١) أما سائر المشتغلين بالنسيج في مصر فقد أخضعتهم الإدارة لإشرافها التام ، عن طريق جميع النساجين — مثل غيرهم من العمال والصناع — نقابات خاصة بهم حسب كل مدينة أو قرية^(٢) ، وبعد ذلك عاملتهم معاملة خاصة فيها شيء من الامتياز عن كثير من فئات العمال الآخرين ، وهو إعفاء النساجين من القيام بالأعمال الإجبارية ، (liturgia) ، وذلك نظراً لفائدتهم بالنسبة للخزانة .^(٣) ولم يكن الهدف من ذلك التنظيم هو حماية النساجين ولكن للاستفادة منهم حسب حاجة الدولة . ولذلك فرضت عليهم ضرائب مالية ونوعية يدفعها النساجون وأصحاب المصانع للدولة^(٤) ، وحين لا تنفي هذه الضرائب بحاجة الدولة ، كانت تفرض عليهم كميات إضافية أخرى^(٥) .

هذه هي الصناعات الكبرى التي كانت تقوم عليها تجارة مصر الخارجية ، ولكن وجدت إلى جانبها صناعات أخرى ذات أهمية تجارية وازدهرت بنصفه خاصة في العصر الروماني وهي صناعات التوابل والعمود وكذلك الصناعات الفنية الصغيرة . فيما يتعلق بصناعة العطور فللمصر شهرة قديمة فيها وكثيرا ما صدرت العطور والروائح معبأة في زجاجات صغيرة في العصر الفرعوني . أما التوابل فإن التجارة الشرقية جلبت الكثير منها إلى مصر حيث تم تصنيعها ثم أعيد تصديرها إلى روما وسائر ولايات الإمبراطورية .

(١) Johnson, Roman Egypt, pp. 333. (١)

A. E. R. Boak, The Organisation of Guilds in Greco Roman Egypt T.A.P.A., 68 (1937) 212—220; Johnson, Roman Egypt, pp. 392 ff. and nos 247—255. (٢)

P. Ox. XXII. 2340, lines 8—10. (٣)

P. S. I., IX. 1060 (201 A. D.); Historia Augusta Aurelian, 45. 1. (٤)

P. Ox. XIX, 2230 (119 A. D.); B. G. U. VII. 1572. (٥)
(139 A. D.)

أما الصناعات الفنية الصغيرة مثل صناعة التماثيل واللعب والآلات الموسيقية فهي قديمة ولكن في العصر اليوناني والروماني اكتسبت أهمية خاصة وصنعت للإنتاج الكبير من أجل التصدير للأسواق الخارجية وفي ظل الحكم الروماني حينما فقدت الفنون حماية وتشجيع القصر الملكي والمعابد، وجدت تعويضاً عن ذلك من الناحية المالية في زيادة الطلب من الخارج للأعمال الفنية. ولقد كشفت الحفائر الأثرية في ممفيس عن التوصل في هذا العصر إلى استخدام أساليب صناعية جديدة من أجل الإنتاج الكبير (mass production) عن طريق استخدام القوالب في صنع أعداد كبيرة من التماثيل البرنزية والجبسية من مختلف الأحجام. ^(١) وثبتت الحفائر الحديثة عن سعة انتشار هذه الصنوعات الفنية وما يماثلها بين أفراد الطبقة البورجوازية في أنحاء الإمبراطورية. ^(٢) لم تقتصر الحياة الصناعية في مصر الرومانية على الإنتاج من أجل التصدير ولكن وجدت كذلك صناعات قديمة أخرى مثل الأخشاب والمطاحن والزيت والخبز والمعادن، وهي صناعات ضرورية للاستهلاك المحلي وهو استهلاك كبير. ونحن نعرف مثلاً مدى الاهتمام الذي أبداه البطالمة في تطبيق احتكار صناعة وتجارة الزيت داخلياً، هذه الصناعة استمرت أيضاً في العصر الروماني ولكن على أسس جديدة، وهي تركها في أيدي الأفراد بعيداً عن احتكار الدولة، التي اكتفت بفرض الضرائب على مثل هذه الصناعات. أما صناعة الخمر فكانت دقيقة الاتصال بانتشار بساتين الفواكه والكروم

(١) أنظر الدراستين الأساسيتين

C. C. Edgar, Greek Moulds; and id. Greek Bronzes

Dorothy Kent Hill, An Egyptian Sculptural Type and (٢)

Mass' Production of Bronze Statuettes, Hesperia, 27

(1958) 311 ff.; of. Sir Mortimer Wheeler, Rome

Beyond the Imperial Frontiers, 200—201 (Penguin

ed. 1955)

التي أقبل الإغريق على زراعتها إقبالا كبيرا منذ أن حضروا إلى مصر . وبلغ من وفرة إنتاج الخمر في هذا العصر وخاصة بواسطة أصحاب الملكيات الكبيرة من الأرض حتى أن الخمر كانت تدفع للعمال والمزارعين مقابل جزء من أجورهم.^(١) ولقد أدى نشاط صناعة الزيت والخمر على هذا النحو إلى ازدهار صناعة أخرى لازمة بهما وهى صناعة الأواني الفخارية ، فوجدت مصانع لصناعة الفخار وإنتاجه بكميات كبيرة وأحجام وأنواع مختلفة تصلح للأغراض المختلفة .^(٢)

التجارة :

قامت هذه التجارة الضخمة في العصر الروماني استجابة لحاجيات تجارة عالمية لم يعرف لها مثيل من قبل ، وما من شك أن الإمبراطورية الرومانية التي وحدت العالم القديم ويسرت الانتقال من إقليم إلى إقليم كانت من أكبر أسباب ازدهار التجارة العالمية . وكان من الطبيعي أن تحتل مصر مركز الصدارة في هذه التجارة نظراً لموقعها للتوسط الممتاز على طريق التجارة بين الشرق والغرب ، ولامتلاكها سواحل طويلة على كل من البحر الأحمر والبحر الأبيض . ولذلك لم يكن مستغرباً أن تصبح الإسكندرية ، ميناء مصر الأولى ، « أكبر مركز تجارى في العالم بأسره » .^(٣) إذ لم تقتصر تجارة مصر الخارجية التي تركزت في الإسكندرية أساساً على ما تنتجه مصر محلياً ، فقد كان يؤتى بالبضائع إلى مصر من كل قطر خارجي ثم يعاد تصنيها وتصديرها ثانية إلى الأسواق الخارجية . ولذلك حضر إلى الإسكندرية تجار من جميع أرجاء

P. Flor. III. nos 321—322.

(١) أنظر مثلاً

(٢) فيما يتعلق بهذه الصناعات راجع فصل الصناعة في كتاب Johnson Roman Egypt.

Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

(٣)

العالم القديم ليعقدوا صفقاتهم من أجل شراء البضائع المصرية والأجنبية على السواء. ^(١)

وكانت مصر معدة للقيام بدورها أحسن إعداد بفضل موانئها البحرية وخاصة الإسكندرية . ولقد أدرك القدماء هذه الحقيقة ، فكتب استرابون عن مدينة الإسكندرية فقرة تعتبر من أقيم التعليقات القديمة المعاصرة في مجال الحياة الاقتصادية ، فيقول : « تقع الإسكندرية على بحرين ، من ناحية الشمال يوجد البحر المسمى - كبا كان يسمى - ، ومن ناحية الجنوب توجد بحيرة ماريا أو مريوط . وتملاً هذه البحيرة عدد من القنوات المتفرعة من نهر النيل ، سواء من الناحية العلوية أو من الجوانب . وما يرد إلى المدينة عن طريق هذه القنوات يفوق كثيراً ما يأتي من البحر ، حتى أن الميناء الواقع على البحيرة أغنى من الميناء البحري . وكذلك في هذا الميناء البحري تفوق تجارة الصادر من الإسكندرية تجارة الوارد . ويستطيع الإنسان أن يرى بنفسه لو أنه وقف عند الإسكندرية أو ديكارخيا (Dicarchia) وهي حالياً بنبولي Puteoli ميناء إيطاليا الرئيسي في ذلك الوقت) ، كيف أن حمولة السفن تختلف ثقلاً وخفة عند مجيئها وذهابها » ^(٢).

(١) المصادر الأساسية القديمة هي : Pliny. Nat. Hist. VI 101 sq. ; the

Periplus of the Erythraean Sea, translated by schött (1912); Strabo, II. 101; XVII. 728.

أما الدراسات الحديثة فكثيرة وأهمها : Wilken, Grundz., 262 ff. ; Johnson, Rom. Eg. 325 ff. ; L. C. West, Phases of Commercial Life in Roman Egypt, J.R.S. VII. (1917) 95—58; E. Leider, Der Handel von Alexandria (1933); E.H. Warmington, The Commerce Between the Roman Empire and India (1928); M. P. Charlesworth, Trade Routes and Commerce of the Roman Empire (1924) esp. chapters 2 and 4.

Strabo, 17. 1. 7 (C. 793); and 17. 1. 9 (C. 794). (٢)

في هذه الفترة يتحدث استرابون عن الظروف في الأعوام الأولى من الإمبراطورية ، وهي فترة جديدة في تاريخ مصر وتاريخ العالم ، ولذلك فإن ما يلاحظه عن اختلاف طبيعة النشاط في الشحن بين الميناء الداخلي والميناء الخارجي في الإسكندرية له أهمية خاصة . فهو يقرر حقيقة هامة بالنسبة لتجارة مصر الخارجية في التاريخ القديم وهي أن صادرات مصر كانت تزيد كثيراً عن حجم وارداتها من البضائع . ولم تقتصر هذه الحقيقة على العصر الروماني ، بل سادت في جميع التاريخ القديم ، والسبب في هذه الظاهرة هو أن مصر تمتعت قديماً باكتفاء ذاتي فيما يتعلق بمواد الغذاء ، التي توفر لديها مزيد منها ، والتي كانت تصدره وخاصة القمح ، وتستورد بدلاً منه فضة وخشباً وبدرجة أقل مواد مصنوعة . ولكن تجارة التصدير من مصر شملت أيضاً بضائع حيوانية أصلاً من أفريقيا وبلاد العرب والهند ، مثل العاج والبخور والنسوجات القطنية وغيرها . وما من شك أن مثل هذه التجارة قديمة ، ولكنها في عصر الأسرة البطلمية ازدادت تركيزاً وأهمية ، ومرت جميعها من الإسكندرية ، بفضل الشبكة المتقنة من القنوات التي كانت تصل الإسكندرية عن طريق بحيرة مريوط بجميع أجزاء القطر المصري وجعلت النقل بين البحر الأحمر والإسكندرية سريعاً ومنظماً .

أما في عصر الإمبراطورية الرومانية فقد طرأ على هذه الظروف تطوران هامان جديداً . فممازج أُلحقت مصر بدولة روما ، تغيرت طبيعة صادرات مصر إلى البحر الأبيض المتوسط ؛ إذ لم تعد جميع البضائع تخرج من الإسكندرية لتتبع في أسواق البحر الأبيض وتتقاضى مصر ثمنها فضة أو عن طريق المبادلة ببضائع أخرى . لأن صادرات مصر الآن انقسمت إلى نوعين : أحدهما للتجارة ، والآخر هو الضريبة النوعية التي كان على مصر أن تدفعها لرومان سنوياً ، وكان أهم مقوماتها القمح . ولذلك كادت تقتصر تجارة مصر الخارجية في البحر الأبيض المتوسط على الكماليات المرتفعة الثمن ، التي كانت تستورد من الشرق وتصنع في مصر

ثم يعاد تصديرها إلى إيطاليا وسائر بلدان البحر الأبيض .

أما فيما يتعلق بتجارة الجنوب والشرق فقد زادت أضعافا مضاعفة في القرنين الأولين من الإمبراطورية ، أولا بسبب اكتشاف الرياح الموسمية في المحيط الهندي بواسطة هيبالوس حوالى القرن الأول ق.م ^(١) فأعان هذا الا اكتشاف بحارى الأسكندرية أن يتخذوا طريقا مباشراً عبر المحيط بين مخرج البحر الأحمر الجنوبي ومصب نهر السند وملابار (Malabar) بدلا من السير بسفهم بجذاء الساحل . إن الا اكتشاف الجديد على العموم أدى إلى سرعة السفر بحيث أصبح ممكنا الآن إتمام الرحلة بين مصر والهند ذهابا وإيابا في العام نفسه ، وهو ما لم يكن ممكنا من قبل ^(٢) .

وثانيا كان لسياسة أغسطس نحو حرية الاقتصاد آثار هامة في إنعاش الحياة الاقتصادية في الإمبراطورية . أما في مصر فإن السياسة الجديدة كانت تعنى إحلال سياسة الاحتكار البطلمية بحركة إنعاش رأسمالية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة وعلى ذلك فإن اكتشاف الرياح الموسمية الجديدة إلى جانب السياسة التى طبقها الرومان في تشجيع الاستثمار الحر سمحت للثراء في مصر أن يستثمروا أموالهم في التجارة الشرقية على نحو لم يعرف من قبل ؛ فنتج عن ذلك زيادة كبيرة فجأة في حجم التجارة الشرقية . ولقد تركت هذه الزيادة المفاجئة في التجارة الشرقية آثارها في الحال في تجار البحر الأبيض المتوسط ولاحظها الكتاب المعاصرون وهذا استرابون مرة أخرى يمدنا بملاحظات عن الظروف التجارية الجديدة فيقول : « لئن كان دخل مصر السنوى في الماضى (في العصر

Perip'us, 57; Plinius, Nat-Hist. VI. 100 sqq.; of. (١)
Warmington The Commerce, 35 ff.

(٢) أنظر وصف الرحلة في 106-101 Plinius. Nat-Hist. VI. 101 وما
Warmington, op. cit. 48 ff. حساب للمسافة والزمن في

البطلاني المتأخر) هو ١٢٥٠٠ تالنتوم ، فترى كم يصل دخلها الآن (زمن الإمبراطورية) ، حينما أصبحت تدبر شؤونها بعناية فائقة ، وحينما زادت التجارة مع الهند والصومال زيادة كبيرة . فلم تزد السفن التي كانت تسير في البحر الأحمر ولم تتعد خليج العرب عن عشرين سفينة ، أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند وإلى أقصى حدود أثيوبيا ، ومن هناك تعود محملة بأعلى البضائع إلى صر ، ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد . وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها وحين تصدر منها ، وترتفع الضريبة بقدر ارتفاع ثمن البضائع. ^(١) وفي موضع آخر يذكر استرابون أن الفضل في زيادة معلوماتنا عن البلاد الشرقية يرجع إلى تجار الأسكندرية ويضيف أن لهم أكثر من مائة وعشرين سفينة تعمل في تجارة الهند الشرقية ^(٢) . أي أن عدد السفن زاد ستة أضعاف . ولكن يجب أن نذكر أن الزيادة لم تقتصر على عدد السفن لحسب ، بل إن حجم السفن ذاتها زاد كثيراً ، وأصبحت السفن المستخدمة في البحار الشرقية من أحجام أكبر وقدرة أكثر في سرعة الملاحة ^(٣) .

هذه التجارة الضخمة بين الشرق والغرب مر جزء كبير منها بمصر بين موانئ البحر الأحمر والأسكندرية ؛ وفي الأسكندرية تجمع التجار من مصر وخارج مصر من كل قطر . وما من شك في أن عدد التجار الأجانب كان كبيراً ولكن يبدو أن أقوى عنصر بينهم سيطرة كبار المستثمرين الرومان . ونحن نعرف مدى أهمية كبار المولدين الرومان في نهاية العصر البطلي ، كما في مثال رايربوس Rebirius وعلاقاته بالقصر البطلي ؛ ويمكننا أن نتصور مدى ازدياد أهميتهم بعد ضم مصر إلى الإمبراطورية . ومع ذلك فيبدو أن هؤلاء

Strabo, 17. 1. 13 (C. 798) (١)

Strabo, 2. 5. 12 (C. 118) (٢)

Periplus, 10 and 56; Plinius, Nat.-Hist. VI. 82. (٣)

المولين لم يكونوا خطراً شديداً على التجار المصريين ، لأن جهود المولين الرومان كانت موزعة على مراكز تجارية أخرى في البحر الأبيض مصر وسوريا وآسيا الصغرى والغالة ، في الوقت الذي احتكر تجار مصر وخاصة كبار التجار من الأسكندرية تجارة الشرق البحرية ، كما أن أساطيلهم التجارية الكبيرة مكنتهم من الاشتراك في تجارة البحر الأبيض بنصيب وافر^(١) .

أما في تجارة البحر الأحمر والمند فلم يكن هناك منافسة حقيقية تهدد سيطرة الأسكندريين عليها ، لأن عرب الجزيرة العربية قصرُوا نشاطهم على تجارة القوافل البرية ، ولا يعرف سوى تجار تدمر (Palmyra) وبعض الرومان فقط الذين شاركوا في تجارة البحر الأحمر ، ومن المستبعد أن هؤلاء كونوا خطراً حقيقياً طوال العصر الروماني لأن تجار تدمر تخصصوا في تجارة القوافل البرية أكثر من التجارة البحرية . من ذلك رى أن تجار الأسكندرية احتكروا لأنفسهم تقريباً التجارة الشرقية ، حتى أنه أصبحت الأسكندرية والأسكندريون في المند بمثابة رمز للعالم الغربي بأسره بدلا من روما والرومان^(٢) . ويسبب أيضاً أن اسم الأسكندرية كان أسبق الألفاظ الغربية في الوصول إلى الصين ، حتى لقد اقترح أحد الباحثين مؤخراً أن كلمة « لي جي ين » (Li-ji-en) كانت كلمة صينية محرفة عن كلمة الأسكندرية وأنها تعنى أصلاً أسكندرية مصر^(٣) . من العسير أن نعرف على وجه التحديد قيمة هذه التجارة الشرقية ومقدار الفائدة التي عادت على مصر منها ، ولكن لحسن الحظ تذكر بعض المصادر المعاصرة معلومات قد تكون لها قيمتها في تقريب الصورة إلى عقولنا .

(١) أنظر West, Phases of Commercial life, J.R.S., 7 (1917) 77 8

Warmington, The Commerce, p. 68. (٢)

H. H. Dudo, A Roman City in Ancient China, London (٣) 2. (1957)

وأهم مصدر هو السكاتب بلينيوس الذي يقول إن قيمة واردات الإمبراطورية من الهند وسيريس (seres) وبلاد العرب تربو على مائة مليون سستر كيس (sesterces) ، ويضيف بعد ذلك قوله « هكذا ندفع غالباً من أجل كالياتنا ونسائنا » .^(١) ولكن نعلم أن نحواً من نصف هذه التجارة كان يسلك طريق القوافل براً إلى الموانئ السورية ، أما عن الجزء الآخر الذي كان ينقل عن طريق البحر الأحمر إلى مصر فيقول إن الهند تأخذ منا كل عام مالا يقل عن خمسين مليوناً سستر كيس (sesterces) ، مقابل بضائع تباع لنا بأثمان تبلغ مائة ضعف ثمنها الأصلي .^(٢) وما من شك أن هذه الأرقام بعيدة عن المبالغة ولا يبعد أنها تمثل الحقيقة، خاصة وأن بلينيوس كان في مركز يمكنه من الاطلاع على وثائق الدولة الرسمية . ولكن يهمننا بصفة خاصة قوله إن هذه البضائع الشرقية كانت تباع في الغرب بمائة مثل ثمنها الأصلي . ذلك أن التجارة الشرقية كانت تقوم أساساً على الاتجار في الكماليات مثل اللؤلؤ والعاج والحبر والبخور... إلخ ، وأن ضرائب باهظة كانت تجب عليها عند دخولها مصر وعند خروجها للتصدير مرة ثانية .^(٣) وبالإضافة إلى هذه الضرائب المزدوجة تقاضى التجار مبالغ باهظة مقابل قيامهم بهذا العمل . فالملاحه في البحار الشرقية كانت شديدة الخطورة ، نظراً لانتشار القرصان في تلك البقاع ، حتى أن السفن التجارية كانت تسير عادة في حراسة سفن مسلحة خير تسليح لمقاومة القرصان .^(٤) لذلك كانت هذه الرحلات كثيرة التكاليف ، ومن الطبيعي أن يرفع التجار أسعارهم ليموضوا تكاليفهم وخسائرهم وليغفروا ربحاً مناسباً .

Plinius, Nat - Hist. 12 - 84

(١)

Ibid. 6. 101.

(٢)

Strabo, 17. 1. 13 (C. 798)

(٣)

Periplus, 53 ; Plinius, Nat - Hist. 6. 26

(٤)

هكذا تمكن كثير من الرأسماليين في الأسكندرية ومصر من مضاعفة ثروتهم ومناصفة كبار الرأسماليين في روما ذاتها ، ويكفى للدلالة على خطورة هذه الطبقة من الأسكندريين أن نذكر أن بعضهم تمكن من شق طريقه إلى أرقى المناصب في القصر الإمبراطوري في روما ، كما أن واحدا منهم وهو فيرموس (Firmus) استطاع أن يقود ثورة ناجحة في الأسكندرية تأييدا للملكة زينوبيا في القرن الثالث . ويقال إنه تمكن من تسليح جيش بأسره من دخله من تجارة البردى والصمغ العربي .

Cf. Juvenal, I. 26 f.; IV 24—5.

(١)

Historia Augusta, Firmus, III. 2.

(٢)

الحياة الثقافية والدينية

رأينا في دراستنا للتكوين الاجتماعى لمصر فى العصرين البطلمى والرومانى أن السكان كانوا خليطاً من شتى الجنسيات والشعوب القديمة : أغلبية مصرية وأقلية ممتازة من الإغريق ثم جاليات متفاوتة العدد من اليهود والسوريين والليبيين والرومان وغيرهم . وقد يسأل سائل عن الوسيلة التى تم بها التفاهم بين هذه العناصر جميعاً . ما من شك أن اللغة اليونانية كانت اللغة الرسمية للبلاد منذ بداية العصر البطلمى . ولكن لغة هذا العصر كانت لغة يونانية متطورة بحكم اختلاطها باللهجات واللغات المحيطة المختلفة . فهذه اللغة كانت لغة الحديث بين الإغريق وسائر الجاليات الأجنبية التى تأغرقت تماماً فى هذا العصر وبها كانت تصدر الأوامر الملكية والقوانين العامة . وكانت فوق ذلك لغة الثقافة والفكر ، كتب بها الكتاب والشعراء .

وقد أقر الرومان هذا الوضع كما هو ، وبقيت اللغة اليونانية هى لغة البلاد الرسمية تصدر بها كافة القرارات والقوانين والأوامر ، حتى بيانات الإمبراطور وخطاباته التى كانت تكتب أصلاً باللاتينية كانت تترجم إلى اليونانية عند نشرها فى الأسكندرية . ولهذا فإن عدد الكتابات اللاتينية من مصر فى العصر الرومانى قليل جداً ويكاد يقتصر على شئون الجيش الرومانى . أما المصريون فكان على كثير منهم أن يتقن اللغة اليونانية حتى يستطيع أن يتولى الأعمال الإدارية فى الحكومة ، ولكن أكثرهم فى القرى والريف استمر يتحدث فى الحياة اليومية باللغة المصرية التى كان التعبير الكتابى لها الخط الديموطيقى الذى استخدمت فيه حروف منحدرية من الحروف الهيروغليفية والتى لم يكن بها حروف متحركة مما يفيد حرية اللغة ويمنعها من تقبل الألفاظ الجديدة فظلت حامدة لا تسير التطور . لهذا كان تعلم الديموطيقية أمراً عسيراً حتى على المصريين

أنفسهم . أمام هذه العقبات خطا المصريون خطوة ثورية لإنقاذ لغتهم من هذا المأزق بأن اتخذوا الحروف اليونانية لكتابة لغتهم . ولما وجدوا أن الأبجدية اليونانية لا تفي بحاجة جميع أصوات اللغة المصرية أضافوا إليها ستة حروف من الكتابة الديموطيقية . وهكذا ولدت اللغة القبطية في القرن الثالث الميلادي ، وانطلقت اللغة من عقالها لتتقل ألقاظاً وأفكاراً جديدة ، ولتخرج بعد ذلك فكراً وأدباً جديداً . وكان أول وأعظم أعمال اللغة القبطية الجديدة أنها نقلت الإنجيل إلى المصريين في لغة مصرية وثوب مصرية ، ليس بالأجنبي اليوناني أو اللاتيني . ولعل هذا من الأسباب التي جعلت للمسيحية تنتشر بين المصريين جميعاً كمعقيدة شعبية .

هذه كلمة مختصرة عن اللغة رأينا أن نقدم بها للحديث الآن عن الثقافة والفكر الذي تميز به العصر الروماني في مصر ، والذي كانت وسيلته في التعبير هي اللغة اليونانية التي كانت ذائعة الانتشار خارج مصر أيضاً .



رأينا في العصر البطلمي كيف كانت الأسكندرية أشهر مركز في العالم في مجال الأدب والدراسة ، قصدها كثير من العلماء والدارسين إما لينضموا إلى هيئة علماء المكتبة والموسيون أو ليفتقروا من معين هؤلاء العلماء .

وقد تركت مدرسة الأسكندرية أثرها على مراكز الأدب اليوناني الأخرى حتى في بلاد اليونان نفسها ثم تعدى تأثيرها العالم اليوناني إلى روما ، فظهر هناك أدباء وشعراء لاتينيون متأثرون باتجاهات الأدب الأسكندري ويحاكون نماذجها كما يحاكي بعض أدبائنا الآن نماذج الأدب الأوربي . ومن الغريب أن هذا التأثير على روما بلغ ذروته في عصر كليوباترة ، أي في الفترة التي تم في نهايتها ضم مصر إلى الإمبراطورية الرومانية ، حتى أن من أراد من أدباء

روما أن يخرج على قوالب الأدب الأسكندري كان يفعل ذلك بقصد الثورة على سيطرة هذا الأدب على عقول الأدباء الرومان^(١).

لم يكن مستغرباً إذن أن يحتضن الرومان مؤسسات الثقافة والعلم في الأسكندرية بعد الفتح، فبقيت المكتبة والموسيون بلقيان التشجيع والتأييد من الأباطرة، كما استمر العلماء يتلقون العطاءات والامتيازات المختلفة كالإعفاء من الضرائب وتناول الطعام في الموسيون دون مقابل.

ويجب أن نذكر أن الموسيون كان بمثابة أكاديمية للبحث وليست جامعة للتدريس، إلا أن بها قاعات يجتمع بها العلماء ويتباحثون فيها. ونحن نعرف أن الإمبراطور هادريان، الذي كان شديد الحماس للحضارة اليونانية، زار الموسيون وشهد بعض ندوات العلماء والفلاسفة هناك واشترك في مناقشتهم. وبمناسبة هذه الزيارة زاد عدد العلماء بتعيين كثير من الأساتذة والفلاسفة ومنهم من كان من الفلاسفة المتحولين الذين لا يقيمون في الأسكندرية فكانوا أشبه بأعضاء مراسلين للموسيون كما نقول الآن. ويبدو أن التوسع في عضوية الموسيون كان قد بدأ يتخذ اتجاهًا جديدًا وهو حمل العضوية فيه شرفية بالنسبة لكثير من الشخصيات البارزة، مثل كبار رجال الإدارة والجيش والأبطال الرياضيين.

وكان الموسيون وثيق العلاقة بالمكتبة التي أنشأها البطالمة ورعاها ملوكهم منذ الملك بطليموس الأول وكانت لها شهرة عالمية؛ حتى إنه حينما احترق جزء منها بسبب الحريق الذي نشب في أسطول يوليوس قيصر في الميناء، قرر أنطونيوس تقديم التعويض اللازم لكليوباترة بعد ذلك بإهدائها ٢٠٠.٠٠٠

(١) لقد عرض السكاكب لهذا الموضوع من قبل في كتاب « تاريخ الأسكندرية منذ أقدم العصور » الذي أصدرته محافظة الأسكندرية عام ١٩٦٣ م ٩٥ - ٩٩. أنظر أيضاً د. إبراهيم نصحي في كتاب « تاريخ الحضارة المصرية » المجلد الثاني م ١٧٧ - ١٩٣. Also cf. V. Chapot, l'Egypte Romaine, pp. 361 ff.

مجلد من مكتبة مدينة برغامة الشهيرة في آسيا الصغرى . وقد استمر للمكتبة أمناؤها من العلماء البارزين الذين اهتموا بأمرها طوال العصر الرومانى ، ولكننا لا نسمع عن اهتمام الأباطرة والولاة بتنمية المكتبة كما كان يفعل البطالمة من قبل . ومع ذلك فقد بقى للمكتبة الكبرى التى كانت ملحقة بمعبد السرايوم شهرتها وكذلك المكتبة الصغرى الملحقة بمعبد القيصرين .

ولم تقتصر الحياة العلمية والثقافية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى على الموسيقيين والمكتبة ، بل وجدت مدارس وقاعات للدراسة يُدرّس بها من شاء من هؤلاء العلماء أو غيرهم وكانت هذه المدارس والقاعات تكون ما يمكن أن يسمى بجامعة الأسكندرية كما نفهم الآن معنى الجامعة . وكان يقصد هذه المدارس كثير من الطلاب من الأسكندرية ومصر عموماً ومن خارج مصر أيضاً . ولكن يجب أن نذكر هنا أن الحياة التعليمية فى الأسكندرية فى العصر الرومانى كانت حياة معقدة إلى أبعد الحدود ، وذلك لاصطدامها بالظروف الدينية الجديدة . فأصبح علماء الموسيقيين والمكتبة ومعاهد تدريبهم يمثلون الثقافة والحضارة الوثنية ؛ بينما نشأت مدارس جديدة : واحدة لدراسة الدين اليهودى دراسة فلسفية بين اليهود ، وأخرى لتدريس الدين المسيحى الجديد ، كما سنبين بعد قليل .

ولنتنقل الآن إلى الحديث عما أسهمت به مصر فى مجال الثقافة والفكر والعلم فى العصر الرومانى . ولقد استمرت الأسكندرية أيضاً مركز الحركة الثقافية والعلمية فى مصر بطبيعة الحال رغم أن كثيرين ممن نبغوا فى هذه الفترة جاءوا إليها من داخل البلاد مثل أثيناىوس Athenaeus من تقرأطيس وأقلوطيين من أسيوط .

ولكن نوع الإنتاج الفكرى الذى امتازت به الأسكندرية فى العصر

الرومانى اختلف عن الطابع الذى تميزت به فى العصر البطلمى . فقد اشتهرت
 أسكندرية البطلمية بالأدب ودراساته ، وكذلك بالبحث العلمى الذى أثر أحياناً
 على الإنتاج الأدبى . أما أسكندرية العصر الرومانى فلم تحافظ على تفوقها الأدبى
 ويبدو أن عدم وجود القصر الملكى البطلمى فى الأسكندرية أفقد الشعراء
 التشجيع الكافى لبعث إلهامهم . فكان شعر هذه الفترة على حال مجرد
 كلام منظوم بعيد كل البعد عن مفهوم الشعر الراقى واصطبغ هذا النظم بالصبغة
 العلمية فراح الشعراء يظهرن مهاراتهم فى نظم قصائد جغرافية فى وصف ليبيا
 مثلاً كما فعل دنيس (Den: s) ، أوفى وصف الواحات كما فعل سوتيريخوس
 (Soterichos) .

أما فى مجال العلم فقد حافظت مصر على حمل مشعل التقدم فيه . وأشهر علماء هذه
 الفترة غير منازع هو بطليموس الجغرافى الذى اشتهر كثيراً بين العرب فيما بعد .
 وهو من أبناء مصر فى القرن الثانى الميلادى ، ويعتبر قمة فى علم الجغرافيا القديمة
 متميزاً على سابقيه من أمثال استرابون ، وذلك لأنه لم يكن مثاهم جغرافياً
 فحسب بل رياضياً مجدداً إلى جانب كونه فلكياً وعالماً طبيعياً . وبهذا القدر
 العظيم من العلم تصدى بطليموس لمشكلة أعجزت القدماء وهى دراسة الجغرافيا
 على أساس رياضى وفلكى ، وعمل خريطة للعالم وضع عليها الأماكن كل
 إقليم بنسبة أبعادها الصحيحة . هذا العمل العظيم أنجزه بطليموس الذى قفز
 بعلم الجغرافيا قفزة كبرى فى الاتجاه الصحيح ، كما أن أخطاه ذاتها كانت
 لها قيمتها ، لأنها أصبحت فيما بعد بمثابة نقط ارتكاز لتصحيح معلوماتنا
 الجغرافية ، وأصبح عمله كله خير ممد لقيام علم الجغرافيا الحديثة .

ولكن مامن شك أن من أشهر ما تميزت به الأسكندرية فى هذا العصر
 هو الحركة الفلسفية التى عرفت بها مدرسة الأسكندرية . هذا الاتجاه الفلسفى
 كان جديداً على الأسكندرية ، لأنها لم تشتهر بالدراسات الفلسفية فى العصر

البطلانى ، ولعل الملوك حينئذ لم يشجعوا دراستها ليرىحوا أنفسهم من أخطار انتشار المعرفة الفلسفية وظهور مدارسها . ولم يكن الرومان بطبيعتهم أهل فلسفة ، ولكنهم لم يضيّقوا بها . وتعرف كثيرون من قادة روما وأباطرتها بمن تشيّموا لبعض المذاهب الفلسفية والأخلاقية التى انتشرت آنذاك مثل الرواقية والأبيقورية . أما فى الأسكندرية فقد وجدت ظروف معينة فى هذا العصر ساعدت على بعث التفكير الفلسفى بين المثقفين . ولا نقصد بتلك الظروف سوى البيئة الدينية التى عاصرت قيام نظام الإمبراطورية الرومانية فى الجزء الأخير من القرن الأول ق . م . واستمرت فى القرون الثلاثة الأولى الميلادية فى هذه البيئة . ففى هذا العصر واجه الإنسان أخطر موقف دينى عرفه فى تاريخه بأسره . إذ تحت ظروف توحيد العالم فى ظل الإمبراطورية ونشاط الاتصال بين البيئات المختلفة سالت الأديان من بلد إلى بلد ومن بيئة إلى بيئة ونشأت فى الوقت نفسه دعوات دينية جديدة مثل الغنوسية والمسيحية وكلها تؤكّد للإنسان أن الأديان القديمة كلها هراء وكذب . فى مثل هذه المواقف يلجأ الإنسان إلى تفكيره الشخصى ليجتنب عن الطريق الصحيح . وهذا هو دفع إلى إثارة التفكير الفلسفى فى الأسكندرية فى ذلك الوقت متسماً بطابع دينى .

وأول فيلسوف لمدرسة الأسكندرية هو فيلون اليهودى ، الذى عاش فى القرن الأول الميلادى ، وكان من الطبيعى أن يتصدى لهذا الموقف فيلسوف يهودى لأن اليهود كانوا الفئة الوحيدة التى تدين بالتوحيد حينئذ ، وكان الدين الجديد بدعوته إلى التوحيد قد واجهت الموسوية بتحدى خطير ، كما أن الفلسفة اليونانية كانت تسلب الموسوية أحياناً بعض أبنائها . فقام فيلون بمحاولة تسويغ دينه للعقل الجديد مستعيناً بالفلسفة اليونانية على شرح الموسوية . فهو يبدأ بموقف دينى ثم يتطرق منه إلى الدليل الفلسفى على صدق الدعوة الدينية .

هذا الاتجاه الجديد كان خطيراً جداً على التفكير الفلسفى فيما بعد
وسيصبح لمنهج تأثير كبير على التفكير الفلسفى والدينى فى العصور الإسلامية
والمسيحية ، حين يشغل المفكرون أنفسهم بإثبات قضايا الدين عن طريق الفلسفة .
أما الفيلسوف الكبير الذى تخرج فى الأسكندرية ويعتبر زعيم الأفلاطونية
الحديثة فهو أفلوطين من أبناء أسيوط فى صعيد مصر فى القرن الثالث الميلادى
وكانت الوثنية قد بدأت تضعف شوكتها أمام الاتجاه المسيحى الجديد . ولهذا
تصدى أفلوطين لحل المشكلة الدينية عن طريق الفلسفة ، مبتدئاً هذه المرة بالفلسفة
ومنتهياً بالفكرة الإلهية .

ولقد حرص أفلوطين على استكمال ثقافته الفلسفية فالتحق بجيش روماني
كان ذاهباً إلى الشرق كي يلم بحكم الهند وفارس . ولكن بعد الإمبراطور قائد
الحملة عاد مسرعاً إلى أنطاكية ومنها إلى روما حيث قضى بقية حياته يحاضر هناك .
وكان لما عرف عنه من عفة ونقاء وسلوك تصوفى أثر كبير على أتباعه ومريديه
من جميع الطبقات .

لم يكن غريباً إذن أن تجمع فلسفة أفلوطين بين الفلسفة اليونانية والفكر
الشرقى ، فهو يعتمد أساساً على فلسفة أفلاطون والفيثاغورية الجديدة إلى جانب
القيض الإلهى الشرقي . ومجمل نظريته تدعو إلى وجود عالين : عالم الحس وعالم العقل
المجرد . ويتوقف عليهما أن تتجه بأفكارنا نحو أى العالمين . وعالم العقل المجرد هو
الأسمى وينبغى أن يتجه نحوه كل إنسان عاقل . وبقدر ما نتجرد من التعلق
بأسباب الدنيا والانطلاق نحو التأمل الفكرى نقترّب من الهدف ، وبقدر
ما نرتفع فى هذا العالم العقلى نزداد اقتراباً من الخير المطلق حتى تتم عودة النفس
إلى المبدأ الأول والاتحاد بالله .

أما عن الحياة الدينية فقد استمرت عبادة الثالوث البطلمي المكون من سيرايس وإيزيس وهربوكراتيس والذي كان من صنع البطالمة وظل محتفظاً بمكان الصدارة بين الآلهة في العصر الروماني ، بل لعلها نمت في الخارج عن ذي قبل ، وأعلن إدخالها رسمياً إلى روما حين أنشأ الإمبراطور دومينيان (٨١ - ٩٦) معابد في روما لعبادة سيرايس وإيزيس .

وكان ذلك بمثابة إعلان رسمي لقبول الآلهة المصرية في روما بعد أن كانت قد وصلت هناك قبل الفتح بصفة غير رسمية وخاصة الآلهة إيزيس التي تمثل الإلهة الزوجة لسيرايس والإلهة الأم لهربوكراتيس . ولقد احتفظت إيزيس في العصر الروماني بشخصيتها المصرية رغم محاولة تشبيهها بديميتر وأفروديتي اليونانيتين . ولكن شخصيتها المصرية كانت قوية بذاتها خاصة وأنها تكون مع هربوكراتيس صفة أساسية في الفكر الديني الإنساني ، وهي فكرة الإلهة الأم . وتلك الشخصية استطاعت الإلهة إيزيس أن تغزو روما قبل أن يفتح أغسطس مصر ، وأن تنافس في اتساع إمبراطوريتها روما ذاتها . فقد انتشرت عبادتها كالبرق في سرعة غريبة إلى جميع أرجاء الإمبراطورية الرومانية ثم تعدت حدود الإمبراطورية إلى أقاليم أكثر بعداً شرقاً وغرباً في ركب تجارة الأسكندرية . وليس أدل على ذلك من بردية مشهورة من الهنسا ترجع إلى القرن الثاني الميلادي تذكر الأماكن التي انتشرت فيها عبادة إيزيس في أرجاء المعمورة . هذه الأماكن تشمل معظم مدن مصر إذ أن هناك ذكراً لسبع وستين مدينة في الدلتا فقط ، أما خارج مصر فتذكر أسماء خمس وخمسين مدينة مرتبة حسب البلاد التي تقع فيها .

ومن دراسة هذه البردية نقيين أن سلطان الإلهة إيزيس شمل الهند وبلاد العرب وفارس شرقاً ، وسينوب على البحر الأسود شمالاً ، وروما وإيطاليا غرباً .

أما عن هر بوقر اتيس فقد كان مصري الأصل أيضاً ، باعتباره إحدى صور حورس ، ولكن سرعان ما اتخذ لنفسه صوراً أخرى لحورس ولآلهة أخرى مصرية وغير مصرية وانتشرت خارج مصر في العالم اليوناني وفي خطوط تجارة الأسكندرية وخاصة في ركب إيزيس التي كان يشاركها معبدها عادة ، إذ لم يعرف أنه تفرد بمعبد خاص ، باعتبار أنه حورس الصغير ويجب أن يبقى في رعاية والدته . ومع ذلك فقد كان منشراً ومحبوباً بين الطبقات الفقيرة ولكنه عبد مستقلاً بشخصه في البيوت .

إلى جانب هذا الثلاث حلت في مصر عبادة الأباطرة الرومان محل عبادة البطالمة ، ولكن يجب أن نذكر هنا أن الأباطرة عبدوا على أن أشخاصهم مقدسة وليس بوصفهم آلهة . وكانت العبادة قاصرة على الأباطرة بعد موتهم ، فكان لهم كهان في الأسكندرية وتقام تماثيلهم في معابد الآلهة الكبرى ولم تفرد لهم معابد خاصة . ولكن بقيت عبادة الأباطرة عبادة رسمية تمارس في المناسبات العامة دون أن يكون لها طابع شخصي أو تعبد في البيوت .

إلى جانب هذه العبادات ذات الطابع السياسي والديني معاً استمرت عبادة الآلهة المصرية واليونانية والشرقية القديمة في هذا العصر أيضاً ، بل وازداد اختلاطها وانتقالها عن ذي قبل ، حتى لم يكن أن يقال إن العالم لم يشهد فترة امتزجت فيها الأديان القديمة جميعاً كما حدث في ظل الإمبراطورية الرومانية . فإن تمدد الشعوب واختلاطها التي شملتها الإمبراطورية وسياسة التسامح الديني التي اتبناها الرومان سمح لجميع الأديان أن تزدهر . كما أن السلام الذي ساد العالم في الفترة الأولى من تاريخ الإمبراطورية والنشاط التجاري الذي انتشر بين أرجاء العالم مكن الأديان المختلفة من أن تنتشر وأن تؤثر بعضها في بعض . وكانت روما والأسكندرية من أهم مراكز التقاء هذه الديانات المتباينة كما

كانت نقطة لإشعاعها . في هذه البيئة الدينية المتعددة نشأت المسيحية وأقامت كنيستها وطردت الأديان القديمة .

بداية الحركة المسيحية في مصر^(١) :

كان ظهور المسيحية مع مولد الإمبراطورية الرومانية في الجزء الأخير من القرن الأول ق . م من أخطر أحداث التاريخ وأكثرها تأثيراً في سير الأحداث والحياة بكل مظاهرها بعد ذلك . غير أن ظهورها كان خافتاً ضعيفاً أول الأمر يكتنفه كثير من الغموض ، حتى أننا لانعرف كيف نشأت وكيف انتشرت على وجه التحديد . ولكن من المرجح أنها وصلت إلى مصر منذ عصر مبكر جداً . فيوسيبيوس ، أعظم مؤرخي الكنيسة الأولين والذي عاش في القرن الرابع الميلادي ، يروي أن القديس مرقس نفسه حضر إلى مصر وأنه بشر للدين الجديد في الإسكندرية في أواسط القرن الأول الميلادي وتروي إحدى أساطير القديس مرقس أن أول أتباعه كان إسكافيا يهوديا .

هذا هو ما تذكره الروايات المسيحية الأولى ، ولكن ليس هناك أي دليل معاصر يثبت وجود المسيحية في مصر خلال القرن الميلادي الأول . ومع ذلك فنحن ندرك عقلاً أن عدم وجود الدليل لا ينهض شاهداً على عدم وجود المسيحية في مصر في ذلك الوقت . فإن المبادئ والأفكار كانت تنتقل حينئذ بسرعة لا تقل عما تنتقل بها الآن . فعبادة إيزيس مثلاً انتشرت في سرعة هائلة مع انتشار تجارة الإسكندرية إلى أرجاء العالم زمن الإمبراطورية الرومانية . فليس بمستغرب إذن أن تسرى المسيحية من فلسطين وسوريا إلى مصر في مسرى التجارة أو في موكب الجيوش عن طريق البر والبحر وكلاهما آمن منتظم .

(١) عرس الكاتب لهذا الموضوع في مقال « حول نشأة المسيحية في مصر » نشر في « المجلة » عدد أغسطس ١٩٦٣ .

وأكبر دليل على صدق هذه الدعوى أنه منذ القرن الثاني الميلادي ظهر في مصر نشاط وكتابات مسيحية على جانب كبير من الأهمية . فقد حفظت لنا أوراق البردي نصا من إنجيل القديس يوحنا يرجع إلى النصف الأول من القرن الثاني . وكذلك عثر على إنجيل مسيحي جديد غير الأناجيل الأربعة المعروفة ، ويرجع تاريخ تدوينه إلى الفترة نفسها أو بعدها بقليل . مثل هذه النصوص المسيحية المبكرة وغيرها لها دلالتها رغم ندرتها^(١) ، خاصة حين نقدر الظروف التي تمت فيها هذه الأعمال . فنحن نعرف أن الأباطرة الرومان تعقبوا المسيحية بالمقاومة والاضطهاد الشديدين منذ البداية ، ورغم ذلك استمر المسيحيون ينتشرون ويعملون في الخفاء سواء في مصر أو في أنحاء الإمبراطورية المختلفة.

ولقد كان للظروف الدينية والفكرية التي سادت في الأسكندرية في ذلك الوقت تأثير كبير على المسيحية الناشئة . فبسبب توحيد العالم في ظل الإمبراطورية الرومانية وكثرة الانتقال والاتصال بين البيئات المختلفة سرت الأديان والأفكار من بيئة إلى أخرى — كما سبق أن ذكرنا ؛ فواجهها الإنسان لأول مرة مجتمعة متنافسة وكان من أهمها الأسكندرية . وفي هذه المدينة وجدت مدرسة فلسفية نامية ، تأثرت بهذه الظروف الدينية واستجابت لها ، فاصطبغت فلسفتها بالطابع الديني والروجاني ، ومن أكبر أعلامها فيلون وأفلوطين — وقد سبقت الإشارة إليهما . وفي هذه البيئة المعقدة ظهرت دعوة دينية جديدة على جانب كبير من الخطورة وهي الغنوسية أو الأدورية (Gnosticism) . كان أصحاب هذه الحركة ينكرون الدين القديم ويميلون

(١) يوجد ثبت بالنصوص المسيحية في البردي في مقال : C. H. Roberts. The Christian Book and the Greek Papyri, Journal of Theological Studies, Vol. I. (1949) 155 ff.

إلى الاعتقاد في فكرة إلهية عليا تتمثل فيها المثل الدينية الرفيعة دون التقيد بدين معين ؛ أى أنها نوع من الفلسفة الدينية . هذه الغنوسية أو الأدرية كانت النتيجة الطبيعية لتضارب الأديان في هذه الفترة من ناحية ، ولانتشار المدارس الفلسفية من ناحية أخرى فقد أخذت من الأديان جوهرها في الإيمان بفكرة إلهية ، وأخذت من فلسفة فيلون وأفلوطين الجانب التصوفى في الوصول إلى المعرفة الإلهية ، لأنه في عقيدتهم كان إدراك المعرفة اليقينية — أى معرفة الإله والكون معاً — هبة من الله ، ولكن لابد للوصول إليها من رياضة خاصة وتأمل في الذات الإلهية .

هذه الحركة الغنوسية ، رغم أنها كانت منافساً خطيراً للمسيحية في فترة البداية القاسية ، خلقت بيئة مناسبة لأن تسود المسيحية بعد ذلك ، إذ شجعت على الاتجاه نحو ترك الديانات القديمة لقصورها ، فأدت بذلك للمسيحية مساعدة كبرى . إلا أن الغنوسية من ناحية أخرى كانت غامضة سلبية ، كما كانت حركة مفككة تعتمد على العمل الفردى ، ولهذا لم يتوفر لها عامل الإثارة والإيجابية الذى يلهم الحماس الدينى فى الجماهير . ورغم أن الغنوسية هزمت فى معركة الصراع الدينى إلا أنها تركت فى المسيحية أثراً هامين : الأول أنها فرضت على زعماء المسيحية فى القرون الثانى والثالث والرابع أن يعيدوا التفكير فى أسس عقيدتهم وأن يرجعوا إلى جذور الفكرة المسيحية وأن يحدوها . لأن المسيحيين الأولين بعد المسيح مباشرة شغلهم الحماس الدينى فى انتظار عودة المسيح عن التفكير فى جوهر الفكرة الدينية الجديدة . أما الأثر الثانى — وتشترك فيه الغنوسية مع الفلسفة — فهو قوة الاتجاه التصوفى والروحانى الذى عرف فى المسيحية فيما بعد. ^(١)

(١) يوجد عرض قيم للبيئة الدينية فى مصر قبل المسيحية وعند ظهورها فى كتاب :
H. I. Bell, Cults and Creeds in Greco - Roman Egypt
(1953) .

فى وسط هذا المعترك العنيف بين المذاهب والفلسفات والأديان المختلفة من ناحية ، ومقاومة الدولة من ناحية أخرى شقت المسيحية طريقها وأصبح لها فى الأسكندرية مركز ورئيس ومدرسة غير رسمية لتدريس تعاليمها^(١) وكان الهدف من هذه المدرسة هو معارضة الجامعة الوثنية الشهيرة فى الأسكندرية القديمة . ولقد استطاعت هذه المدرسة منذ وقت مبكر أن تسكنسب مجداً وقوة على أيدي أساتذتها الكبار أمثال كليمنس وخليفته فى الأستاذية أوريجينيس .

أما كليمنس فكان شخصية إنسانية جذابة ولد فى أثينا فى أواسط القرن الثانى الميلادى ونشأ وثنياً واسع الثقافة اليونانية متبحراً فى الأدب والفلسفة . ثم حضر إلى الأسكندرية ، وبعد أن استمع إلى محاضرات فى المدرسة المسيحية هناك اعتنق الدين الجديد وأصبح أستاذاً بالمدرسة نفسها بعد ذلك . وقد امتازت دروسه وكتاباته بأثر الفلسفة اليونانية وكذلك بأثر غنوس . ما جعله معتدلاً متسامحاً واسع الأفق بعيداً عن التعصب . وفى سنة ٢٠٣ ميلادية وهو فى ذروة مجده الدينى والعلمى تعرض المسيحيون لاضطهاد شديد ساطه عليهم الإمبراطور سفيروس ، فاضطر كليمنس إلى أن يهاجر إلى فلسطين وأن يعيش متخفياً حتى يموت فى ظروف لا نعرفها .

جاء بعده أوريجينيس أعظم مفكرى المسيحية فى عصره ، وقد نشأ أسكندرياً مسيحياً ، ورأى وهو فى سن السابعة عشرة والده يستشهد أثناء اضطهاد سفيروس ، وفى فورة الانفعال أراد أن يلحق بوالده لولا حيلة من والدته التى أخفت ملابسه . ولقد كان الاضطهاد شديداً على المدرسة فلم يترك أحداً من أفرادها سوى أوريجينيس ،

E. R. Hardy, Christian Egypt :
Church and People (1952).

(١) عن المسيحية فى مصر أنظر

فاضطر الأسقف ديمتريوس - رئيس المسيحيين في مصر آنذاك - أن يعينه في العام التالي وهو في سن الثامنة عشرة رئيساً للمدرسة خليفة لكيمينس . ولقد كان أوريجينيس صاحب دراسة فلسفية عميقة وشديد التأثير بالفنوسية إلى جانب دراسة عظيمة باللغة العبرية والتوراة ، حتى أنه قام بدراسة مقارنة بين النص العبري والاص اليوناني في الترجمة السبعينية عندما لاحظ اختلافا بين النصين ولقد اكتسب أوريجينيس شهرة عظيمة بين المسيحيين في عصره حتى أنه كان يدعى ليحل مشاكلهم حينما كانوا يختلفون حول قضية دينية . وقد اكتشفت أخيراً بردية تتضمن محاورات لأوريجينيس مع بعض قادة الحركة المسيحية حول الأب والإبن والروح القدس ^(١) . ومن الغريب أن أوريجينيس قد نجا من الاضطهاد أثناء توليه الأستاذية رغم أن عددا من تلاميذه لا قوا الموت مسة شهدين ، علما بأنه كان يلزم الشهداء حتى ساعة الاستشهاد الأخيرة ، في وجه غضب الجماهير من الوثنيين . على أى حال بقى أوريجينيس حتى عام ٢٣٢م . ولكن يبدو أن اتجاهه الفلسفى قد أوقعه في خلاف مع رجال الدين الآخرين وعلى رأسهم الأسقف ديمتريوس . فاضطر أوريجينيس أن يترك الأسكندرية ويذهب إلى فلسطين حيث أكمل دراسته للكتاب المقدس . وكان لطريقته تأثير كبير في بلاد الشام ، حتى ليكن أن يقال إن له الفضل الكبير في إنشاء المدرسة المسيحية في أنطاكية . وقد بقى في تلك البقاع في سنة ٢٥٣ في مدينة صور في بعض حركات الاضطهاد التي حدثت آنذاك ، كما سيأتى فيما بعد .

فالمسيحية إذن دخلت الأسكندرية وأصبح لها هناك حركة قوية ، وفي نفس الوقت انتشرت أيضاً إلى أنحاء القطر المصرى وكانت الجماعات المسيحية المحلية

(١) J. Scherer, Entretien d'Origène avec Heraclide et les évêques ses collègues sur le Père, le Fils, et l'âme, Cairo (1949) .

على اتصال مستمر بالحركة المسيحية بالأسكندرية والتي كانت بدورها واسطة الاتصال مع المسيحية العالمية في الخارج. هذا الاتصال بين مراكز الحركة المسيحية تكشفه لنا بردية طريقة ترجع إلى عام ٢٦٤ — ٢٨٢ ميلادية^(١)، وهي تحتوي على خطاب كتبه شخص له مكانته فيما يبدو ويؤرخه من روما، ويبحث به إلى جماعة المسيحيين إلى منطقة الفيوم وهو يخاطبهم بلفظ «إخواني» التي تعتبر تعبيراً مسيحياً جديداً في لغة الخطابات في ذلك الوقت، ويطلب إليهم أن يجمعوا مبلغاً من المال ويرسله إلى الأسكندرية حتى يمكن أن يجده في انتظاره حين يصل إلى المدينة. وفي الخطاب إشارة إلى البابا «ماكسيموس» الذي كان أسقفاً في الأسكندرية، هذا الخطاب له طرافته، إذ أنه يبين نوعاً من التعاون بين الهيئات المسيحية الأولى سواء محلياً أو على نطاق عالمي. ولا غرو فقد كانت الحركة في الأسكندرية بمثابة رأس الحركة في القطر كله، وحين قامت الكنيسة في الأسكندرية كانت كنائس الأقاليم تابعة لها. وهذا واضح أيضاً من الخطاب، فالإشارة إلى أسقف الأسكندرية بلقب «بابا» يدل على أنه في ذلك الوقت كان رئيساً لجميع المسيحيين في مصر. ومن الطريف أن نذكر هنا أن لقب «بابا» أطلق أول مرة على أسقف الأسكندرية هرقليس (٢٣٢ — ٢٤٩) قبل أن يطلق على رأس الكنيسة في روما ذاتها.^(٢)

ولكن رغم هذا النشاط الجهم ورغم وجود المدرسة ورئيس للمسيحيين في الأسكندرية ومصر يدين له الجميع بالولاء والطاعة، لم تكن حياة المسيحيين سهلة هينة. فلقد كانت حياتهم حلقات من الخوف والتعرض لأشد أنواع الإيذاء

The Amherst Papyri, I. 3.

(١)

Eusebius, Hist. Ecclesiastica. VII. 754.

(٢)

والاضطهاد على يد السلطات الرومانية . وقد يعجب القارئ لتعمد الرومان اضطهاد المسيحيين ، في حين عرف عن الحكومة الرومانية التسامح الديني تجاه الديانات القديمة جميعاً . ولكن الرومان تسامحوا طالما كانت الأديان لا تكون خطراً اجتماعياً أو سياسياً ، وكانت المسيحية في ذلك خطراً سياسياً لا تقبل التمايش مع أى عبادة أخرى ، ومن العبادات القديمة عبادة الإمبراطور . فالمسيحية بدعوها إلى التوحيد كانت تسلب الإمبراطور صفته المقدسة وهى من أزم مقومات سلطاته وخاصة في امبراطورية معقدة التركيب كالإمبراطورية الرومانية . ولذلك تعقبت السلطات الرومانية المسيحيين بالاضطهاد منذ تاريخ مبكر في روما ، ولكن أول اضطهاد منظم ضد المسيحيين في مصر حدث عام ٢٠٣. زمن الإمبراطور سيفيروس ، قد سبقت الإشارة إليه . والاضطهاد الثانى الكبير حدث في منتصف القرن الثالث زمن الإمبراطور ديكْيوس حين تمت محاولة منظمة لإبادة المسيحية نهائياً في الإمبراطورية الرومانية ، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا من لجنة عينت لهذا الأمر خاصة شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يضحون للآلهة^(١) أمام هذه الحملة الفاشمة تزعزع ثبات بعض المسيحيين ، فشاركوا في التضحيات الوثنية اتقاء للعذاب . وقد كان مسلك هؤلاء موضع خلاف كبير بين المسيحيين فيما يتعلق بتوبتهم بعد ذلك . ولكن بعضاً آخر من الرجال والنساء واجه الاضطهاد بثبات ، وتحمل العذاب المرير من ضرب بالعصى وسمل للعين وجرف فوق حصى الشوارع إلى خارج المدينة . ومن لقي حتفهم في هذا الاضطهاد العالم المسيحي الكبير أوريجين متأثراً بآثار العذاب في مدينة صور ، كما ذكرنا من قبل .

على أى حال بعد ديكْيوس أوقف الإمبراطور جالينوس اضطهاد المسيحيين

وسمح لهم بحرية العبادة ، وهكذا استطاع المسيحيون لأول مرة أن يبنوا كنيسة لهم. وأول ذكر لكنيسة مصرية يوجد في بردية من البهنسا في سنة ٣٠٠^(١). أما عن تاريخ المسيحية بعد ذلك فيقع في الفترة التاريخية التالية التي تبدأ بعصر دقلديانوس ، وفيها تنتصر المسيحية نهائياً ، وتصبح سيدة الدولة والسياسة في المجتمع الجديد بعد أن كانت طريديتهما في المجتمع القديم .

البَابُ الثَّالِثُ
مَصْرِفِي الْعَصْرِ الْبِيزَنْطِي
(٢٨٤ — ٦٤٠ م.)

الفصل الثامن

الدولة والدين في مصر البيزنطية

دقلديانوس (٢٨٤ — ٣٠٥ م)

انتهت الحروب الأهلية والانقسامات العسكرية المتوالية التي شغلت معظم سنى القرن الثالث والتي تركت الامبراطورية الرومانية منقسمة الأوصال تعبت فيها القوضى والاضطرابات دون سلطة مركزية يحسب لها حساب باستيلاء دقلديانوس على الحكم . وكان هذا الإمبراطور يشبه فئة الأباطرة فى الفترة الأخيرة فى بعض الجوانب ، ويختلف عنهم كل الاختلاف فى جوانب أخرى ، مثلهم من حيث أنه جندى فى الجيش الرومانى من أصل متواضع وتمكن من الوصول إلى منصب رفيع فى الجيش ؛ ومثلهم أيضاً من حيث أنه توصل إلى السلطة عن طريق الجيش والمؤامرة والحرب الأهلية . ولكنه يختلف عنهم فى أنه كان شخصية قوية ذا مواهب فذة فى الإدارة والحكم بالرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً عظيماً ، وكثيراً ما عهد بقيادة الجيوش إلى غيره من أعوانه الضباط . وبالرغم من أنه شخصية محافظة إلى أبعد حدود المحافظة ، وخاصة من الناحية الدينية ، ولكنه كرس نفسه لمهمة أعجزت من سبقه من الأباطرة وهى وقف الإمبراطورية الرومانية من الانزلاق إلى هوة التدهور والقوضى التي كانت مندفعة إليها . وفى قيامه بهذا العمل لم ينظر إلى أمام بقدر ما نظر إلى خلف ، فهو لم يعتبر نفسه واضع أسس نظام وعهد جديد ، وإنما اعتقد أنه يعمل ليعيد

المراتب إلى سابق شأنها. وما يكن النظام القديم كان في تلك تلكه أنظاره الأخيرة قبل أن يأتي دقلديانوس إلى الحكم، ولهذا حين تصدى هذا الإمبراطور للإصلاح لم يجد بداً من وضع قواعد ونظام وقوانين جديدة ظلت أساس الإدارة والحكم في الإمبراطورية طيلة القرون الثلاثة التالية حتى زمن الإمبراطور جستنيان في القرن السادس. فلا نرو إذن إذا اعتبر المؤرخون المحدثون عصر دقلديانوس هو نقطة التحول في التاريخ القديم من عصر الإمبراطورية الرومانية إلى العصر البيزنطي والعصر المتأخر من الإمبراطورية الرومانية^(١).

ومن أهم إصلاحاته التي تأثرت بها مصر أنه فصل بين السلطين المدنية والعسكرية في الولايات، وبعد ذلك قسم الولايات الكبرى إلى عدد من الولايات الصغرى ليخفف عن كاهل الإدارة المركزية. فانقسمت مصر إلى ثلاث ولايات نتيجة لذلك (وسوف نتحدث عن هذا التنظيم الإداري بمزيد من التفصيل في فصل مستقل). أما في مجال المالية والاقتصاد فقد حاول دقلديانوس إصلاح نظام العملة بإصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالإضافة إلى الدينار البرنزي القديم بعد أن أدخل على وزنه بعض التعديل بما يرضى والنظام الجديد للعملة الذي كان الهدف الأساسي منه هو منع تدهور قيمة العملة الذي ساد في القرن الثالث. ثم أتبع ذلك بإصدار قائمة تحدد أسعار السلع الضرورية في أنحاء الإمبراطورية. وحين قاوم التجار هذه التشريعات حاول تطبيقها بقسوة بالغة، ولكنه فشل أيضاً واختفت السلعة من الأسواق حتى اضطرت الحكومة إلى تخفيف الأمر كلياً. ولكن دقلديانوس كان أكثر توفيقاً في محاولته إصلاح نظام الضرائب. فحسب منهجه في توحيد نظم الإمبراطورية أخضع جميع الولايات

(١) جميع كتب التاريخ التي تتالع هذا العصر تتحدث عن دقلديانوس وإصلاحاته، ولكن أنظر بصفة خاصة: W. Ensslin, The Reforms of Diocletian, in Cambridge Ancient History, vol. XII, pp. 383 ff

لنظام ضرائبي جديد بدلا من النظم المتعددة المختلفة التي كانت متبعة من قبل . ويتلخص النظام الجديد في أبسط صورة في فرض ضريبة مزدوجة جديدة على الأفراد والأرض بقدر متساو في كل أنحاء الإمبراطورية . ولكن نظراً لأن القيمة النوعية للأرض تختلف حسب خصوبتها والغلة التي تنتجها فقد وضعت قواعد دقيقة لمراعاة ذلك ، بحيث أن بعاتين الفاكهة ومزارع الزيتون كانت تقدر عليها ضريبة أكثر من أرض الحبوب أو المراعي وهكذا . وقد أمكن تنفيذ هذه السياسة الجديدة عن طريق إجراء إحصاءات للأفراد ومسح للأراضي في فترات متقاربة (كانت وحدة قياس الأرض في النظام الجديد هي اليوجوم Iugum وهي تعادل نصف فدان أو أقل قليلاً) .

ولكن مهمة دقلديانوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة ، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية المترامية ضد غزوات المتبربرين من كل جانب ، ثم أن يقمع أي مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته ، ثم أخيراً أن يخمّد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع العقائد الدينية التي ألفتها الإمبراطورية حكومة وشعباً من قديم ، ونقصد بالدين الجديد المسيحية . ولقد تمثلت هذه العناصر الثلاثة في مصر في ذلك الوقت ، فكانت حدود مصر الجنوبية تعاني من هجمات القبائل المعروفة باسم Blemyes جنوب مصر ، وقد عالج دقلديانوس هذا الخطر بأن اشترى سلامهم بالمال ، ثم أقام قبيلة قوية من النوبيين على حدود مصر الجنوبية لتتكفل بحماية الحدود ضد أي خطر واتفق معهم على أن يمدّم سنوياً بإعانة مالية مناسبة . ولكن ذلك لم يؤمن مصر ، فسرعان ما ظهر خطر آخر أشد في داخل البلاد ، إذ استطاع أحد القواد الرومان دومتيانوس (Lucius Domitius Domitianus) والذي اشتهر في الأسكندرية باسم أخيليوس Achillens ، من الثورة ضد الإمبراطور الجديد وأعلن نفسه إمبراطوراً في الأسكندرية . تمثل هذه الثورة

بالنسبة لدقلديانوس خطراً حقيقياً ، نظراً لأنها تهدف إلى إيجاد إمبراطور جديد أولاً ، وأنها تتخذ مصر مركزاً لها ، وفي ذلك تهديد صريح يمنع إرسال القمح إلى روما . ويكفى للدلالة على خطورة هذه الثورة أن دقلديانوس حضر بشخصه في الحال إلى الأسكندرية وقع الثورة بعد حصار المدينة مدة ثمانية أشهر وتدمير أجزاء كثيرة منها . ويبدو أن الحالة في المدينة كانت سيئة جداً ، حتى أن الإمبراطور أمر بتوزيع جزء من القمح المرسل إلى روما بين الأسكندريين . ومن المحتمل أن أهل الأسكندرية أظهروا سعادتهم بهذه المنحة من الإمبراطور بأن أقاموا له ذلك العامود الضخم المعروف باسم عامود بومبي ، ولا يزال موجوداً بالمدينة .

بعد القضاء على هذه الثورة أمكن تطبيق السياسة والنظم الجديدة في مصر ، ومن بين محاولات دقلديانوس في إعادة تنظيم وبناء الإمبراطورية على أساس متجانس يبعد عنها الاختلافات والانقسامات ، حتى ولو كانت اختلافات في الرأي أو العقيدة ، هي القضاء على الحركة المسيحية النامية في ذلك الوقت . فبالرغم من أن المسيحية أساساً دعوة دينية مجردة بمسألة عن السياسة كل البعد ، إلا أنها بدعوته إلى نبد الآلهة القديمة جميعاً كانت تهدم ركناً أساسياً من أركان البناء الذي تقوم عليه الإمبراطورية خاصة وأن رفض العبادات القديمة كان معناه رفض قدسية شخص الإمبراطور . من أجل ذلك اعتبرت المسيحية في عصرها الأول على أنها حركة مناهضة للنظام الإمبراطوري المتوارث . فإذا كان الأباطرة السابقون قد ضاقوا بالمسيحيين ، فمن المتوقع ألا يقف دقلديانوس بسياسته التي تؤمن بوحدة التنظيم ووحدة الهدف في البناء الإمبراطوري مكتوف الأيدي من هذه المشكلة أيضاً وكما فعل في مجال إصلاح الإدارة والاقتصاد عن طريق وضع مبادئ ونظم جديدة ، كذلك حاول إصلاح الحالة الدينية بوضع مبدأ ديني جديد . هذا المبدأ الجديد هو زيادة

الصفحة المقدسة لشخص الإمبراطور ، وأطلق على نفسه لقب جيوفوس (Jovius) ومعناها مثل جوبيتر ، كبير الآلهة ، على الأرض . ومع ذلك فلم يسارع الى الاضطهاد بل بقي فترة طويلة من حكمه تبلغ عشرين عاماً تقريباً يؤكد مركزه على رأس الدولة ، دون أن يتعرض للمسيحيين بأذى كبير ، حتى إذا كان عام ٢٩٨ قام بمحاولة محدودة لتطهير الإدارة والجيش من المسيحيين ، بينما كان يستعد لحرب الفرس ، ولكن في سنة ٣٠٣ نجد دقلديانوس ييأس من الوسائل السلمية في حل مشكلة الانقسام الديني في الإمبراطورية ، ويبدأ أقصى اضطهاد عرفه المسيحيون . فصدرت الأوامر الإمبراطورية تقضى بجمع نسخ الكتاب المقدس لحرقها وتدمير الكنائس ومنع المسيحيين من الاجتماع والعبادة . وقد نفذت هذه الأوامر الإمبراطورية بقسوة بالغة في كثير من الأحيان ، واستمرت نحواً من عشر سنوات ، أي ثمانى سنوات بعد اعتزال دقلديانوس الحكم . ونظراً لأن حاكم مصر في ذلك الوقت كان من الحزب المتطرف في مقاومته وكرهيته للمسيحيين فقد كان الاضطهاد في مصر أشد قسوة من بعض الولايات الأخرى ، وراح ضحيته ألوف كثيرة من شتى الطبقات والمدن ^(١) .

قسطنطين (٣٢٣ — ٣٣٧) :

استمر اضطهاد المسيحيين على أيدي الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس ، حتى إذا كان عام ٣٢٣ نجح قسطنطين في تولي الحكم وأصبح أول إمبراطور مسيحي للإمبراطورية الرومانية ^(٢) . وكان أول عمل قام به هذا الإمبراطور

(١) أنظر وصف بوسيديوس عن الاضطهاد في مصر

Eusebius: Hist. Eccles. VIII. 8.

(٢) أنظر عن قسطنطين وعصره كتاب A. H. M. Jones, Constantine and

The Conversion of Europe, London, 1948.

هر الاعتراف الرسمي بالمسيحية ، وبذلك بدأت عهداً وتاريخاً جديداً يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة . فنذ ذلك الوقت بدأ المسيحيون يعملون في حرية واطمئنان ، وكان لذلك نتائج السينة أيضاً . ففي عصر الخوف والترقب السابق لم يجرؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم في الرأي ، لأنهم في ذلك الوقت كانوا في أشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أودى أى انقسام بينهم بالحركة كلها . ولم يكن معنى ذلك أنه لم توجد بين المسيحيين خلافات في الرأي قبل قسطنطين ، بل وجدت هذه الخلافات ، وقد أشرنا إلى الخلاف بين أروميينيس والكنيسة في الأسكندرية وإلى انقسام رأى الكنيسة بشأن المرتدين في عصر الاضطهاد . ولكن الميحيين في ذلك الوقت كانوا يبقون هذه الانقسامات في أضيق نطاق ممكن ، دون أن تتحول إلى خلافات جماعية . ولكن ما أن أمن المسيحيون على أنفسهم من الاضطهاد وضمنوا الدولة إلى جانبهم حتى وجدناهم يظهرون ما كانوا يضمرون من التشيع والانقسام ويهمننا من ذلك انقسامان حدثا في مصر . الأول وهو ظهور الدعوة الأريوسية في الإسكندرية ، والثاني هو موقف مليتيوس من المرتدين في عصر الاضطهاد .

أما عن الدعوة الأريوسية فهي نسبة إلى أريوس (Arius) الذي كان من أصل لبيبي وتعلم في أنطاكية وأصبح أحد رجال الكنيسة في الأسكندرية . ويبدو أنه كان على جانب كبير من الطموح وقوة الشخصية وحدة العقل ؛ ونظراً لتعلمه في مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت تسود فيها فلسفة أوريجينيس الدينية التي كانت مشبعة بالفلسفة الأفلاطونية ، فقد بقي محافظاً على تعاليم هذه المدرسة وأخذ يطبقها ويمارسها في الأسكندرية بصورة متطرفة . وسرعان ما صاغ آراء مستقلة في العقيدة المسيحية تختلف عن العقائد السائدة ، مما أوقعه في صدام عنيف مع أسقف كنيسة الأسكندرية في ذلك الوقت المسمى إسكندر . وتتلخص عقيدة

أريوس في أنه ابتداء بموقف أفلاطوني وهو أن الإله وجود دائم ولا يمكن إدراكه ؛ ثم استنتج من ذلك نتيجة منطقية في أن « الإبن » لا يمكن أن يكون إلهاً بنفس المعنى ، ولذلك يلزم منطقياً أن وجوده كان لاحقاً لوجود الإله ، وبعبارة أخرى أن « الإبن » له بداية ، في حين أن الإله « الأب » قديم ودائم . وأخيراً بما أن الإله « الأب » ، لا يقبل الانقسام فلا بد أن « الإبن » خلق من العدم . مثل هذه الآراء صدمت كثيرين من رجال الكنيسة في الأسكندرية الذين كانوا يعتقدون أن الإبن مثل الأب قديم دائم وأنهما من طبيعة واحدة ؛ وقد تمحرج الموقف كثيراً نتيجة لذلك حتى اضطر الأسقف اسكندر إلى عقد مجمع من القساوسة في مصر وليبيا وأصدروا استنكاراً لعقيدة أريوس وأعلنوا حرمانه وأتباعه من الكنيسة . ولكن خطر دعوة أريوس لم يقتصر على مصر بل انتشر خارجها في فلسطين وليبيا وآسيا الصغرى . ولم يمكث اسكندر مكتوف الأيدي بل راح يعمل بنشاط جم بين أساقفة الكنائس في الولايات الشرقية يحضهم على مقاومة دعوة أريوس في مناطقهم بكل قوة . في ذلك الوقت حاول قسطنطين أن يتدخل في الأمر ويصالح بين أريوس واسكندر بدون جدوى فقرر عقد مجمع ديني عالمي يشترك فيه أساقفة الكنائس المختلفة في الشرق والغرب لوضع حد للانقسامات العقائدية التي انتشرت في ذلك الوقت ، وأرسلت الدعوة للاجتماع في نيقيا في آسيا الصغرى في سنة ٣٢٥ .

أما عن المسألة الثانية وهي موقف ميلتيوس من معاملة الكنيسة للمرتدين فتتلخص في أن ميلتيوس كان يدعو إلى اتخاذ موقف متطرف متزمت من الذين ضعفوا أمام الاضطهاد وارتدوا عن المسيحية ، في حين أن الأسقف اسكندر كان يؤثر مواءمة ساحماً ، يبيع العفو بعد التوبة^(١) . ورغم عدم

(١) أنظر Bell, Jews and Christians in Egypt, pp. 38 ff.

خطورة موضوع الانقسام وبقائه مصرياً إلا أن ميليتيوس كان بعيداً متصباً ، فلم يتزحزح عن آرائه قيد أنملة ، وشجعه على ذلك كثرة أتباعه ، حتى انحرته الكنيسة المصرية إلى نفيه إلى فلسطين . وقد بلغ به التصب أنه بنى له ولأتباعه كنيسة خاصة أطلقوا عليها اسم كنيسة الشهداء حتى لا يشاركوا المسيحيين الآخرين كنيسة الكاثوليكية . ورفع الأمر إلى قسطنطين الذي قرر عرضه على مجمع نيقيا أيضاً .

وانعقد مجمع نيقيا في سنة ٣٢٥ وشهد القساوسة من جميع أطراف الإمبراطورية ، ورأس الإمبراطور نفسه المجمع وشهد كثيراً من الجلسات وأشرف على إدارة المناقشات . وبالرغم من أن المجمع تناول كثيراً من مشاكل المسيحية في ذلك الوقت إلا أن الخلاف بشأن العقيدة الأريوسية كان المشكلة الأساسية التي واجهها المجمع ، ولذلك شغل بأمر الوصول إلى صياغة العقيدة المسيحية يمكن أن يقبلها المسيحيون من الفرق المختلفة . وفي المرحلة الأولى من المناقشة حاول أتباع مذهب أريوس اقتراح عقيدة ولكنها رفضت بأغلبية ساحقة ، وبعد مناقشات طويلة أمكن الوصول إلى صياغة عقيدة تتضمن المبادئ المسيحية الأساسية التي يقبلها الجميع ، ووضعت في ألفاظ لا تثير الاختلافات المذهبية . ولكن بعد أن أقر المجمع هذه الصيغة اقترح قسطنطين إضافة لفظ واحد يصف العلاقة بين الأب والإبن بأنهما من طبيعة واحدة (homoousion) .

وتعتبر إضافة هذا اللفظ مجاملة كبرى من الإمبراطور للأكثرية التي رفضت عقيدة أريوس ، لأن قسطنطين كان يحرص في الواقع على كسب ولاء الأكثرية قبل التفكير في مناصرة مذهبهم الديني . ولقد قبله أكثر الحاضرين بما فيهم أتباع مذهب أريوس ، ولم يعترض على هذا القرار سوى اثنين من أتباع أريوس المخلصين ، فأصدر المجمع في الحال قراره بحرمانهما مع ~~أريوس~~ .

نفسه من الكنيسة كما أصدر الإمبراطور أمره بطردهم من مصر .

أما فيما يتعلق بفتنة ميليتيوس فقد صدر قرار طابعه الرحمة والسعى إلى الصلح بين الطرفين ، ونحوه أن يحافظ ميليتيوس على لقبه الديني ، دون أن يمارس عمله في الكنيسة ، ولكن سمح لأتباعه من رجال الدين أن يهودوا إلى عملهم في الكنيسة بعد قبول الأسقف اسكندر لهم ^(١) .

ولكن رغم الإجماع والسياسة الموحدة التي ظهرت في مجمع نيقيا ، فإنه لم يضع الحل النهائي للشكا كل التي واجهها ، فالأريوسية لم تمت بنفى زعيمها ، والانقسام الميلينيوسي لم يربأ باقتراح ذلك الصلح الساذج .

وقد أدرك الإمبراطور قسطنطين ذلك في الحال فسمى إلى استكمال وحدة الكلمة عن طريق إصدار عفو عن أريوس ، وأمر بإعادته إلى منصبه في الأسكندرية . ولكن اسكندر أسقف الأسكندرية رفض إجابة طلب الإمبراطور .

وبذلك بدأ خلاف عنيف بين كنيسة الأسكندرية والقصر الإمبراطوري في القسطنطينية ، واتسم موقف مصر في هذا الخلاف بالطابع الديني والسياسي في وقت واحد ، ويتضح المظهر السياسي بجملاء في أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى شرقية وغربية في القسطنطينية وروما ، تتحسن العلاقات بين الأسكندرية وروما بقدر ما تسوء مع القسطنطينية . ولقد اكتسبت كنيسة الأسكندرية أهمية عالمية لا يشابهها في ذلك سوى كنيسة روما ذاتها . وكان لشخصية أثناسيوس ، الذي خلف اسكندر أسقفاً في سنة ٣٢٨ ، تأثير كبير على نمو الكنيسة المصرية في هذه الفترة . فقد منح أثناسيوس من طول

(١) هناك عرض قيم لجميع نيقيا في كتاب Jones, Constantine, pp. 152—171

العمر وقوة الشخصية وذكاء العقل ما مكّنه من السيطرة على الكنيسة المصرية زهاء نصف قرن من الزمان .

وفي هذه السنين الطويلة واجه الأباطرة في القسطنطينية الواحد بعد الآخر وتحمل النفي مرة بعد أخرى في غناء وشدة مراس جعلت منه زعيماً شعبياً وليس مجرد أسقف للكنيسة ^(١) .

ويبدأ الخلاف بين أنثاسيوس وقسطنطين أول الأمر بسبب مسألة أريوس، إذ يتخذ أنثاسيوس موقفاً شبيهاً بموقف سلة، وبصر على رفض أمر الإمبراطور بإعادة أريوس إلى كنيسة الأسكندرية . وبعد تكرار المحاولات يمتد الإمبراطور بحمماً دينياً في مدينة صور سنة ٣٣٥ لحاكم أنثاسيوس الذي كملت له تهم مختلفة لا تقتصر على موقفه من أريوس والإمبراطور وإنما بعضها ذات طابع سياسي مثل استخدام القوة في معاملة أتباع ميليتيوس والتدخل في تعطيل إبحار القمح المصري الذي كان يرسل إلى القسطنطينية كل عام ، ثم تأييده ثورة قامت ضد الإمبراطور في مصر قادها شخص يدعى فيلومينوس سنة ٣٣٥ . ويقرر مجمع صور عزل أنثاسيوس من منصبه ، ويلحق الإمبراطور ذلك بأمر نفيه من مصر . ويذهب أنثاسيوس إلى بلاد الغالة أي إلى القسم الغربي من الإمبراطورية .

ولكن ما أن يتوفى الإمبراطور قسطنطين في عام ٣٣٧ حتى يعود أنثاسيوس إلى الأسكندرية ، ويقاوم عودته أتباع أريوس وميليتيوس أشد المقاومة ، ولكنه يتمكن من القضاء على مقاومتهم عن طريق إحضار جماعات من الرهبان بزعماء أنطون الراهب إلى الأسكندرية ، وينجح في تولى مقاليد الكنيسة من جديد . ولكن الأمر لا يستقيم له طويلاً ، فإن الإمبراطور الجديد في الشرق ، قسطنطيوس الثاني يضيق

(١) أنظر عرضاً لشخصية أنثاسيوس في كتاب :

Hardy, Christian Egypt, pp 47—78.

بهذا الأسقف الخليل ويصدر أمراً بطرده وأتباعه من الكنيسة في سنة ٣٤٦ .
وقد وجه إلى أنطاسيوس اتهام آخر وهو أنه باع القمح الذي منعه الإمبراطور
للكنيسة لتوزيعه مجاناً بين المحتاجين . ويبدو أن هذا الاتهام لم يكن خالياً من
بعض الصدق ، لأن أنطاسيوس كتب مرسلاً بأنه وزع بمض القمح على مستحقيه
مجاناً وأنه لم يبع القمح كله . على أى حال لم ينتظر أنطاسيوس إلى أن يلقى القبض
عليه بل فر إلى روما حيث كان يثق في مناصرة البسا وإمبراطور الغرب له .
وفعلاً يتقبله أولوا الأمر في روما بالترحاب ويساعده إمبراطور الغرب على العودة
إلى الأسكندرية ، وينجح مسعاه . في سنة ٣٤٦ . وبذلك ينتهى فترة نفى
أنطاسيوس الثانية ويعود إلى الأسكندرية . وتبدأ أجد فترة في تاريخ رياسته
لكنيسة الأسكندرية التي تستمر عشرة أعوام . وفي هذه الأعوام العشرة يعمل
أنطاسيوس على توطيد مركزه في مصر ومحارب الأريوسية التي كان قد استشرى
أمرها في البلاد في فترة نفه . وفي هذه الفترة نمت الكنيسة المصرية
نمواً كبيراً وتمددت حدود مصر ، فأنشأت كنيسة في إثيوبيا فرعاً من كنيسة
الأسكندرية .

وكان المسيحيون في هذه الأثناء منذ عصر قسطنطين قد دمروا كثيراً من
المعابد الوثنية أو حولوها كنائس . وكان ذلك يتم برضاء السلطات الرسمية وبأمرها
أحياناً . ومن أشهر ماتم في هذا المجال هو قرا الإمبراطور بإعادة بناء معبد
القيصرون وتحويله إلى كنيسة بالأسكندرية ، وكان ذلك في أثناء هذه السنين
العشرة لأنطاسيوس ، ويبدو أن أسقف الأسكندرية تعجل الأمام ولم يفتقر
حتى يتم بناء القيصرون ، بل أقام الصلاة فيه قبل إتمامه نظراً لاتساعه . ويبدو
أن الإمبراطور لم يكن راضياً عن زيادة نفوذ أنطاسيوس ، فاتهز فرصة إقامته
الصلاة في الكنيسة الجديدة دون إذنه ، فاعتبر ذلك تمديداً من أسقف الأسكندرية
على امتيازات الإمبراطور . وكان إمبراطور روما الذي يعطف على أنطاسيوس

قد توفي ذلك الوقت وأصبح قسطنطينوس إمبراطوراً مفرداً في الإمبراطورية بقسميها الشرقى الغربى ، فقرر التخلص من أنناسيوس وأرسل قوة مسلحة لإلقاء القبض عليه في سنة ٣٥٦ ، ولكنه تمكن من الفرار واختفى بما يشبه المعجزة . وظل مختفياً فترة تعتبر بمثابة نفيه الثالث ، ولكن في هذه المرة لم يترك مصر بل اختفى بين الرهبان المصريين متنقلاً بين الأديرة المختلفة التي كانت منتشرة في ذلك الوقت سواء في الصعيد أو في صحراء مصر الغربية . وقد حاول أنناسيوس أن يعود الى كنيسه مرة ثانية في عهد الإمبراطور الجديد يوليانيوس (٣٦١-٣٦٣) ولكنه فشل وأصدر الإمبراطور قراراً بنفيه من الأسكندرية ، فاضطر أنناسيوس إلى أن يختفى ثانية بين الرهبان . وفي عام ٣٦٣ - ٣٦٤ تولى العرش في القسطنطينية إمبراطور مؤيد لأنناسيوس ، فعفى عنه وأعادته إلى كرسية في كنيسه الأسكندرية .

ورغم تغير الإمبراطور في القسطنطينية وتولى فالنس Valens الحكم في التالى العام (٣٦٤ - ٣٧٨) وكان موالياً للحركة الأريوسية ، إلا أن أنناسيوس تمكن بفضل شعبيته الكبيرة بين المصريين صوماً من البقاء في أسقفيته حتى وفاته سنة ٣٧٣ .

بعد وفاة أنناسيوس خلفه أحد زملائه القدماء ، ويدعى بطرس ، ولكن الإمبراطور فالنس الذى كان متشككاً للأريوسية أراد أن ينتهز فرصة موت أنناسيوس ويعين أسقفاً أريوسياً ، ولذلك لم يعترف ببطرس وعين لقيوس Lucius ، وأقامه في أسقفية الأسكندرية بقوة السلاح حتى أن بطرس لجأ إلى الفرار إلى روما .

وتمثل أسقفية لقيوس آخر محاولة أريوسية للسيطرة على كنيسة مصر ، وقد تميزت أيامه ببعض الأحداث ذات الأهمية التاريخية . فراح ينتقم من أتباع

أثناسيوس ويشكل بهم وخاصة بين رهبان الصحراء الغربية بالقرب من
الأسكندرية . ولكن صاحب حركة اضطهاد الرهبان صدور قرارات من
الإمبراطور تلقى ضوءاً على الحياة العامة في مصر في هذه الفترة . ذلك أن بعض
الأثرياء الذين تقع عليهم مسئولية تولى الوظائف العامة . انتهزوا فرصة انتشار
حركة الرهبة وانضموا إلى صفوفها تاركين الحياة في المدينة علمهم بذلك يتجنبون
مسئولية تولى الوظائف العامة التي كانت تكلفهم مبالغ كثيرة دون فائدة تذكر
في تلك الأيام . وقد أضر هذا الاتجاه بالنظام الإداري في مصر أياما ضرر . فأصدر
الإمبراطور قراراً يقضى بأنه يجب على الأثرياء من المواطنين الذين يهجرون
المدن بدعوى الانضمام إلى صفوف الرهبان أن يعودوا ثانية أو أن يسلموا جميع
ممتلكاتهم للدولة .

ولكن إجراءات الدولة لم تمنع أفراداً من كل الطبقات أن يتركوا
مواطنهم ويذهبوا إلى الأديرة ، مما أخذ يؤثر على حركة التجنيد للجيش ،
فاضطر الإمبراطور إلى إصدار أوامره بتجنيد القادرين من الرهبان للخدمة في
الجيش الروماني . فعلا ذهبت قوات عسكرية إلى الأديرة في الصحراء الغربية ،
فاعتقلوا من اعتقلوا وقتلوا من قاوم ، كما نفت الدولة عدداً من رؤسائهم . كل
ذلك أدى إلى ثورة الأهالي والرهبان على الأسقف الأريوسي ، حتى أنه اضطر
إلى الفرار إلى القسطنطينية ؛ في حين تمكن بطرس الذي كان منفياً في روما من
العودة إلى الأسكندرية (في عام ٣٧٥ أو ٣٧٦) .

بعد ذلك تولى الحكم في القسطنطينية إمبراطور جديد هو نيودوسيوس
(٣٧٩ - ٣٩٥) ، وأراد أن يعالج المشاكل الدينية في الإمبراطورية بطريقة
تظهر بساطة تفكيره وأنه لم يعرف مدى عمق هذه الانقسامات . فابتدأ بأن أعلن
ضرورة تعميم عقيدة مجمع نيقيا في كل الكنائس ، ثم أكد ذلك الإعلان بأن عقد

مهماً في القسطنطينية دون أن يشهد ممثلون عن الكنيسة المصرية خطأ فيه خطوة جديدة نحو زيادة أهمية عاصمته من الناحية الدينية ، فأعلن أن كنيسة القسطنطينية يجب أن يكون لها مكان الشرف التالى لكنيسة روما لأن القسطنطينية كانت « روما الجديدة » معنى ذلك أن الأسكندرية فقدت مركزها ككثافي كنيسة بعد روما . ثم أصدر المجمع قراراً آخر يقضى بأن تقتصر كل كنيسة على الإقليم الذى تقع فيه ، وهذا معنى أيضاً أن تقتصر كنيسة الأسكندرية على مصر بعد أن كان لها نشاط خارجى ملحوظ . هذه القرارات لم يكن لها رد فعل مباشر فى مصر ، ولكنه سيظهر بمرور قليل ، والسبب فى ذلك هو أن الإمبراطور الجديد شغل الكنائس جميعاً والإدارة الإمبراطورية فى أمر القضاء على الوثنية فى أرجاء الإمبراطورية . وفى مصر تولى أسقف الأسكندرية فى ذلك الوقت وهو ثيوفيلوس مهمة تنفيذ هذه السياسة ، التى نفذها بكل قسوة ووحشية . ولما كان معبد السرابيوم فى الأسكندرية من أشهر معابد الوثنية القديمة ، وكثيراً ما احتفى به الوثنيون . لذلك استعان ثيوفيلوس بالسلطات العامة فى المدينة وهاجم المهد ومن فيه . فدمر للمبد والمكتبة الكبيرة التى كانت ملحقة به . وفى أثناء هذه المهمة فر كثير من رجال العلم والفلسفة الذين كانوا يشرفون على مدارس الأسكندرية ، نظراً لأنها كانت مركزاً للفكر الوثنى . بعد ذلك تحول ثيوفيلوس إلى اضطهاد خصومه فى الزمى من رهبان الصحراء الغربية مستخدماً فى ذلك قوة من الجنود الرومان أيضاً .

الانقسام المذهبي بين الأسكندرية والقسطنطينية :

فى سنة ٤١٢ توفى ثيوفيلوس وخلفه الأسقف كيرلس الذى يعتبر أهم من تولى أمر الكنيسة المصرية بعد أنثاسيوس . وبغلب على شخصية كيرلس طابع التطرف سواء فى أعماله أو أفكاره ، مع ميل إلى العنف . وقد بدا ذلك واضحاً

فما حدث في أيامه من تجديده اضطهاد اليهود في الأسكندرية بعد أن خد نحواً من ثلاثة قرون ، وفي هذا الاضطهاد لم يعتمد على جنود الجامية العسكرية ، بل اعتمد على العامة في المدينة والرهبان في الصحراء الغربية بالقرب من الأسكندرية . وبلغ من عنف هذه الأحداث أن اضطرب الأمن كل الاضطراب ، وأخذ الغوغاء ينهبون بيوت الأثرياء وممتلكاتهم ، وعجز الوالى ورجال الجيش عن إخماد هذه الاضطرابات . لأن كيرلس بدأ يقوم بدور سياسى شبيه بدور أنثاسيوس وهو تولى زعامة الشعب المصرى ضد الإمبراطور ومثليه في مصر وهم الوالى وأعوانه .

وقد بلغ كيرلس التطرف حتى أنه ضاق بمدارس الفلسفة في الأسكندرية باعتبارها مراكز للفكر الوثنى . ومن أبرز شخصيات الحياة الفكرية والأدبية في الأسكندرية في ذلك الوقت الفيلسوفة المشهورة هيباثيا ، التى كانت على جانب كبير من العلم والجمال معاً . وكان يؤم دروسها الشباب من المسيحيين والوثنيين على السواء ، وكانت لها علاقات طيبة مع كثير من علية القوم في الأسكندرية من أصحاب الآبائات المختلفة . وقد وجه كيرلس اضطهاده ضد هذه السيدة العالمة وهاجمها الرهبان وقتلوا في سنة ٤١٥ . بعد ذلك تدخل الإمبراطور وأرسل بعثة للتحقيق فكف كيرلس عن هذه الأعمال .

على أن أهم ما يتميز به كيرلس وعصره هو نشأة الصراع المذهبي بين القسطنطينية والأسكندرية الذى سينتهى بانفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الرومانية الشرقية نهائياً فيما بعد . فمذ أن أعلن ثيودوسيوس في سنة ٣٨١ جعل كنيسة القسطنطينية بمثابة الكنيسة الرسمية والأولى للإمبراطورية الشرقية ، كان معنى هذا أن أصبح أسقف القسطنطينية بمثابة المتحدث الرسمى عن وجهة نظر القصر الإمبراطورى من الناحية الدينية . وقد حدث في ذلك الوقت أن نشأ خلاف جديد بين المسيحيين حول طبيعة المسيح من الناحيتين الإلهية والبشرية . وكان من الطبيعى أن تقرر

الكنيسة الرسمية في القسطنطينية موقفها من هذه المشاكل ، وفعلاً أصدر نسطور أسقف القسطنطينية رأيه في الأمر منادياً ببشرية المسيح إلى جانب ألوهيته . وفي الحال انقسمت الكنائس المختلفة إلى فريقين : فريق يؤيد الدعوة النسطورية أو الملكانية كما أصبحت تدعى فيما بعد نظراً لأنها تعبر عن رأى الإمبراطور أيضاً ، وفريق يعارضها أشد المعارضة ، وقد تمثل الفريق المعارض في مصر وسوريا وأرمينيا ، وكانوا يدعون إلى اعتبار المسيح ذا طبيعة إلهية واحدة ولذلك أطلق عليهم اسم أصحاب الطبيعة الواحدة (monophysites) وقد أطلق على المسيحيين في سوريا من أصحاب هذا المذهب اسم اليعاقبة نسبة إلى زعيمهم يعقوب . ولم يكن موقف كل من سوريا ومصر دينياً مجرداً (وكانا على صلة وثيقة في ذلك الوقت) ، بل كانت تسكن وراء موقفهما دوافع قومية ورغبة ملحة في معارضة الإمبراطور وكل ما يصدر عن السلطات الحاكمة ؛ وكانوا يحدون في الخلافات المذهبية سبيلاً لإظهار ذلك كله .

ولذلك ما أن أعلن نسطور عقيدته في القسطنطينية حتى راح كيرلس في الإسكندرية يهاجمها ويفندها ، ويعمل جاهداً على بلورة الفكرة المعارضة على أساس من الفقه الديني ليروج لها في مصر وخارج مصر . حتى أنه نجح في جمع أفسوس سنة ٤٣١ أن يفرض رأيه على الأعضاء ويصدر حكماً ضد نسطور نفسه .

وهكذا بقي كيرلس متمتعاً بمكانة عالية حتى نهاية حياته سنة ٤٤٤ ، وخلفه الأسقف ديوسقورس (٤٤٤ - ٤٥١) واستأنف الصراع ضد القسطنطينية ، إذ تجدد الخلاف مرة ثانية . ذلك أن أسقف القسطنطينية الجديد (فلافيانوس) ، بعث الفكرة النسطورية من جديد ، ودعا لضرورة إثبات الطبيعتين للمسيح . وقد استطاع ديوسقورس أن ينزع لنفسه انتصاراً سريعاً في جمع أفسوس سنة ٤٤٩ ؛ ولكن يبدو أن انتصاره تم بأساليب غير

مشروعة مثل الرشوة والتهديد ، حتى أطلق على هذا المجمع اسم « مجمع اللصوص » .

وفى العام التالى توفى الإمبراطور ثيودوسيوس الضعيف وخلفه ماركيانوس الذى قرر إلغاء قرارات مجمع أفسوس الأخير ودعا إلى عقد أكبر مجمع قديم فى خلقيدون سنة ٤٥١ . وعن هذا المجمع خرجت عقيدة دينية جديدة تؤكد « أن المسيح طبيعتين ، غير منفصلتين ، ولا متغيرتين ، ولا منقسمتين ، ولا منفصلتين ^(١) » .

وقد حوكم ديوسقورس أمام هذا المجمع ، وصدر الحكم بعزله من منصبه لا بسبب انحرافه عن العقيدة التى أقرها المجمع ولكن بسبب سوء سلوكه . وبعد ذلك صدر أمر الإمبراطور بنفيه إلى جانجرا بآسيا الصغرى (Gangra) ، حيث توفى فى سنة ٤٥٤ .

ولكن قرارات مؤتمر خلكيدون ونفى ديوسقورس لم تنه الخلاف ولم تنجح فى إيجاد الوحدة الدينية للإمبراطورية ؛ وحين حاول الإمبراطور تطبيق هذه القرارات بالقوة ، أدى الأمر إلى اضطرابات عنيفة راح ضحيتها كثير من الأفراد وخاصة فى مصر وسوريا ، حيث بقيت دعوة الطبيعة الواحدة قوية ، بل أخذت كل من سوريا ومصر تنزعان إلى الانفصال عن القسطنطينية وكان تاريخ الكنيسة المصرية بعد ذلك سلسلة من المنازعات بشأن اختيار الأسقف ، فمن ينتخبه المصريون لا يعينه الإمبراطور ، ومن يعينه الإمبراطور لا يقبله المصريون ؛ إلى أن تم الاتفاق أخيراً سنة ٤٨٢ على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور حتى ليكن أن يتخذ هذا التاريخ بداية انفصال

(١) أنظر نص العبارة ومصادرها : Hardy, Christian Egypt, p. 112
 وكتاب الدكتور السيد الباز العربى : مصر البيزنطية ص ٧٣ .

كنيسة الأسكندرية عن القسطنطينية ، رغم أن بعض الأباطرة سيحاولون التدخل في شئون الكنيسة المصرية بعد ذلك . .

هذه الانقسامات المذهبية — كما سبق أن بينا — كانت دوافعها الحقيقية عصبية قومية ورغبة في الانفصال ، لأن الاختلافات لم تكن جوهرية على النحو الذى قد يبدو لأول وهلة . فمند تحليل هذه الآراء المتعارضة كما صاغها زعماءها من أمثال كيرلس وسيفيروس السورى وكما في عقيدة خلقيدون ، نجد جميعاً يقررون ببشرية المسيح وألوهيته معاً ، ولكن فريقاً منهم (مثل المصريين والسوريين) كانوا يرون أن الاندماج كان كاملاً بحيث لا يجوز تصور التمييز بينهما ، أما الفريق الآخر (خلقيدون) فكان يرى ضرورة تصور الطبيعتين لإدراك معنى التضحية التى قام بها المسيح . فالمبدأ الدينى فى العقيدتين واحد ، ولكن الاختلاف حول استخدام لفظ « الطبيعتين » فى نص العقيدة .

ولكن هذا الاختلاف حول الألفاظ الدينية فى ذلك الوقت كانت له عواقب وخيمة . فقد انقسم الناس فى كل مكان إلى فرق ومذاهب كثيرة ، خاصة وأن بعض هذه المذاهب الكبرى انقسم على نفسه إلى أحزاب مختلفة كما لليعاقة فى سوريا ومصر . وبذلك فقدت الإمبراطورية وحدتها ، كما أن الفتن والاضطرابات أفقدت الإمبراطورية الكثير من شبابها وأضررت بالحياة الاقتصادية كل الضرر ، كما كان للنظام الإدارى كما وضعه دقلديانوس من تفتيت الإدارة وفصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية فى الولايات آثار سيئة فى إضعاف الجهاز الإدارى . كل ذلك أدى إلى سوء الأحوال عموماً فى الإمبراطورية فى النصف الثانى من القرن الخامس وبداية القرن السادس مما شجع على توالى الهجمات الأجنبية على الحدود .

وفى مصر نشطت القبائل النوبية من جديد ، وفى الشرق انتهر الفرس

فرصة سوء الأحوال في الإمبراطورية وأخذوا يتقدمون غرباً حتى هددوا حدود مصر الشرقية . وبدأ كُن الإمبراطورية توشك أن تتصدع بسبب الانقسامات الداخلية والهجمات الخارجية .

جستنيان (٥٢٨ - ٥٦٥)

في هذه الظروف تولى الحكم في القسطنطينية الإمبراطور جستنيان الأول الذي يعتبر آخر الأباطرة العظام في الإمبراطورية الرومانية في عصرها المتأخر . فقد كان واسع الطموح ، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح . وكان في الإصلاح هو إعادة الوحدة للإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية ، وإعادة تنظيم الإدارة ، وتقوية الجيش لتأمين الحدود ، ثم العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد^(١) . وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية . ومن العسير حقاً أن نتوقع له النجاح في تطبيق سياسته الدينية لسببين ، السبب الأول يرجع إلى عمق الانقسامات الدينية رغم جهوده الكبيرة في تعميم عقيدة خلقيدون في جميع أنحاء الإمبراطورية . والسبب الثاني هو وجود الانقسام المذهبي داخل أسرة الإمبراطور ذاته ، ذلك أن زوجته الإمبراطورة تيودور ، التي ابتدأت حياتها راقصة ، وأصبحت فيما بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن أمهر نساء التاريخ ، كانت تدين بالمذهب اليعقوبي أي مذهب الطبيعة الواحدة ، فإذا كان الإمبراطور لم يتمكن من تحقيق الوحدة الدينية داخل أسرته فكيف نتوقع له تحقيقها في الإمبراطورية !

ومع ذلك فعند تدقيق النظر في سياسة جستنيان الدينية نجد أنه أكثر حرصاً

(١) أمم دراسة حديثة لمصر جستنيان هي

E. Stein, Histoire du Bas-Empire, II, (1949).

على تحقيق الوحدة السياسية من الوحدة الدينية . فكان يهدف إلى أن يكون رؤساء الكنائس الأساسية في الإمبراطورية من نفس المذهب الإمبراطوري وهو الملكاني (أى مذهب خلقيدون) وأن يكون هؤلاء الأساقفة كندوبين أو ممثلين دينيين للإمبراطور شخصيا في الولايات ، حتى لا يتمكن أسقف محلي من معارضة الإمبراطور كما حدث من قبل . وهو لم يعبا بعد ذلك إذا كان سائر القساوسة في داخل الولاية يتبعون مذهباً ، ما داموا لا يضلون إلى رئاسة الكنيسة في ولايتهم . ويتضح تنفيذ هذه السياسة في مصر ، إذ لم يترك للمصريين حرية اختيار أسقف الأسكندرية بل أصر على أن يعين هو الأسقف . ونظراً لمقاومة المصريين لهذا الاتجاه وصعوبة العثور على أسقف مصري يقبل هذا الوضع ، وإذا وجد فمن العسير إتمام مراسم التعمين الدينية دون ثورة المصريين عليه قبل أن يرسم ، فكان جستنيان يختار من يشاء ويجرى له المراسم الدينية في الخارج ثم يرسله إلى الأسكندرية في حراسة قوة عسكرية تفرضه على الكنيسة فرضاً . وبذلك فقط تمكن جستنيان من إقامة أساقفة ملكانيين في الأسكندرية ، ولكن ذلك لم يتعد أشخاص الأساقفة وعدداً من المحيطين بهم ، أما سائر المصريين فقد بقوا على مذهبهم يؤمنون بالطبيعة الواحدة ، ولكن دون أن تكون لهم الصدارة التي تمتعوا بها زمن كيرلس وديوسفورس . وزاد موقف الأساقفة الملكانيين صعوبة أنهم حينما حاولوا فرض مذهبهم في مصر كانت الإمبراطورة تيودورا تحمي المصريين الذين كانت تشاركهم مذهبهم .

أما في المجالات الأخرى كان جستنيان أكثر توفيقاً ، فقد أدخل على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية سنتحدث عنها في فصل آخر ، ولكن يكفي أن نذكر هنا أنه أعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية في شخص الولاية ، بينما أبقى على تقسيم مصر إلى عدة ولايات .

ومع ذلك فتوحيد السلطين المدنية والعسكرية ساعد على استتباب الأمن في البلاد وتأمين الحدود في الوقت نفسه . وفي أيامه استطاع المصريون أن يمدوا نفوذهم الديني جنوباً فدخلت القبائل النوبية في المسيحية على المذهب اليعقوبي ، رغم جهود الأسقف في الأسكندرية أن يكون للمذهب الملكاني السابق . ولكن الإمبراطور الساساني لم يعبأ بانتشار أى المذاهب في هذه البقاع ، ولعله كان يعلم أنها كانت خاضعة لتأثير مسيحي من صعيد مصر من قبل ، ولكنه كان سعيداً بتحويل هذه القبائل إلى المسيحية ، لأنه اعتقد أن ذلك يعنى امتداداً لنفوذهم وتأميناً لحدود مصر الجنوبية أيضاً .

نهاية مصر البيزنطية وفتح العرب :

ولكن خلفاء جستنيان لم يكونوا في مثل قدرته ، ولذلك لم يتمكنوا من الاستمرار في الإصلاح ، وسرعان ما ظهرت العيوب التي حاول جستنيان جاهداً أن يصلحها ، وعادت الفوضى إلى الإدارة والجيش معاً . فتجددت الهجمات الأجنبية على الحدود ، وإذا بالنوبيين يعاودون تهديدهم وغزوهم لحدود مصر الجنوبية ؛ ولم يكن لدخولهم في المسيحية أى أثر . وفي الوقت نفسه عاد الخلاف المذهبي في مصر إلى سابق عهده ، من مقاومة المصريين للأسقف الملكاني في الأسكندرية . ولذلك حين أعلن هرقل شعار الثورة ضد الإمبراطور ، وجدنا المصريين ينحازون إلى جانبه ، ليس عن رغبة صادقة في مناصرته ولكن كرها في الإمبراطور الحاكم . حتى إذا أصبح هرقل نفسه إمبراطوراً ، ضاقوا من جديد بأساقفته الملكانيين ، رغم محاولته الوصول إلى سبيل للتفاهم مع الأقباط المصريين .

ولكن حدث في ذلك الوقت أن هددت الدولة الفارسية حدود الإمبراطورية الشرقية ، وأنها نجحت في التوغل إلى داخل الإمبراطورية ذاتها فاستولت على

سوريا وفلسطين ثم مصر في عام ٦١٦ . ولكن امتداد النفوذ الفارسي على هذا النحو لم يدم سوى عشرة أعوام ، تمكن بعدها هرقل من إعادة هذه الولايات الى حظيرة الإمبراطورية من جديد . ولم يكن استردادها بالأمر العسير لما عرفت به فترة الاحتلال الفارسي من القسوة والعنف . وعاود هرقل جهوده في التناغم مع الأقباط المصريين على عقيدة دينية واحدة ، على أساس إدخال فكرة جديدة وهي بدعة « الإرادة الواحدة » . ولكن المصريين لم يكونوا مستعدين للتناغم بحال . فعين هرقل أسقف الأسكندرية المسمى القورث المعروف باسم المقوقس ليكون حاكماً لمصر أيضاً . وكان المقوقس هذا معروفاً بقسوته وكرهه لأصحاب الطبيعة الواحدة ، ومنحه الإمبراطور سلطة مطلقة لتحقيق سياسته في مصر . فأطلق على المصريين حملة من الاضطهاد العنيف مما زاد كراهية المصريين ونفورهم من الحكم الروماني .

وهنا تظهر على مسرح الأحداث العالمية دولة شرقية جديدة هي الدولة العربية ، خرجت من قلب الجزيرة العربية تحمل معها ديناً جديداً هو الإسلام . وبعد أن اطمانت هذه الدولة إلى سيادتها في الجزيرة العربية أولاً ، أخذت تتطلع إلى خارج حدودها ، فوجدت إمبراطوريتين متداعيتين هما الإمبراطورية الفارسية في الشرق والإمبراطورية الرومانية أو البيزنطية في الغرب . وعند أول محاولة لبسط الدولة العربية الجديدة نفوذها في الخارج انهارت الإمبراطوريتان معاً . وكان سقوط مصر في يد العرب على يد عمرو بن العاص سنة ٦٤٠ .

الفصل التاسع

معالم النظم والحضارة في عصر البيزنطية

(١) النظام الإداري

لقد سبق أن تحدثنا في هذا الباب عن آثار الاضطرابات والانقسامات السياسية والعسكرية التي قطعت أوصال الإمبراطورية الرومانية خلال الجزء الأكبر من القرن الثالث . وكان من نتائج ذلك أن أصيبت الإدارة بعطل شديد بحيث أصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرضي ؛ وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذي تتعرض له إمبراطورية عالمية بدون إدارة قوية . ولعلنا لا نبالغ في شيء إذا قلنا إن أشد ما كانت الإمبراطورية في حاجة إليه هو رجل يصلح إدارتها ، وأن دقلديانوس كان ذلك الرجل . فإذا لم يكن لدقلديانوس مواهب عسكرية تخلد اسمه في تاريخ روما الحربي ، فقد كان له من مواهب الإدارة والتنظيم ما مكّنه من القيام بإصلاحات في نظم الإدارة والحكم والاقتصاد سادت من بعده مدة ثلاثة قرون تقريباً ، وأصبح عهده يمثل نقطة تحول في التاريخ القديم بأسره بدخول الإمبراطورية الرومانية في مرحلتها المتأخرة وأكبر مهند لقيام العصر البيزنطي في الشرق .

وكما سبق أن رأينا في وصف نظامه الضرائبي كانت مبادئه في الإصلاح تتلخص في التبسيط والتوحيد ، تبسيط النظم وتوحيدها في ولايات الإمبراطورية المختلفة . وفي سبيل تحقيق ذلك قرر العمل بمبدأ اللامركزية في إدارة الإمبراطورية ، حتى يخفف عن الإدارة المركزية في العاصمة من أعباء الروتين الإداري ، وأولاً عن

طريق إشراك غيره معه في الإدارة ثم عن طريق إنشاء وحدة إدارية كبيرة، تمثل حلقة متوسطة بين الإدارة المركزية وإدارة الولاية. هذه الحلقة المتوسطة أطلق عليها لفظ دوقية (diocesis) وقسمت الإمبراطورية إلى اثني عشر دوقية هي بريطانيا والغالة (وشملت شمال فرنسا وأرض الرين وهولندا) وفييننيس Viennensis (جنوب فرنسا) وأسبانيا (بما فيها البرتغال ومراكش) وإيطاليا (ومعها صقلية وسردينيا وكورسيكا) وإفريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) وبانونيا وموسيا وطراقيا) وتمثل كل منها غرب ووسط وشرق البلقان) وأسيانا وبونتيكا) وتمثلان جنوب غرب وشمال شرق آسيا الصغرى (ثم الشرق) وشملت كيليكيا وسوريا وفلسطين ومصر وقورينة) وبذلك قضى نهائياً على تنظيم الإمبراطور أغسطس في تقسيم الولايات بين الإمبراطور والسناو.

على هذا الأساس وقعت مصر في دوقية الشرق، ولكن إصلاح دقلديانوس لم يتوقف عند هذا الحد، بل رأى أن يقسم الولايات الكبيرة إلى ولايات أصغر، وذلك عملاً بمبدأ اللامركزية. فقسمت الولايات الكبيرة مثل إيطاليا وأسبانيا والغالة ومصر إلى ثلاث أو أربع أو خمس ولايات صغرى، فمصر التي كانت طوال تاريخها القديم وحدة سياسية وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية^(١): ولاية مصر الجوبيتيرية (Aegyptus Jovia) وتشمل غرب الدلتا بما فيها الإسكندرية) وسميت كذلك لأنها كانت الولاية الأولى في مصر ولأن

(١) الدراسات الأساسية انظم مصر الإدارية في العصر البيزنطي هي:

M. Gelzer. Studien Zur byzantinischen Verwaltung Aegyptens (1909);

G. Rouillier, L'Administration Civile de L'Egypte Byzantine (1928);

A. H. M. Jones. Cities of the Eastern Roman Provinces, pp. 338—350 (1937).

والدكتور السيد الباز العريبي: مصر البيزنطية ص ٨١ - ٩٥ - ١٥٥ - ١٧٧.

دقلديانوس اتخذ لنفسه لقب جوفوريوس Jovius أى أنه بمثابة ممثل كبير الآلهة على الأرض) ، وولاية مصر الهرقلية (Aegyptus Herculia) وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى المعروفة باسم هيتانوميا (وسميت الهرقلية نسبة إلى اللقب الذى اتخذه شريك دقلديانوس فى إدارة الولايات الغربية Maximian Herculus) ثم ولاية طيبة (وتشمل الصعيد جنوبى أسيوط Panopolis) أما الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ليبيا . وقد تم تنفيذ هذا التقسيم فى عام ٢٩٧ بعد أن انتصر دقلديانوس على أخيليوس الذى ادعى لنفسه الإمبراطورية فى الأسكندرية ، ثم عدلت أسماء الولايتين الشماليتين إلى مصر (Aegyptus) فى غرب الدلتا ، وأوغسطمريكا Augustamnica لشرق الدلتا ومصر الوسطى .

هكذا انقسمت مصر إلى ولايات ثلاثة منفصلة ، ومع ذلك فإن الفصل التام لم يتحقق ، إذ منح حاكم الولاية الأولى وهى مصر (الجويتيرية) الذى كان مقره الأسكندرية سلطاناً أسى من حكام الولايتين الأخريين ، فحمل ذلك الحاكم الأول لقب ، Praefectus Aegypti ، بينما أطلق على الحاكمين الآخرين لقب Praeses ، ولكنهم جميعاً كانوا يتبعون المشرف على دوقية الشرق الذى حمل لقب كونت (Comes) .

ولكن طرأ على هذا النظام بعض التعديل فى آخر القرن الرابع ، إذ أصبحت مصر تكون فى سنة ٣٨٢ دوقية مستقلة وألحقت بها ليبيا ، وبذلك استردت وحدتها الإدارية من جديد ، وأصبح يحكمها حاكم عام يسمى Praefectus Augustalis . وعقب ذلك فصلت مصر الوسطى (هيتانوميا) إدارياً ، وأصبحت تكون ولاية إدارية أطلق عليها اسم أركاديا Arcadia (فى سنة ٣٨٦) . وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة وأوغسطمريكا ومصر ، كل إلى قسمين : ملاحظة أخيرة بشأن تقسيم السلطة فى الولاية حسب نظام دقلديانوس ،

هى فصل السلطة المدنية عن السلطة العسكرية . لحكام الولايات الثلاثة الجسد
حكام مدنيون ليس لهم سلطان عسكرى كما كان الأمر فى النظام الذى وضعه
الإمبراطور أغسطس قديماً ، أما جيش الحامية العسكرية الرومانية فى مصر
بأسرها فقد وضع له قائد مستقل .

وقد تبع هذا الإصلاح الأساسى تعديل آخر يتعلق بالأقسام الإدارية المحلية
فى الريف . ذلك أن تعميم نظام الحكم المحلى فى مطلع القرن الثالث على يد
سپتيموس سيفيروس قد استكمل نموه فى عصر دقلديانوس وخلفائه ، إذ حولت
النومات الإدارية إلى مدن مستقلة ، ولم يعد هناك فى المدن الجديدة سوى إدارة
محلية حلت محل النظام المزدوج القديم ، الذى كان يقوم على وجود موظفين
يمثلون السلطة المركزية وموظفون يمثلون الحكم المحلى . وهكذا اختفى منصب
الاستراتيجوس الذى كان يحكم النوموس طيلة العصرين اليونانى والرومانى .
ثم أتبع ذلك بإلغاء أقسام النوموس القديمة وهى التوبارخيا (*Toparchia*) ،
وقسمت النومات إلى عدد من الوحدات الجديدة أطلق عليها اسم پاجوس
(*Pagus*) يتولى إدارتها موظف يعرف باسم *Praeposities* . ولفظ پاجوس
(*Pagus*) هو الاصطلاح اللاتينى التقليدى لأقسام الإقليم الزراعى للمدينة
(*Chora*) . وهكذا استكمل نظام الحكم المحلى تطبيقه فى مصر وأصبحت
الولايات الثلاثة تنقسم إلى عدد من المدن *Poleis* ، لكل مدينة أرض زراعية
تتبعها (*Chora*) وقسمت هذه الأرض الزراعية إلى عدد الوحدات المسماة
بأغوس .

ما من شك فى أن الهدف الحقيقى من تدعيم نظام الحكم المحلى ليس توطيد
الحرية السياسية على أساس الحكم المحلى الحق ، ولكن أدرك دقلديانوس أن
النظام القديم المزدوج قد ثبت فشله وعجزه ، وخاصة بعد أزملت القرن الثالث

المتلاحقة التي تركت الحكومة المركزية مسلوقة السلطة . ولذلك سعى في إصلاحه الجديد إلى إلقاء عبء الإدارة المحلية بأكملة على كاهل الأهالي ممثلين في هيئات الحكم المحلي . ولعله ظن أنه في ظل نظام الحكم المحلي الكامل سوف يزداد مجالس المدن وموظفوها إقبالا على تحمل مسؤولياتهم مدفوعين بفكرة الشعور بالاستقلال وفي سبيل صيغ التعديلات الإدارية بصيغة جديدة تماما واستجابة تطورات عامة أخرى تمت في القرن الرابع ، أدخلت تعديلات في الوظائف المدنية القديمة فاختلفت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة . فمن ذلك مناصب الكهنة والإشراف على الجنازيوم ، اختفت وحل محلها الكنيسة ورجالها ، كما أن مناصب أكسجيتيس exegetes والمشرع للتموين Euthenarches اختفت تدريجيا . أما المناصب الأساسية الجديدة فهي ثلاثة :

أولا : المشرع على المدينة (Curater Civitatis أو Logistes) الذي أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفي المدينة النظاميين ينتخبه مجلس المدينة . وأصبح في الواقع بمثابة رئيس المدينة ، له سلطات متعددة تشمل بعض اختصاصات الإستراتيجوس القديم وبعض الموظفين الآخرين أيضا : وأصبح هو وسعاونوه الإداريون مسئولين عن أعمال مختلفة ، مثل ميزانية المدينة والإشراف على نقابات العمال والتجار ، وتقدير الضرائب ، والإشراف على الأمن وتموين المدينة .

ثانياً : حامى المدينة أو العامة (ekdikos أو defensor civitatis or plebis) وكان واجبه الأساسي حماية دافعي الضرائب من جامعي الضرائب . وكان له سلطة اعتقال أى شخص أو وضعه تحت المراقبة وتحديد إقامته في المدينة ، إذا كان متهماً بإضرار شخص آخر .

ثالثاً : الموظف المالي exactor الذى تولى أهم وظيفة بالنسبة للحكومة

المركزية وهي جمع الضرائب . ولكن يبدو أن هذا الموظف كان قاصراً على مدن الريف في مصر ، أما في الأسكندرية فقد وجد موظف مالى آخر أطلق عليه لفظ « vindex » ويبدو أن هذه الوظيفة أنشئت في القرن الخامس فقط وبقيت بعد ذلك ^(١) .

أما عن المجالس المنتخبة (boulé) فقد استمرت تحمل المسؤوليات الإدارية ، ولكن فقدت كل معاني الحكم المحلي . إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون منذ القرن الرابع طبقة وراثية ، هي الطبقة الثرية في كل مدينة .

هذه هي معالم النظام الإداري الذي ساد مصر في القرنين الرابع والخامس والثلث الأول من القرن السادس ، حتى أصدر جستنيان قانونه الثالث عشر المشهور سنة ٥٢٨ . وليس هنا مجال دراسة هذا القانون دراسة تفصيلية ، وإنما نلاحظ أن جستنيان لم يعد يحفل بالنظم المدنية ، ولا حتى في الظاهر ، وإنما سعى إلى تقوية الإدارة المباشرة بكل أسلوب . وأهم تعديل قام به جستنيان هو تقسيم دوقية مصر إلى أقسامها الأربع القديمة وأضاف إليها ولاية ليبيا ، فأصبحت مصر تنقسم إلى خمس ولايات . ولكن أخطر تعديل أدخله جستنيان على نظام دقلديانوس هو توحيد السلطة المدنية والعسكرية في يد حاكم كل ولاية ولعله كان يهدف من وراء هذا التعديل تقوية سلطة الحاكم على ولايته ، ولكن الذي حدث هو أنه زاد من تقسيم عرى الدولة إدارياً وعسكرياً معاً ، لأن الإدارة كانت رغم محاولة كل إصلاح — أضعف من أن تتغلب على ظروف البلاد الاقتصادية والاجتماعية ، فأعضاء المجالس التشريعية كانوا قد أصبحوا مجرد جامعي ضرائب ، كما أن تقسيم البلاد زاد من سلطان كبار الملاك الذين سيطروا على أقاليمهم سيطرة تامة في القرن السادس كما بينا عند الحديث عن نظام

(١) Evagrius, Hist. Eccl. III. 42; Justinian, Edict, XIII. 1. 13

الأراضي . ولهذا فإن توحيد السلطة المدنية والعسكرية في أيدي الحكام المحليين لم يأت بالنتيجة المرجوة ، وكثيراً ما نشأت المنافسات الصغيرة بين هؤلاء الحكام علماً بأن قوتهم العسكرية لم تكن قادرة في معظم الأحيان سوى القيام بأعمال البوليس ، أو قمع فتنة صغيرة محلية . ولكنها كانت عاجزة كل العجز عن مواجهة أى خطر حقيقى من الخارج ، وقد اتضح ذلك تماماً في القرن السابع أمام الفتح العربى ، فسقطت البلاد دون مقاومة تذكر .

وكان من نتائج تقسيم البلاد وضعف الإدارة المركزية أن زاد شأن الكنيسة ، حتى يمكن أن يقال أنها كانت العامل الأساسى الباقى من وحدة الدولة . ويتجلى ازدياد نفوذ الكنيسة فى ذلك الوقت من أنها اضطلعت بكثير من أعمال الدولة ؛ وخير مثال على ذلك سيرة يوحنا بطريرك الأسكندرية فى مطلع القرن السابع ، إذ كانت الكنيسة تهتم بشئون تموين المدينة وقت الأزمات الاقتصادية ، فتستورد القمح من الخارج وتوزعه بين الناس ؛ كما كان لها مستشفيات لعلاج المرضى وبيوت لإيواء الغرباء واللاجئين . كل ذلك يثبت اضطراب الإدارة وضعف الحكومة المركزية ضعفاً شديداً جعلها عاجزة عن تحمل أعبائها ، ولذلك قام بها كل من الكنيسة وكبار الملاك .

ب- الحياة الاقتصادية

أولا نظام الأراضي :

بالرغم من أن العالم الأساسية لنظام الأراضي في مصر البيزنطية واضحة بصورة عامة ، إلا أن معلوماتنا عن بعض مراحل تطورها لا زالت قليلة أو غير موجودة . والسبب في ذلك أن مصادرنا عن هذه الفترة قد عراها بعض التغيير، فالوثائق البردية تعتبر نسبياً أقل كثيراً من وثائق الفترة السابقة ، وإلى جانب قلتها فهي غير متصلة زمنياً ، وأكبر مثال على ذلك أنه لا تكاد توجد لدينا وثائق بردية ذات قيمة اقتصادية من القرن الخامس ، إلى جانب أوراق البردى وصلت إلينا مجموعات كبيرة من قوانين هذا العصر ، وهي المعروفة باسم المجموعة القانونية . لثيودوسيوس والمجموعة القانونية لجستنيان . وبعض قوانين هاتين المجموعتين تمدناً بالجانب التشريعي من أعمال الدولة فيما يتعلق بنظام الأرض ، إلا أنها لا تعطينا أيضاً الصورة كاملة ولا تملأ جميع الفجوات التي تركتها الوثائق البردية . وأخيراً يجد علينا نوع جديد من المصادر وهو الكتابات الدينية التي تتناول سير آباء الكنيسة الأول والرهبان . ورغم أن الظروف الاقتصادية هي أبعد شيء عن طبيعة هذه الكتابات ، إلا أن الدارس لها يجد فيها إشارات متفرقة تلقى ضوءاً على حياة مصر الاقتصادية في ذلك العصر^(١) .

(١) عن نظام الأرض في مصر البيزنطية أنظر :

Johnson—West, Byzantine, Egypt, Economic Studies, 19 ff. ;

G. Rouillard, Lavie Rurale dans l'Empire Byzantin, (Premier partie : dans L'Egypte) pp. 14—79 ; E. R. Hardy, Large Estates of Byzantine Egypt ; A. H. M. Jones, Cansus Records of the Later Roman Empire, J. R. S. 43, (1953) 49 ff. ; Wilcken, Grudzage, 309 ff.

أما عن نظام الأراضي فيمكننا أن نتخذ عام ٢٩٧ نقطة الابتداء ، حين حضر دقلديانوس إلى مصر للقضاء على فتنة أخيليوس ، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الغرض الأساسي منها هو توحيد النظم في مصر مع سائر أقطار الإمبراطورية وفيما يتعلق بالضرائب الزراعية ، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة في جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول^(١) ، وألغى جميع الضرائب السابقة التي كانت معقدة أشد التعقيد ، فكانت تختلف من مكان إلى مكان ، وتختلف أيضاً حسب الأشخاص ، فهناك من ملاك الأراضي من تمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها . ولكن عدا النظام الضرائبي لا نعرف أنه أدخل أى تعديل على نظام الأراضي ، فأقسام الأرض المألوفة في العصر الروماني استمرت بعد دقلديانوس خلال الثلث الأول من القرن الرابع على الأقل . ولكن نلاحظ بعد ذلك في الفترة بين ٣٣٢ - ٣٥٠ أن قسماً رئيسياً من الأقسام السابقة وهو أرض الدولة بأنواعها — *Ousiaké* , *demosia* , *basiliké* — يختفي تماماً من الوثائق المصرية ، ولا يعود إلى الظهور ثانية ؛ ومن المحتمل أنها ألغيت زمن الإمبراطور قسطنطين أو بعده بقليل^(٢) . والمتتبع للحياة الزراعية في مصر الرومانية لا يجب لهذه الظاهرة الجديدة في القرن الرابع ؛ فقد لاحظنا من قبل نمو الملكية الخاصة في الأرض بصورة مضطربة على مدى القرون الثلاثة السابقة ومنذ منتصف القرن الثالث نجد أن أرض الدولة (*basiliké*) قد بدأت تنتقل إلى أيدي الأفراد^(٣) . وقد استمر هذا الاتجاه بصورة أقوى في أثناء القرن الرابع ، أى

(١) أنظر Samenelbuch, V, 7622 (297 A. O.) Originally published by Boak, in *Etude de Papyrologie* II, no. 1.

(٢) Johnson-West, Byz. Eg. p. 19 f.

(٣) أنظر Sammelbuch, IV, 7474, Fayum (254 A. D.) ; P. Flor. 50, Hermopolis (268 A. D.)

في الوقت الذي ازداد فيه قطاع الملكية الخاصة عموماً والممتلكات الكبيرة التي ابتدأت في القرن الثالث بصفة خاصة ؛ حتى ليكن أن يقال أنه عندما ألغيت الأرض العامة (basiliké) كانت قد تضاءلت جداً بسبب بيعها للأفراد أو منحها للكنائس المسيحية الجديدة .

فالطابع العام لتطور نظام الأرض في مصر في القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع الملكية الخاصة من الأرض على حساب قطاع الملكية العامة التي تختفي تماماً في منتصف القرن .

ومن الطريف أن نوضح هذه الصورة عن طريق الإشارة إلى بعض قوائم مسح الأرض في مصر في القرن الرابع^(١) . فإحدى وثائق القيوم البردية من الربع الأول من القرن^(٢) تبين أن مساحة الأرض العامة (basiliké) تكافئ مساحة الأرض الخاصة (idiotiké) في قرية ثيادلفيا (بطن هريت حالياً) ونحن لا نمتلك لسوء الحظ سجلات أخرى لمسح الأرض في هذه القرية ، ولذلك نضطر إلى البحث في السجلات التي وصلتنا من أماكن أخرى في مصر . فهناك وثيقة من مدينة هرموبوليس (الأشمونين) تؤرخ في الربع الثاني من القرن الرابع^(٣) لا تظهر فيها أرض التاج (basiliké) ، ولكن تذكر الأرض العامة (demosia) فقط . وفي هذا السجل نلاحظ أن مساحة الأرض الخاصة تبلغ ٢٩٥٠ أرورا والأرض العامة ١٠٩٣ (أى ما يعادل نسبة ١ : ٣) .

(١) أظر Jones, Census Records of the later Roman Empire, 48 ff.

J. R. S., 43 (1953) 48 ff.

P. Princ, 134 (322 A. D. ?)

(٢)

P. Flor. 71.

(٣)

وفى وثيقة ثالثة^(١) ، من المحتمل أنها من المدينة نفسها وحوالى تاريخ الوثيقة السابقة أو بعده بقليل ، تؤكد النتيجة ذاتها ؛ ويمكن تلخيص المعلومات الأساسية التى تتضمنها فيما يلى :

مساحة الأرض السكّية	١٦٤٣٩ أرورا
مساحة الأرض الخاصة	» ١٢٥٥٧
مساحة الأرض العامة	» ٢٤٨٦
مساحة أرض الحدائق	» ٤٤٤
مساحة أرض خاصة (أخرى)	» ٢٣

يتضح من هذه الإحصائية أن مساحة الأرض العامة كانت فى انكماش مستمر بالنسبة للأرض الخاصة ، فهى فى هذه الحالة تبلغ ٢٤٨٦ أرورا بينما بلغت أرض الملكية الخاصة ١٢٥٥٧ أرورا (أى ما يعادل ٥:١ تقريباً)

يتضح من هذا العرض أن الملكية الخاصة زادت كثيراً فى أثناء القرن الرابع ؛ وما من شك أن الملكية الكبيرة كانت الطابع المميز لهذه الزيادة^(٢) . ول سوء الحظ أننا لا نستطيع تتبع هذا التطور فى القرن الخامس الذى يكون فى مرحلة مظلمة فى معلوماتنا عن مصر البيزنطية . ولكن كل الأدلة الموجودة تشير إلى أن الاتجاه الذى لاحظناه فى القرن الرابع استمر أيضاً فى القرن الخامس . ولإثبات ذلك يجب أن نشير إلى ظاهرة خطيرة صاحبت نمو الملكيات الكبيرة فى القرن الرابع ألا وهى ظهور نظام « الحماية » .

(١) P. Ryl. IV. 655, Hermopolis (first half of IV cent. A. D. ?)

(٢) أنظر قوائم تكوين الملكيات الكبيرة فى مقالة جونز السالفة الذكر ، وراجع أيضاً Johnson-West, of. cit. 39 ff.

لقد أراد دقلديانوس بنظام الضرائب الذى فرضه على الإمبراطورية أن يبسط مهمة جمع الضرائب وبذلك يصعب التحايل والهروب. ولكن هذا النظام الجديد لم يحقق الهدف منه ، لأن الأثرياء من أهل السطة والحكم استطاعوا دائماً استخدام نفوذهم أو مالهم فى تجنب دفع الضرائب .

ونظراً لأن مسئولية دفع الضرائب فى ذلك الوقت كانت مسئولية جماعية ، أى على جميع سكان القرية أو المنطقة دفع أى عجز ، فقد كان من الممكن إرهاب أو حتى تعذيب صغار الملاك حتى يدفعوا العجز المطلوب . وباستمرار هذا الظلم فى جمع الضرائب وسوء الأحوال الاقتصادية من جراء الاضطهادات المتوالية التى كانت طابع هذا العصر ، وجد صغار الملاك أن لافائدة تجنى من امتلاك أراضيهم . فلجأوا إلى حيلة غريبة تنجيهم من مواجهة مسئولية دفع الضرائب وهى أنهم طلبوا حماية أحد كبار الملاك من أصحاب النفوذ فى المنطقة ، على أساس أن يتنازل له المالك الصغير عن أرضه ويتولى السيد الكبير أمر دفع الضرائب للدولة . وهكذا تحول من مالك حر إلى تابع أو لائىم رقيق أرض ، يستأجر من سيده الأرض التى كان يمتلكها ^(١) ،

وقد حاولت الحكومة جاهدة إيقاف هذا التيار طوال القرن الرابع ^(٢) ، ولكن دون جدوى . فإن الكثيرين من المزارعين رأوا فى نظام الحماية المنقذ الوحيد لهم من ظروف لم يقووا على تحملها ، وفى الوقت نفسه كان كبار الملاك سعداء بزيادة رقعة أرضهم وزيادة أتباعهم . ومن أشهر جهود الحكومة فى محاولة ضبط نظام الحماية على الأقل هو القانون الذى صدر سنة ٤١٥ ^(٣) ، ويقضى بالاعتراف بأعمال الحماية التى تمت قبل سنة ٣٩٧ وبنى جميع محاولات الحماية بعد

Bell, in *Legacy of Egypt*. p. 335—6

(١)

Hardy, *Large Estates*. 22, ff

(٢)

Code Theodosius, XI. 24, 6.

(٣)

هذا التاريخ ، ولكن استثنيت الكنيسة من هذا الحد التاريخي . ويتضح من هذه القوانين أن قرى بأسرها قد أصبحت تحت حماية السادة من كبار الملاك .

وتأتى بعد ذلك فترة القرن الخامس التي لانعرف عنها شيئاً ، ولكن ما أن يرفع الستار مرة ثانية عن حالة الأرض في القرن السادس ، ندرك أن التطور الذى حدث في القرن الرابع سار إلى مذهب الطبيعى ، وإذا بالاقطاعات الكبيرة هى الطابع المميز للحياة الزراعية في مصر في القرن السادس . وكانت هذه الإقطاعات على نحو يفوق كل ما عرف في مصر من قبل ، وإنما هو أشبه بالإقطاعات الكبرى التي عرفت في أوروبا في العصور الوسطى . فصاحب الإقطاع الآن يمتلك قرى ومدناً بأسرها ، وهو صاحب الأمر والنهي في إقليمه دون أن يكون لموظفي الإدارة أى سلطة ، وكثير من هؤلاء الموظفين من بين أتباعه . وقد بلغ من سلطان بعض هؤلاء الإقطاعيين أنهم اتخذوا لأنفسهم جنوداً وشرطة وحرساً خاصة ، كما كانت لهم محاكم وسجون خاصة بهم ، ولهم حق دفع ضرائبهم لخزانة الولاية مباشرة أو في الأسكندرية (وهو المعروف بنظام autopragia) . وليس عن طريق الموظفين جامعي الضرائب ^(١) .

ولكن يجب ألا نتصور أن أرض مصر كانت مقسمة إلى عدد من الإقطاعات الكبيرة فحسب ، بل وجدت أيضاً في القرن السادس قرى حرة يمتلك أرضها صغار الملاك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة ، كما تثبت ذلك مجموعة من الوثائق البردية تنتمي إلى بعض مناطق مصر الوسطى ^(٢) . وإلى جانب هذه القرى الحرة وجدت قرى أخرى وممتلكات كثيرة تتبع الكنائس المختلفة وخاصة كنيسة الأسكندرية . وقد سبقت الإشارة إلى قانون ثيودوسيوس سنة ٤١٥

Hardy, Large Estates.
P. London, vol. IV.

(١) خير دراسة لهذا الموضوع هى كتاب
(٢) هذه المجموعة منشورة في :

الذى يؤكد أملاك الكنيسة حتى عام ٣٩٧ وما بعده . ويبدو أن أملاك الكنائس كانت كبيرة بفضل الأوقاف والمنح التى كانت تأتيها سواء من الحكام أو الأفراد . وليس أدل على ضخامة هذه الممتلكات مما ترويه المصادر عن ثروة كنيسة الأسكندرية والنشاط التجاري الكبير الذى كانت تقوم به ^(١) .

الصناعة والتجارة :

يروى أحد الكتاب المسيحيين قصة ثلاثة عميان من الأسكندرية مييناً كيف فقد كل واحد منهم بصره . فأحدهم كان يعمل صانع زجاج ثم فقد بصره بسبب النار التى يستخدمها فى صنعه ؛ والثانى كان يعمل قبطان سفينة وأصابه مرض فى عينيه أثناء رحلة بعيدة ولم يتمكن من علاج عينيه . أما ثالثهم فكان لصاً وأصيب فى بصره بينما كان يسرق قبراً ^(٢) . ولا تخلو هذه القصة من دلالة ، فهى تعكس لنا صورة من العمل الشائع فى الميناء الكبير . فقد استمرت الأسكندرية فى العصر البيزنطى أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة فى مصر ، ولكن ما من شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالى الاضطهادات أثرت فى قدرة البلاد الإنتاجية وفى نوع الإنتاج أيضاً . فصناعة الزجاج مثلاً استمرت فى الأسكندرية ولكن ما عثر عليه فى الحفائر الحديثة فى منطقة الفيوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج المصرى من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضاً قدرة ما عثر عليه من الزجاج المصرى فى الخارج ، إذ يبدو أن تأخر الصناعة المصرية من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه ^(٣) .

(١) أنظر مثلاً Sophronius, Miracles of SS. Cyrus and John, 8; Life of St. John. The Almsgiver; of. Johnson-West, Byz. Eg. pp. 67. ff.

John Moschus: Pratum Sprituale. (٢)

Harden, Roman Glass from Karanis, pp. 34 ff. (٣)

وكذلك صناعة البردى التي اشتهرت بها مصر منذ القدم فقد استمرت ، ولكن تأخر مستواها عن ذي قبل ، ويمكن أن نذكر هنا أيضاً أنه ربما كان لرواج صناعة الكتب من رق الجلد (Codex) ، الذي كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحي الجديد^(١) ، تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الراقية من البردى القديم . ومع ذلك استمرت صناعة البردى وتصديره إلى الخارج بكميات كبيرة كما كان الحال من قبل . ويثبت ذلك ما جاء في حسابات كنيسة روما التي كان لها ممتلكات بالقرب من الإسكندرية وبين هذه الممتلكات مصانع تنتج أوراق البردى^(٢) . وما يدل على أن البردى المصري كان لا يزال سلعة عالمية أنه ذكر في نقش يحتوى على جزء من قائمة الأسعار التي أصدرها دقلديانوس ، ولكن لسوء الحظ أن الثمن غير موجود^(٣) .

أما الصناعة المصرية الثالثة التي كانت منتشرة أيضاً وهي نسج الكتان ، فقد وجدت أيضاً في ذلك العصر ، ويذكر دقلديانوس في قائمة أسعاره كتان الإسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان في الإمبراطورية بأسرها^(٤) .

أما صناعة العطور والتوابل التي كانت تستورد من الأسواق الشرقية ثم تصنع في مصر ويعاد تصديرها فقد استمر أيضاً ، نظراً لأن التجارة الشرقية لم

F. G. Kenyon, *Readers and Books in Ancient Greece* (١) and Rome, ch. IV.

Liber Pontificalis, ed. Duscheve, I. 34, p. 177. (٢)

The text in T. A. P. A., 71 (1940) p. 158 (٣)

T. Frank: *Rome and Italy of the Empire*. pp. 305 ff., (٤) sects. 26—7

تتوقف وإن قابلت بعض الصعوبات أحياناً . ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما في مصر ، المشار إليه سابقاً ، أن مئآت الأرتال من الزيوت والتوابل والمطور بأنواعها كانت تصنع في مصانعهم بالقرب من الأسكندرية .

نستنتج من كل هذا أنه رغم سوء الأحوال العامة في مصر في العصر البيزنطي حين تقاس بالعصر الروماني الأول ، فإن الصناعات الأساسية استمرت في مصر وإن كانت قد تأخرت في مستواها عن ذي قبل .

أما التجارة الخارجية فلها قصة أخرى فقد رأينا في الفصل السابق مدى النشاط الذي حققته مصر في مجال التجارة العالمية على أيدي تجار مدينة الأسكندرية ، الذين تمكنوا من احتكار التجارة الشرقية لأنفسهم إلى حد بعيد ، كما كان أسطولهم التجاري في البحر الأبيض يعتبر الأول بين الولايات جميعاً . ورأينا مقدار الثروات الضخمة التي أفادها الأسكندريون من وراء هذه التجارة . ويكفي أن نذكر فيرموس ، الذي تمكن من دخله من تجارة البردى والصمغ العربي ، في أسوأ فترات الإمبراطورية الرومانية في القرن الثالث ، أن يكون جيشاً وأن يطمح إلى منصب الإمبراطور لنفسه .

لذلك ليس مستغرب أن يتمسك تجار الأسكندرية بهذه التجارة بكل ما أوتوا من قوة ، ويبدو أنهم نجحوا في المحافظة على مراكزهم على رأس التجارة العالمية في العصر البيزنطي أيضاً . فقد استمر الاتصال مع الصومال وبلاد العرب والهند مستمراً دون انقطاع .

ويبدو أن النشاط الذي أبداه الأنوبيون كوسطاء في التجارة الشرقية لم يؤثر كثيراً على نشاط الأسكندرية في هذا المجال ، وثبت إحدى قوائم الضرائب من منتصف القرن الرابع والتي تحتوى على قائمة بالمكوس المستحقة

عند مدخل قناة الأسكندرية أن الملاحين الأسكندريين كانوا على اتصال مباشر بالهند (nautai Indias)^(١). وفي النصف الأول من القرن السادس تثبت مرة أخرى رحلات الراهب المصرى كوزماس ، الذى كان يعمل فى التجارة الشرقية من قبل ، وفى الفصل الأخير من كتابه بصفة خاصة ، أن التجارة المباشرة مع كل من الهند وسيلان لم تنوقف .

أما فى البحر الأبيض المتوسط فإن خطوط الملاحة كانت تمتد من الأسكندرية إلى جميع الموانئ الرئيسية^(٢) .

ولكن يجب أن نذكر تعبيراً جديداً حدث فى خطوط الملاحة ، وهو أن الخط بين الأسكندرية والقسطنطينية أصبح أهمها بدلاً من خط روما . والسبب فى ذلك التغيير هو تحويل القمح المصرى من روما إلى القسطنطينية التى اتخذها قسطنطين عاصمته الجديدة فى ١١ مايو سنة ٣٣٠^(٣) . ومع ذلك فيبدو أن العلاقة التجارية بين مصر وروما لم تهمل كثيراً . فهذا هو القديس جيروم فى سنة ٤٠٢ م يخاطب الرومان بقوله : « وها أنا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الأسكندرية إلى روما »^(٤) .

أما عن صادرات مصر فهى معروفة : القمح طبعاً ، ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والعطور والتوابل . ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن ؛ كما

(١) Sammelbuch. 7756 (259 A. D.)

(٢) أنظر بيان دقلديانوس عن الأسعار

New Fragments, T.A.P.A. (1940) 57 ff.

وقائمة الطرق الملاحية المتصلة بالأسكندرية فى

Johnson-West, op. cit. 140.

وأضف إليها عن القسطنطينية :

John Moschus, Pratum Sprituale 75—6

Jones, Constantine, 232—8

(٣)

St. Jerome, Epist. 91. 1.

(٤)

أن تجارة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلود ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق .

أما من الواردات الأساسية فهي أن المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح) والمحور والحريير والطور والتوابل من أجل صناعاتها محلياً وإعادة تصديرها . وفي دراسة حديثة لهذه الواردات اتضح أنها كانت تأتي إلى مصر من شتى بقاع العالم من الصين والهند شرقاً إلى أسبانيا وبريطانيا غرباً^(١) . وما من شك أن ما لم يكن يصدر من هذه الواردات كان يباع في الإسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة البورجوازية المزدهرة في هذه المدينة ، وكذلك كبار الأسر الغنية في الريف .

أما الطبقة البورجوازية في الريف فقد انكشبت كثيراً في هذا العصر ، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة ؛ أما سائر السكان فكان أكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير .

أما عن موقف الدولة من هذه التجارة ، فيبدو أنها كانت حرة في أيدي الأفراد ؛ باستثناء الجزية التي كان على مصر إرسالها إلى روما أولاً والفسططينية بعد ذلك . ويوضح وجود هذه التجارة الحرة البيان الذي أصدره دقلديانوس لتعديد أسعار السلع ، فهو في هذا البيان يتحدث عن جشع التجار وطمعهم في أكثر من موضع ، ولكن يهملنا بصفة خاصة قوله : « إن هذا البيان العالي سيصبح بمنابة ضابط بين المشتري والتجار الذين يزورون الموانئ والولايات الأجنبية عادة ، فحين يعلمون أنه عندما ترتفع الأسعار لا يستطيعون أن يتعدوا

Johnson-West, Op. cit., 137—151; also see West, (١)
Phases of Commercial life in Roman Egypt, J. R. S.
(1917) 45 ff.

الأسعار المقررة للسلع . فيجب حسابان المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع ، حتى تتضح عدالة بياننا حين يمنع كل من تحدته نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعاراً أكثر ارتفاعاً ^(١) . »

نقطة أخرى لها طرافتها في مجال النشاط المالي مارسها كبار المولدين وهي القروض المالية في الخارج ، ففي وثيقة بردية من القرن السادس نجد مصريين يتعاقدون على اقتراض مبلغ من المال في القسطنطينية ، ومقدار الدين هو عشرون سوليدوس (Solidi) من الذهب ، بفائدة ٨ ٪ . ورغم أن العقد تم في القسطنطينية إلا أنه ينص على أن يرد الدين في الأسكندرية .

وأطراف هذا العقد هم المدينان وهما شخصان من قرية أفروديتو (كوم أشقاو في مصر الوسطى) والدائن ويسمى فلافيوس أناستاسيوس Fl. Anastasius الذي يصف نفسه بأنه ممول ورئيساً للبنك المقدس (أى الإمبراطورى في القسطنطينية) . وتفيدنا البردية فوق ذلك أن لهذا الممول الكبير « مكتب » (Apotheké) في الأسكندرية حيث يستطيع المدينان أن يدفعوا المبلغ المقرض بالإضافة إلى الفائدة المقررة ^(٢) .

مثل هذه الوثيقة توضح أيضاً العلاقات المالية الوثيقة التي ربطت الأسكندرية بالقسطنطينية . فكتب أناستاسيوس موجود بالأسكندرية ليقوم بوظيفتين : الأولى عقد الصفقات التجارية والثانية القيام بأعمال البنوك الدولية . فالمبلغ الذي سيدفعه المدينان المصريان في الأسكندرية لم يكن يرسل إلى القسطنطينية ، وإنما كان يبقى في الأسكندرية ليستغل في عقد الصفقات التجارية . وتظهر لنا هذه

Preamble to the Edict, ed. by Elsa Rose Graser, in T. (١)
Frank, Rome and Italy of the Empire; also T.A.P.A.
(1940) 57 ff.

P. Cairo Maspero II. 67126 (Jan. 7th 541 A. D) (١)

الوثيقة أيضاً كيف أن كبار الممولين في القسطنطينية قد حلوا محل ممولى روما في عصرها الإمبراطورى الأول ، وكان لهم مكانهم ووكلاءهم في الأسكندرية كما كان لسابقيهم من الرومان . كان بعض هؤلاء الأثرياء من أهل القسطنطينية من أصحاب الثقافات اليونانية الراقية ، وكثيراً ما تمسكوا بالعقائد الوثنية القديمة . وفي ظروف اضطهاد الوثنيين القاسية ، وحين تضيق بهم الحياة في القسطنطينية ، كان في استطاعتهم أن يفروا إلى مصر وأن يحنثوا فيها مستعنيين بأموالهم هناك . ويمكننا أن نورد مثالا على ذلك وهو أجابوس الهليني ، وكان من كبار الموالين في القسطنطينية . ويصفه الكاتب المسيحي سوفرونيوس بقوله « ولم يقصر نشاطه على الأعمال المالية فحسب ، بل كان متحدثاً مشهوداً له باللغة اليونانية ، شديد الولع باقتناء التماثيل ، وكان يخدم الخلق ضد الخالق » وحدث أن ألقى القبض عليه في القسطنطينية ، ولكنه تمكن عن طريق الرشوة أن يفر من الحبس وأن يذهب إلى الأسكندرية ، حيث مرض ومات . واختياره الأسكندرية دون سائر أرجاء الإمبراطورية تبعث على الاعتقاد بأنه كانت له أعمال وأموال هناك .

مثل هذه الأخبار من ناحية أخرى تبين مدى السمعة العالية التي كانت للأسكندرية كسوق عالمية للتجارة والاستثمار؛ وأن الحياة المالية في المدينة كانت من التعقيد والثراء ما يفسر قدرتها على ممارسة تجارتها العالمية مدى قرون طويلة.

ويمكننا أن نضيف هنا كلمة أخيرة عن نشاط الكنيسة في مجال التجارة الخارجية . فكما كان للكنيسة أملاك في الأرض شملت كثيراً من القرى ، كذلك عملت الكنيسة على استغلال أموالها في التجارة الخارجية التي كانت مصدر ربح وفير ، ويتضح لنا هذا النشاط بصفة خاصة في سيرة القديس يوحنا الذي تولى أمر الكنيسة في مطلع القرن السابع ، فسيرة هذا الأسقف الذي

الرحيم تكشف عن مدى ثراء الكنيسة إلى درجة أنها امتلكت أسطولا تجارياً في البحر الأبيض المتوسط . وقد استخدم هذا الأسطول في استيراد القمح من صقلية في أثناء مجاعة نزلت بالبلاد^(١) ؛ وفي مناسبة أخرى أرسل إمدادات كثيرة إلى بيت المقدس حين هاجمها الفرس^(٢) ؛ وفي مناسبة ثالثة نسم أن ثلاث عشرة سفينة من سفن الكنيسة ، كل منها يحمل بعشرة آلاف أردب من القمح أغرقت في عاصفة في بحر الأدرياتيك . وبالإضافة إلى القمح حملت هذه السفن ملابس وفضة وأشياء أخرى قيمة^(٣) .

وأخيراً نسم أن هذا الأسقف أعار سفينة من سفن الكنيسة لتاجر تحطمت سفينته ، وأن هذا التاجر أبحر بعشرين ألف أردب من القمح إلى بريطانيا ، واستبدل قومه بصفيح — إذ توجد في بريطانيا مناجم هذا المعدن — ولكن حدثت بعد ذلك معجزة وهي أن الصفيح تحول إلى فضة أثناء رحلة العودة^(٤) .

John Almsgriver, 13

(١)

Ibid., 9 and Suppl. 20.

(٢)

Ibid., Suppl. 28.

(٣)

Ibid., 10

(٤)

هـ - نشأة الرهبنة المسيحية في مصر

تعتبر نشأة الرهبنة المسيحية في مصر البيزنطية من أهم مظاهر الحياة في ذلك العصر ، وخير تعبير عن الروح التي سادته ؛ كما تعتبر من ناحية أخرى أهم ما ساهمت به مصر في بناء حضارة العصور الوسطى المسيحية بوجه عام . ويجب أن نذكر في هذا المجال أن الرهبنة ليست قاصرة على المسيحية أو أن المصريين سبق الناس إلى ممارستها ؛ بل لقد عرفها الإنسان في تجربته الدينية في أمم مختلفة قديمة . ففي الهند ابتدأها بوذا منذ القرن السادس ق.م . ، ووضع لها أسساً وقواعد^(١) . ومن البوذية انتشرت في الأديان الهندية الكبرى ثم انتقلت إلى بلاد أخرى مجاورة مثل التبت والصين وغيرها . وفي منطقة الشرق الأوسط عرفت جماعات من اليهود في فلسطين قبيل ظهور المسيحية وانتشارها مثل جماعات الإيسينيين (Essenes) والناصريين (Nazarites) . ومع ذلك فلم تعرف المسيحية نظام الرهبنة إلا في مصر أولاً ، ومن مصر انتشرت إلى جميع الأرجاء التي انتشرت إليها المسيحية ، ومن ثم دخولها أوروبا منذ بداية القرون الوسطى . ولهذا كانت كل دراسة للرهبنة المسيحية ونشأتها تتجه إلى مصر فقط للبحث عن أصولها وطبيعتها .

أما عن الرهبنة أو التنسك الديني في مصر قبل المسيحية فيمكن تتبع أصولها في أكثر من مكان . ومن أمثلة ذلك ما كشفت عنه مجموعة كبيرة من أوراق

(١) أنظر عرضاً جيداً لحركة الرهبنة البوذية في :

Heinrich Hackmann, Buddhism, in Religions of the World, ed. by Carl Clemen, pp. 306 ff.

(translated by Rev. A. K. Dallas, London, 1931)

البردى التى ترجع إلى العصر البطلمى وثبتت وجود حركة تنسكية (Katoché) حول معبد السرايوم فى ممفيس . ومن دراسة هذه الوثائق نقبين أن أفراداً من شتى الطبقات كانوا بناء على انفعال دينى يندرون للإله نساكا وعبادة ، متوحدين فى قلالى ، منقطمين عن حياة المجتمع فى شتى مظاهره ، ونعلم أيضاً أن من هؤلاء النساك (Katochoi) من بقى طوال حياته متنسكا ، ومنهم من كان تنسكه لفترة معينة يعود بعدها إلى الحياة الدنيا ^(١) . وقد وجدت حركة تنسكية أخرى بين طبقة الكهنة فى هليوبوليس فى الفترة التى سبقت المسيحية مباشرة . فكان هؤلاء الكهنة الرهبان ينقطعون عن جميع أعمال المعبد المختلفة من أجل التعبد والتأمل ، وكان سيبلهم فى ذلك هى سبيل النساك المألوف من التوحد والتشف والمبالغة فى العبادة والصلاة ^(٢) . ولكن يجب أن نلاحظ أن حركة التنسك فى هليوبوليس كانت تختلف عن نساك سرايس فى ممفيس وعن الرهبنة المسيحية ، فى أن نساك الإله آتون كانوا من بين الكهنة فقط ، أما نساك سرايس فكانوا من عامة الناس ، ومن هنا كانت أهمية هذه الفئة الأخيرة . وأخيراً يمكننا أن نضيف إلى هذه الحركات التنسكية ما ظهر بين اليهود فى الأسكندرية ، وهى التى عرفت بحركة الثيرابيين أو الشافين (therapeutai) فى القرن الأول الميلادى وقد أفرد فيلون للفيلسوف اليهودى الأسكندرى لوصف هذه الحركة كتاباً

(١) قام فلكن بنشر ودراسة هذه الوثائق البردية وتعتبر مقدمته لها أحسن دراسة لهذا الموضوع حتى الآن : U. Wilcken, Urkunden der Ptolemäer — Zeit : I, Papyri aus Unterägypten, Berlin, Leipzig وهناك عرض لهذا الموضوع فى كتاب (1922). H. I. Bell, Cults and Creeds, pp. 21—22.

(٢) Evelyn White, The Monasteries of Wadi n'Natrûn, II. p. 6.

خاصاً^(١)، وقراءة ما كتبه فياؤون تبين أن هؤلاء الشافيين كانوا يعيشون في شكل مستعمرة تنسكية بالقرب من الأسكندرية، وإن نظام حياتهم شديد الشبه بحركات الرهبنة المسيحية الأولى، فكانوا رجالاً ونساءً يهجرون المجتمع ومافيه من روابط اجتماعية، ويمسكون عن شرب الخمر وأكل اللحم، وكانوا ينقطعون للعبادة والتأمل والصلاة. وكانوا يعيشون في مساكن متفرقة ولهم دار عامة للاجتماع والصلاة العامة^(٢).



يتضح من هذه المقدمة أن التنسك والرهبنة الدينية كانت لها أصول في البيئة المصرية قبل المسيحية. ومن الغريب أن الرهبنة المسيحية لم تأخذ من هذه المحاولات والتجارب القديمة مباشرة، وإنما أخذت بدايتها من ظاهرة مصرية قديمة أخرى بعيدة كل البعد عن التقاليد الدينية. ذلك أن المصري القديم كان قد ألف في ظروف الضيق أن يفر من المدينة أو القرية إلى الصحراء أو إلى أحراج المستنقعات، كان يفعل ذلك حين يعجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه، فكان يفر من وجه الحكومة خشية العقاب الشديد الذي يصيبه في هذه الظروف، وكان يطلق على مثل هذا الشخص لفظ الهارب أو الختفي anachorètes في المصريين اليوناني والروماني. وهذا هو السبيل الذي سلكه المسيحيون الأولون، فحين تعرضوا لحملات الاضطهاد العنيفة في تاريخهم الأول، لم يجد كثيرون منهم بدا من الفرار من وجه الدولة والاختفاء في الصحراء والجبال حفاظاً على دينهم وعقيدتهم، وقد أطلق على مثل هؤلاء الأفراد اللفظ القديم ذاته (anachorètes) ولدينا نص قديم

De Vita Contemplativa

(١)

(٢) بالرغم من احتمال مبالغة فيلون في وصفه لحركة الشافين، ليس هناك ما يدعو إلى الشك في حقيقة وجود حركة الشافين بجوار الأسكندرية.

(كما يشك O'Leary, Legacy of Egypt, 318)

وقد سقت الإشارة إلى وجود حركات مشابهة في فلسطين أيضاً.

مشهور بين انتشار هذه الظاهرة بين المسيحيين الأولين ، وهو رسالة ديونيسيوس أسقف الأسكندرية في وصف اضطهاد دقيوس عام ٢٥٠ ، إذ يقول : « وهل هناك حاجة إلى ذكر جماعات أولئك الذين ضربوا في الصحارى والجبال وهلكوا من الجوع والعطش والصقيع والأمراض أو بفعل اللصوص والوحوش الضارية ^(١) » ومنهم من عاد فروى ما حدث وما تحملوا من أهوال ، ومنهم من لم يعد ، لأنه هلك أو لأنه آثر حياة العزلة في الصحراء . على أن الشائع أن أكثرهم كان يعود إلى موطنه بمجرد شعوره بالاطمئنان إلى انتهاء خطر الاضطهاد ، لأن الاضطهادات لم تكن مستمرة . ولكن يحتفظ تاريخ الكنيسة الأول بذكرى شخصية مصرية قديمة ، يجعله نقطة البداية في نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ، وهو الأنبا بولا أو بولس من طيبة في أعالي الصعيد الذي خرج أثناء اضطهاد دقيوس إلى الصحراء الشرقية ولكنه لم يعد . فنشأت حوله أساطير تروى أنه قرر البقاء في الجبال من أجل العبادة وأنه عاش حتى العام الثالث عشر بعد المائة ، وأنه في هذه الحياة الطويلة قابل كثيراً من الأهوال وحدثت له معجزات ^(٢) .

قصة الأنبا بولا قصة أسطورية ، هذا أمر لا شك فيه ، ومع ذلك فهي ذات أهمية تاريخية ، لدلالاتها على أن بعض المسيحيين الأولين وجدوا الحياة في قرايم ومواطنهم الأصلية غير محتملة ، فسلكوا سبيل الاختفاء والاعتزال في الصحارى ، حيث كانت أهوال الطبيعة أخف عليهم من أهوال العذاب والاضطهاد على أيدي الإدارة وممثلها .

(١) أنظر لس الرسالة في يوسيبوس Eusebius, Hist. Eccl. VI. 42. 2.

The Paradise of Palladius, II. 18.

(١) أنظر

هكذا بدأت حركة الاعتزال والتنسك المسيحي الأولى في مصر الرومانية^(١)، وكانت في بدايتها على هذا النحو حركة فردية، ولكنفها لم تبقى على هذا النحو طويلاً وسرعان ما انتقلت إلى المرحلة الثانية من حياة الرهبنة أو التنسك الجماعية. وهي في هذه المرحلة تحمل كثيراً من أوجه الشبه مع النظم التنسكية التي كانت موجودة في الأديان القديمة السابقة على المسيحية. وصاحب الفضل في إدخال نظام الحياة الجماعية على الرهبنة المسيحية هو القديس أنطونيوس من مدينة كوما (هرقليوبوليس) في مصر الوسطى. وهو شخصية تاريخية لعب دوراً في أحداث القرن الرابع، مناصراً أثناسيوس ضد أريوس، وسيرة حياته كما كتبها أثناسيوس نفسه (Vita Antonii) وأعاد صياغتها القديس جيروم^(٢)، سيرة واضحة المعالم بعيدة عن المبالغات والطابع الأسطوري مما تتصف به سيرة الأنبا بولا السالفة الذكر. وسيرة أنطونيوس تدلنا على أنه مصري صميم، أمي لا يتكلم غير اللغة القبطية، ولد لأبوين مومسين في منتصف القرن الثالث. ولما ناهز أنطونيوس العشرين كان قد فقد أبويه وورث عنهم ثروة تقدر بثلاثمائة أروزال (ما يعادل ١٥٠ فداناً تقريباً).

ولكن نظراً لنشأته المسيحية الأولى، إذ كان أبواه مسيحيين، وليله الشخصي إلى الحياة الدينية، إذ كان كثير التردد على الكنيسة، بدأ ينجح إلى حياة العمل والعبادة في قريته.

(١) عن حركة الرهبنة المسيحية في مصر أنظر مقال د. عزيز سوريال عطية في «رسالة مار ميخا عن الرهبنة القبطية» ص ١٤٧ - ١٨٢.

O'Leary, in *Legacy of Egypt*, pp. 317—332;
E. R. Hardy; *Christian Egypt*, pp. 35—9, 69—76, et saepe.

(٢) أنظر أيضاً O. F. A. Meinardus, *Morks and Monasteries of the Egyptian Deserts*, 11 ff.

وبعد ذلك نتيجة لانفعال ديني قرر بيع بعض ما ورث من الأرض ووزع
 ثمنها بين الفقراء ، وأبقى من الأرض ما كان كافياً لحياة أخته الصغرى . ثم
 استبدت به الرغبة بعد ذلك في أن يهجر حياة القرية نهائياً ، فعهد بأخته إلى
 جماعة من العذارى المسيحيات اللاتي كن يتعبدن في حجر الكنيسة ، وباع ما بقي
 من الأرض ، وقرر هو اتخاذ حياة النسك لنفسه . فعبر نهر النيل إلى الصحراء
 والجلال الشرقية ، وأقام في بقايا قلعة مهجورة في موقع يقال له پسبير Pispir
 نحواً من عشرين عاماً (بين عامي ٢٨٥ و ٣٠٥ تقريباً) . وكثيراً ما تردد عليه
 أصدقاؤه ومحبه ، جالين له القليل من الزاد الذي كان يحتاج إليه ، فكان
 يتحدث إليهم عن تجاربه في الاعتزال والتنسك ، وعن مواقفه مع شياطين
 الصحراء ، وأساليب الإغراء والامتحان التي تعرض لها وقاومها .

وسرعان ما ذاع صيته ، وأقبل عليه المسيحيون من كل صوب عن أخذوا
 أنفسهم بحياة التنسك ، طالبين التلمذ على يديه والتعلم من تجربته . وهكذا
 نشأت حركة رهبانية جماعية حول القديس أنطونيوس في مصر الوسطى ولكنها
 لم تصل بعد إلى نظام الرهبنة الجماعية الكاملة ، لأن الناسك عاشوا متجاورين
 فقط ، ولكن كل واحد منهم أقام منفرداً في قلاية أو كهف ، والرابطة الوحيدة
 بينهم هي التفاهم حول زعيمهم أنطونيوس ، الذي كان له دور الأستاذ والموجه
 الروحي ، ولم تكن له صفة الرئيس بحال من أحوال .

ولكن بعد عام ٣٠٥ عاوده الحنين إلى حياة الاعتزال والانقطاع الديني
 فهجر « پسبير » إلى كهف في الجبال الشرقية المشرفة على البحر الأحمر ؛ وبقي
 هناك حتى آخر حياته ، غير أنه كان يتردد على أتباعه عند پسبير يزورهم ويرشدهم
 بنصائحه وتوجيهاته .

ويبدو أن القديس أنطونيوس لم يكن من أولئك الناسك الذين انقطعوا

عن الدنيا قفسوها ونسألم الناس ؛ إذ يبدو أن علاقته بالحياة في مصر استمرت قوية ، وكان على علم تام بحقيقة القضية المسيحية في تلك الفترة . كما أن المسيحيين في مصر ، عدا من تنسك منهم ، كانوا شديدي التعلق والإعجاب به ، وكانوا ينظرون إليه نظرة فيها كثير من الإكبار والإجلال . وليس أدل على أهمية القديس أنطونيوس من أنه ترك عزلته وعاد إلى مصر في موقفين عصبيين تعرضت فيهما المسيحية المصرية لخطر شديد . الموقف الأول حين سلط الإمبراطور مكسيمينوس موجة اضطهاد قاسية عام ٣١١ ، فنزل أنطونيوس إلى الوادي يزور المسيحيين داخل السجون وخارجها يثبت من عزائمهم ويقوى من إيمانهم ، حتى وصل الأسكندرية ذاتها معرضاً نفسه لشقي الأخطار والموقف الثاني في سنة ٣٣٨ زمن الإمبراطور قسطنطين ، حين تعرضت الكنيسة المصرية للانقسام بسبب الخلاف العقائدي الذي نشأ بين أثناسيوس وأريوس . وكان أثناسيوس بطريرك الكنيسة في الأسكندرية ، فذهب إليه أنطونيوس لساندته وتوحيد كلمة المسيحيين حوله ضد أريوس .

ولم تكن بسير هي المنطقة الوحيدة التي نشأت فيها حركة رهبانية جماعية في مصر ، فقد عاصرت الرهبة الأنطونية ، حركات رهبانية أخرى في أماكن متعددة من مصر ، في منطقة طيبة في أعلى الصعيد ، وفي منطقة مدينة البهنسا (Oxyrhynchos) وإسنا (Latopolis) والشيخ عباذة (Antinoe) ، وليكوس (Lycūs) بالقرب من أسيوط ، ومنطقة وادي النطرون في شرق الدلتا . ووصول الرهبة إلى شمال مصر عند وادي النطرون في وقت مبكر من القرن الرابع له أهميته لمتاخمة هذه المنطقة لمدينة الأسكندرية . إذ كان معنى ذلك أن الرهبة المسيحية التي نشأت بمصرية تماماً ، قد غزت البيئات ذات الصبغة الإغريقية في مصر منذ

وقت مبكر . فقد وجد في أديرة وادى النطرون رهبان من المصريين والإغريق على السواء (إلى جانب بعض الجنسيات الأخرى) . ويقول بلاديوس الذى زار هذه المنطقة في نهاية القرن الرابع أنه وجد بها أكثر من خمسة آلاف راهب^(١) .

أما عن نظام الرهبنة في وادى النطرون فهو نظام الرهبنة الأنطونية الذى ساد في أديرة مصر الوسطى والدلتا أى شمال أسيوط (Lycopolis) وما من شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادى النطرون ، وذلك للتفاصيل الكثيرة التى يوردها عدد من المصادر فى وصف أديرتها (كما فى التاريخ اللوسيانى ، ف ٧ ؛ تاريخ المتوحدين ، ٢١ — ٢٢) .

ومن هذا الوصف نعرف أن الرهبان فى وادى النطرون كانوا من طائفتين : « الأولى » تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نستريا ذاته ، كل له نظامه الخاص (politeia) حسب قدرته واستعداده . وكان يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو مثنى أو أكثر « وكانوا يجتمعون جميعاً للصلاة يوم السبت والأحد ، أما فى أيام الأسبوع الأخرى فكان كل يصلى فى صومعته أو ديره ، بحيث أنه إذا وقف الإنسان فى المساء فى تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع حوله ، فيظن أنه فى الفردوس .

أما الفئة الثانية من الرهبان فى تلك المنطقة فهم النسائك المعتزلون (Anachoretæ) الذين يعيشون متوحدون فى جوف الصحراء كل فى

(١) يذكر بلاديوس فى تاريخه وجود خمسة آلاف راهب فى ثربا وألفين آخرين بالقرب من الاسكندرية (فى الفصل السابع) .

ويتفق سوسومن معه فى ذكر الألفى راهب قرب الاسكندرية

Sosomen, Hist. Eccl., VI. 29.

كهفه أو قلته ، بعيداً عن زميله . وهؤلاء يبلغون الستمائة عدداً . ولا يجتمعون
أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يومى السبت والأحد حين يشهدون
الصلاة الجامعة .

نلاحظ من هذا الوصف أن هذه الرهبة الأنطونية في مظهرها الديرى كما
وجدت في وادى النطرون كانت لا تزال تتميز بالطابع الفردى واستقلال كل
راهب في حياته الخاصة ، رغم حياتهم سوياً في أديرة أو صوامع . إذ لم يكن
هناك نظام موحد للحياة يخضع له جميع الرهبان . حقيقة مارس الشيوخ
نفوذاً على الشباب ، ولكنه نفوذ أدبى وشخصى محض ، ليس فيه
أى إلزام .

ويجب أن نضيف هنا أن حركة الرهبة في منطقة وادى النطرون تقتن
باسم اثنين من أئمة الحركة المسيحية في ذلك الوقت هما آمون الذى نزح إلى
هذه الصحراء في عام ٣٢٥ ، والقديس مكاريوس الأسكندرى وإليه ينسب
الدير الموجود الآن في وادى النطرون باسم دير أبو مقار ولا يزال إلى جواره
حتى اليوم أديرة ثلاثة أخرى هى السريان والبرموس وبشوى^(١) ، ولا زالت
حياة الرهبان فيها تحتفظ بكثير من طابعها الفردى الأول .

ولم تقتصر الرهبة الأنطونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضاً
اللائى لم تكن حياة الاعتزال لزاماً عليهن ، بل كان في استطاعتهم أن يقمن
بحياة الطهر والتفك في بيوتهن أو في جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى .
ومن أمثلة التفك بين النساء ما يكفي حياتها مع أمها عن طريق الغزل والنسج ،
وقد اكتسبت شهرة في عصرها بفضل الدور الذى قامت به لمنع إحدى المعارك

(١) أنظر O. Meinardus, *Morks and Monasteries*, pp. 117 ff.

المألوفة في مصر قديماً بين قريتين بسبب تقسيم مياه الري^(١). ويبدو أن إقبال الرجال على الرهبنة لأسباب مختلفة، سواء بدافع العاطفة الدينية العنيفة أو بدافع الهروب من تحمل أعباء الوظائف العامة أو العمل في الجيش الروماني، قد ترك كثيراً من النساء بغير أزواج: وهو وضع قد يؤدي إلى حالة أخلاقية خطيرة. ولذلك لجأ المسئولون عن الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل العذري حتى داخل بيوتهن، وراحوا يؤلفون الكتب التي ترشد العذارى إلى كيفية ممارسة هذه الحياة ومن أم هذه الكتب التي وصلتنا «رسالة التبتل العذري» التي كتبت في القرن الرابع والنسوبة إلى زعيم كنيسة مصر الأكبر القديس أنطاسيوس. ويتضمن الكتاب نصائح مبسطة على العذاراء مراعاتها في حياتها الخاصة، مثل المواظبة على قراءة الكتاب المقدس في المنزل، وأداء الصلاة في مواعيدها، وأن ترتدى ملابس متميزة حين تذهب إلى الكنيسة أو للعمل، وأنه يجب عليها أن تتناول عشاء بسيطاً بعد الساعة التاسعة، ومن المرغوب فيه أن تمسك عن شرب الخمر، أما إذا كانت تقيم مع عذارى أخريات ممن لا يراعين هذه القاعدة فخير لها أن تتناول القليل من الخمر حتى تتجنب الظهور بمظهر الكبرياء، ولكن إذا كان زميلاتهن المتقدمات في السن ممن يسرفن في الحديث، فيجب أن لا تنقادن في هذه العادة وأن تكون هي قدوة حسنة لهن. ثم هناك نصائح عامة أخرى مثل ضرورة مساعدة الفقراء والمحتاجين، وإذا قابلها «رجل فاضل» (أي راهب) فعليها أن تحسن لقاءه والاستماع إلى نصائحه^(٢).

في الوقت ذاته الذي ذاع فيه مذهب أنطونيوس «أبو الرهبان» في مصر

Palladus, Hist. Lausiaca, 2, 22, 31; of Hardy, Christian (١)

Egypt, p. 69.

Hardy, Christian Egypt, pp. 69—70.

(٢) أنظر

الوسطى والسفلى إلى الأسكندرية ، كان هناك علم آخر من أعلام المسيحية المصرية يعمل في جد وجهد منقطع النظير لتأسيس مذهب رهباني آخر في صعيد مصر الأعلى ، ذلك هو القديس باخوميوس^(١) الذي ولد في الجزء الأخير من القرن الثالث في إحدى بلدان إقليم طيبة القديم يقال لها كينوبوسكيون (Kynoboskion) ، ويقال إن مكانها الآن بلدة قصر الصياد في مديرية قنا . وكل ما نعرفه عن تاريخه الأول هو أنه خدم في الجيش الروماني تحت قسطنطين وليكنيوس ، وأنه في هذه الفترة تعرف على جماعة مسيحية لأول مرة في مدينة لاتوبوليس (إسنا الحالية) ؛ وأنه بمجرد تركه الخدمة العسكرية اعتنق المسيحية واتخذ سبيل الرهبة أيضاً ؛ وكان أستاذه في ذلك راهب يقال له بلامون (Palaemon) . ولكن باخوميوس من أولئك الرجال الذين يولدون ليكونوا قادة أو زعماء ، ولهذا سرعان ما ظهرت معالم شخصيته القوية ، فجمع حوله جماعة من النساك وأقنعهم بضرورة تأسيس نظام جديد للرهبنة الجماعية ، يحقق فكرة الحياة الجماعية بصورة أقوى وعلى نحو من التنظيم أدق مما هو حادث في الرهبة الأنطونية وبذلك أنشأ دير الأول في سنة ٣٢٣م عند تبئيس (Tabennisi) بالقرب من دندرة الحالية ، وبذلك بدأ نظام رهباني جديد يعرف بالرهبنة الجماعية الكاملة .

وسرعان ما انتشر النظام الباخومي الجديد حتى يقال إنه عند وفاة باخوميوس حوالي سنة ٣٤٥ كان قد شمل نظامه أديرة كثيرة في أماكن متفرقة في الصعيد الأعلى . وكان الطابع المميز لهذه الحركة الديرية هو خضوعها لنظام عام موحد يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد ، فهناك قانون عام

(١) يوجد عرض وافى لحركة باخوميوس في مقالة الدكتور عزيز سوريال في مجموعة « الرهبة القبطية » ص ١٦١ — ١٧٧

يخضع له الجميع ، وهناك رؤساء يجب أن يطعيمهم عامة الرهبان . وكان الرهبان في كل دير ينقسمون إلى بيوت منفصلة ، يضم كل بيت بين ثلاثين وأربعين راهباً ، عليهم رئيس ومعاون وغيرهما من الموظفين .

ولم تكن حياة الدير الباخومي قاصرة على العبادة والتنسك ، وإنما أشبه بمستعمرة اقتصادية يكاد يكتفي أهائها اكتفاءً ذاتياً ، فكانت البيوت منظمة على أساس الصناعات والحرف ، فهناك بيت للخبازين ، وبيت للنجارين ، وبيت للحدادين ، وبيت للزراع ، وبيت لانسخي الكتب وهكذا . .

وبالرغم من أن الأكثريّة الغالبة من الرهبان الباخوميين كانوا من الأقباط المصريين ، إلا أنه سمح للأجناس الأخرى أن تنضم إلى هذه الأديرة ، ولكن أفرد لكل عنصر بيت خاص للإغريق والسريان واللاتين وغيرهم من انتظموا في سلك الرهبة الباخومية . ولعل هذا هو الأصل في منشأ النظام الذي ورثته الجامعات في العصور الوسطى ، حيث انتشر نظام البيوت والأروقة للأجناس المختلفة . فكان في جامعة باريس خمس أمم تشمل الفرنسيين والإنجليز والنورمنديين والبكرديين والنرمان والبريطان ، ثم هناك نظام الأروقة المشهور الذي ساد في الجامعة الأزهرية إلى عهد قريب مثل أروقة الصعايدة والبحاروة والمغاربة والشراقوة والأحباش وغيرهم^(١) .

على أن من أهم مظاهر نظام الديرية الباخومية هو الجانب التعليمي الذي قضى بوجوب تعليم الراهب القراءة والكتابة ومعرفة الكتاب المقدس عن ظهر قلب كشرط أساسي^(٢) .

أما في جانب التعبد والتنسك ، فكان النظام الباخومي أقل صرامة ، وظهر

(١) أنظر مقالة الدكتور عزيز سوريال السالفة الذكر من ١٧٢ .

(٢) المرجع ذاته من ١٧٠ .

فيه المنصر الفردى الذى تميزت به الرهينة المصرية عموماً . فرغم أنه كانت هناك وجبات عامة للطعام ، إلا أنه ترك للأفراد حرية الأكل والصيام كيفما يشاءون . ورغم أنه كانت هناك صلاة عامة للجميع ، فكانت معظم الواجبات الدينية تتم عن طريق البيوت ، وللأفراد أن يصلوا فى قلوبهم كيفما شاءوا^(١) .

ويجب أن نذكر أيضاً أن الديرية الباخومية لم تقتصر على الرهبان بل شملت الراهبات فى أديرة خاصة بهن ، ومن المعروف أن أنشى ديرين للراهبات إلى جانب تسعة أديرة للرهبان فى أعلى الصعيد أيضاً ؛ وأن جميع هذه الأديرة للرهبان والراهبات كانت تتبع رئاسة باخوم الشخصية المباشرة وأنه كان يقوم بجولات تفتيشية عليها ليتأكد من حسن سير العمل فيها جميعاً^(٢) ، وقد استمر الأمر كذلك من بعده .

هذه هى معالم الديرية الباخومية ، وهى وإن كانت من ناحية النظام الإدارى والاقتصادى تمثل أرقى أنواع الديرية القبطية ، إلا أنه من الناحية الروحية البحتة بقى للرهبان الأنطونييين ورهبان وادى النطرون الصدارة فى هذا المجال ، ويكفى أن نذكر هنا قصة زيارة أبو مقار من منطقة وادى النطرون متخفياً لدير تابنيسى (Tabennisi) حيث أظهر من ضروب القدرة على الصيام والعبادة والتقىشف ما أذهل الرهبان الباخوميين ، فهمسوا فيما بينهم قائلين : « إنه رجل بلا جسد »^(٣) .

وقد وجدت حركات ديرية أخرى بعد ذلك ، فعمل على الربط بين النظامين

(١) أنظر فكرة الاختيار .

Butler, The Historia Lausiaca of Palladius, 237.

Hardy, Christian Egypt. 71.

(٢)

Palladius, Laus. Hist., 38—9.

(٣)

الأنطوني والباخومي ، ومن أشهرها الأديرة الميليطية وحركة الأنبا شنوده . وتنسب الأديرة الميليطية إلى ميليطيوس الذي كان يتخذ موقفاً متشدداً من قضية المرتدين أثناء اضطهاد دقلديانوس في مطلع القرن الرابع ، ثم أصبح لأتباعه أديرة ومراكز كثيرة في مصر الوسطى ، وتتميز هذه الأديرة بنظام أكثر ديمقراطية من النظام الباخومي^(١) ولكن هذه الحركة لم تدم طويلاً ، وخاصة بعد الوصول إلى اتفاق بينهم وبين كنيسة الأسكندرية كما سبق أن بينا في فصل سابق .

أما الأنبا شنوده فقد تعلم في أحد الأديرة الباخومية ، ولكنه لم يرض ذلك النظام ، فأتخذ لنفسه نظاماً جديداً طبقه في ديرين هما « الدير الأبيض » و « الدير الأحمر » في منطقة سوهاج .

وقد حاول أن يجعل حياة الديرية أكثر صرامة ودقة من نظام باخوميوس ، ولذلك قرر أن يقصر حق دخول أديرته على الأقباط من المصريين فحسب ، ورفض جميع العناصر الأخرى التي كان يسمح لها بالانضمام إلى أديرة باخوميوس ، ثم إنه وضع بعد ذلك نظاماً دقيقاً للحياة في الدير ، لا يتردد في تطبيق العقاب الشديد على كل من يتهاون في القيام بمسئوليته أو يسيء السلوك ، ولو بلغ الأمر إلى حد الضرب المبرح .

على أن أهمية شنوده لا تقتصر على حركته الديرية ، وإنما ترجع أيضاً أنه كان ذا ذوق أدبي ، وقد بقيت الكثير من دروسه وعظاته التي كتبها باللغة القبطية بلهجة منطقة أخميم ، وقد ذاع أمر كتاباته بعد ذلك حتى أصبحت اللهجة التي كتب بها هي لغة الكنيسة القبطية لمدة قرون كثيرة^(٢) .

Bell, Jews and Christians, pp. 38 ff.

(١) أنظر

O'Leary, Legacy of Egypt, 320—1.

(٢)

هكذا نشأت الرهبنة المسيحية في مصر وأصبح لها نظم وقواعد مطبقة وممارسة على نطاق واسع جداً منذ القرن الرابع . وسرعان ما انتشرت خارج مصر إلى اليونان وسوريا والعراق ، ثم إلى إيطاليا وأسبانيا وفرنسا حتى وصلت إلى أيرلندا غرباً في فترة وجيزة جداً .

د- الحياة الثقافية

أما عن الحياة الثقافية في العصر البيزنطي فقد اتخذت مظهراً وطابعاً جديداً ، نتيجة لتغير الظروف العامة في الإمبراطورية بأسرها ، ونقصانها سيادة الدين المسيحي الجديد واتخاذها ديناً رسمياً للدولة . فبعد القرن الرابع الميلادي وإعلان الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية ، وجدنا المسيحية تشغل الناس وتسيطر على النشاط الفكري والثقافي في الإمبراطورية . وكانت مصر والألكندرية بصفة خاصة إحدى المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بينا ، ولم يكن غريباً أن تساهم مصر والألكندرية بنصيب وافر في الحركة الثقافية الدينية الجديدة . وكان محور هذه الحركة هو الكتابة في شرح الدين الجديد . وتمجيد أبطاله الأول ، وحين انقسم المسيحيون في القرن الرابع إلى مذاهب و فرق ، وجدنا أتباع كل مذهب و فرقة يؤلفون ويكتبون في الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنها . ومن أشهر هذه الانقسامات ما حدث بين أريوس وأثناسيوس وقد سبقت الإشارة إلى طبيعة هذا الخلاف وتطوره وآثاره السياسية ، وبهنا هنا أن نشير في إيجاز إلى المظهر الثقافي لهذه الحركة الدينية . فقد كان كلا الزعيمين من أكثر أهل العصر ثقافة و حدة عقل . أريوس ينتهي إلى مدرسة أنطاكية المسيحية التي كانت متأثرة بتعاليم أوريجينيس المشبعة أساساً بالفلسفة الأفلاطونية . ولهذا جاءت نظراته إلى الدين نظرة فلسفية و خرج بنظريته الثورية التي تدعو إلى الفصل بين الإله الأب والمسيح الابن ، بناء على ألوهية الأب وإنسانية الابن . وكانت له كتابات ورسائل في إثبات وجهة نظره والدعوة

لها ، ولكن نظراً لانتهزام مذهبه أمام كنيسة الأسكندرية وغيرها بزعامة القديس أنثاسيوس فقد هلكت كتاباته واعتبر مذهبه هرطقة وإلحاداً ، وما وصلنا منها جاء عن طريق كتابات خصومه الذين تصدوا لتفنيدها .

وأخطر خصومه جميعاً وأعظمهم من غير شك القديس أنثاسيوس . ونحن لا نكاد نعلم شيئاً يقينياً عن نسب هذا الرجل الفذ وأبوتة ، ولكن هناك من الدلائل ما يرجح أنه من أصل مصري . وكل ما نعرفه عن طفولته أنه نشأ بمدينة الأسكندرية واستطاع بمقله المباح أن يصيب من ثقافة المدينة أكبر قدر مستطاع . ونظر الماتصفت به نفسه من البساطة والبعد عن التعقيد ، مع الحماس الديني الدافق ، وجدنا أسلوبه في الكتابة اليونانية يتصف أيضاً بالبساطة والوضوح مع القوة في التعبير . ومن أشهر الأمثلة على ذلك مجموعة كتابته في دحض الدعوة الأريوسية *Historia Arianorum* . ومن كتاباته ذات الأهمية التاريخية أيضاً ما يتحدث فيه عن مواقفه الدينية وأعماله مثل *Apologia de fuga sua* ؛ كما أن كتابه عن حياة القديس أنطون يعتبر من أقدم وأهم الكتابات عن نشأة الرهبانية المسيحية . وغير ذلك كثير ، ولا يسعنا في هذا المجال أن نفصل القول تفصيلاً .

وبنفي هنا أن نذكر شيئاً أيضاً عن الأدب القبطي . وقد سبقت الإشارة إلى نشأة اللغة القبطية بين المصريين في الوقت الذي ذاعت فيه المسيحية وانتشرت . وبالرغم من أن كنيسة الأسكندرية والمسيحيين في المدينة استمروا يستخدمون اللغة اليونانية ، فإن الأقباط المصريين جعلوا اللغة القبطية لغتهم في مراحلهم التاريخية الجديدة .

وسرعان ما دونوا بها الأدب الجديد ، مبتدئين بالإنجيل ثم الدعوات

والأناشيد الدينية ، ثم توسعوا كثيراً في التأليف بها عن سير آباء الكنيسة الأولين وخاصة سير القديسين المصريين .

ويمكننا هنا أن نشير إلى مثل واحد منها وهو سيرة القديس مينا ، الذي استشهد في الاضطهاد الكبير زمن الإمبراطور دقلديانوس ، ودفن رماده (أو هكذا اعتقد القدماء) في المنطقة التي تنسب إليه إلى الآن في الصحراء جنوب غرب الأسكندرية . والكتاب^(١) ينقسم إلى أجزاء ثلاثة : الاسقشهاد والمعجزات والتمجيد . وغنى عن البيان أن مثل هذه الكتابات القبطية ؛ هي في واقع الأمر نوع من الأدب الشعبي الديني ، الذي تغلب عليه البساطة المفرطة : بساطة في الأسلوب وبساطة في التفكير .

ولا غراباً فوسوعها الأساسي هو المعجزات أى الأعمال — وكثير منها خرافي — التي لا تخضع لقوانين الطبيعة وقدرات الإنسان المألوفة . ولذلك غلب على هذه الكتابات المبالغة النابعة عن العقل الديني الساذج .

ولعل من المناسب أن نختم حديثنا عن الحياة الثقافية بكلمة عن مدارس الأسكندرية وجامعتها . استمرت الأسكندرية في العصر البيزنطي مركزاً للعلم والثقافة يقصد إليها الدارسون من شتى الأقطار . فقد استمرت المدرسة الوثنية بها تتمتع بشهرة عالمية في الفلسفة والرياضة ، مما اضطر الكنيسة إلى أن تنشئ في المدينة مدرسة مسيحية قوية تقاوم المدرسة الوثنية وتنافسها ، ولتجذب إلى المسيحية الشباب الجديد .

وكثيراً ما حضر الشباب إلى الأسكندرية لدراسة العلوم الإنسانية (أى الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة في القرنين

J. Drescher, Apa Mena, le Caire, 1946.

(١)

الرابع والخامس . ومثال ذلك القديس سيفيروس الذى جاء من أنطاكية وكان لا يزال وثنيًا ، ودرس العلوم الوثنية فى جامعة الأسكندرية . وهناك التقي بعدد من أعلام العصر مثل زكريا من غزة ، وتوماس الفيلسوف من غزة وريثودوتوس من لسبوس ، وباراليوس من كاريا (آسيا الصغرى) .

ويرسم لنا زكريا فى كتابه عن سيرة القديس صورة واضحة عن انقسام كل من الأساتذة والطلبة بين المدرستين الوثنية والمسيحية وما كان يحدث بينهم من خلاف بشأن قضايا الدين والفلسفة ، وذلك مثل ما حدث من خلاف أدى إلى شجار من الجانبين حينما اغتنق باراليوس من كاريا الدين المسيحى^(١) .

أما سيفيروس نفسه ، فبعد أن أتم دراسة الفلسفة والأدب فى الأسكندرية ذهب إلى بيروت حيث أعلن اعتناقه للمسيحية ودخل أحد الأديرة راهبًا ؛ ثم أصبح فى عام ٥١٢ أسقفًا لكنيسة أنطاكية . فقد كانت كل من الأسكندرية وأنطاكية تتبعان مذهب الطبيعة الواحدة ، وكانت تربطهما روابط قوية ؛ حتى أنه حين تعرض أصحاب هذا المذهب لاضطهاد الدولة فى سيفيروس من أنطاكية ولجأ إلى الأسكندرية عام ٥١٨^(٢) .

وهناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة وهى أن العنصر المصرى ازداد انتشاراً فى الدوائر العلمية فى الأسكندرية ؛ إذ لم يعد علماء الأسكندرية قاصرين على مواطنى الأسكندريين أو الإغريق . ومن الأمثلة التى توضح هذا الاتجاه شخصية الفيلسوف هور أبوللو الذى كان رئيساً للمدرسة الوثنية فى الأسكندرية ، ولعب تلاميذه دوراً أساسياً فى موضوع باراليوس . وهو ينسب إلى أسرة من

(١) Vie de Severe, par Zacharie Le Scholastique (P. O.) pp. 22—3.

(٢) أنظر E. R. Hardy, Christian Egypt, pp. 123—132.

صعيد مصر ، ويبدو أنه لم يكن أول من حضر من أسرته إلى الأسكندرية ،
فهيئة التدريس شأن سائر المهن في مصر البيزنطية كانت وراثية ، ويذكر هور
أبوللو في إحدى البرديات في شيء من الفخر أن آباءه من قبله كانوا مدرسين ،
وأن والده كان أستاذا في الأسكندرية كما نعرف من مصادر أخرى أن أفراداً
آخرين من أسرته كانوا يشتغلون بالتدريس في الأسكندرية أيضاً^(١).

ومن الشخصيات اللامعة في تاريخ جامعة الأسكندرية الوثنية في العصر
البيزنطي الفيلسوف الجميلة هيباثيا ، وكان والدها أستاذا للرياضة ، وهي أستاذة
للفلسفة . وبلغ من شهرتها ومجدها أن قصدها الطلاب واستمع إليها الوثنيون
والسيحيون على السواء ، حتى لقيت مصرعها على آلات التعذيب والحرق أثناء
بعض الفتن في مطلع القرن الخامس .

ومن أشهر الشخصيات التي تلقت المعرفة على يدى هيباثيا سينيوس أسقف
كنيسة قورينة في برقة ، الذي عاش في السنوات العصيبة في نهاية القرن الرابع
وبداية القرن الخامس حين كانت تضطهد الوثنية بكل الوسائل المشروعة وغير
المشروعة . وبالرغم من كونه مسيحياً ورجل دين له مكانته ، فلم يخف إعجابه
الشديد بهيباثيا — رغم وثنيتهما — وبمدرسة الفلسفة بالأسكندرية . ويكفى
أن نقرأ بعض رسائله التي بقيت لنا لنندرك مكانة الأسكندرية كركز للعلم
والتعليم في ذلك الوقت ، وأنها كانت لا تزال منافساً قوياً لأثينا . وقد عبّر
سينيوس في إحدى رسائله عن هذه المنافسة حين زار مدينة أثينا ، وكتب إلى
أخيه يقول :

J. Maspero, Horapollon et la fin du Paganisme (١)
Egyptien, BIFAO, II (1913) p. 184 f. ; cf. P. Cairo
Masp. nos. 67020, 67283, 67295.

« إن رحلتى هذه إلى أثينا ستريحنى من إكبار أولئك الذين يعملون فى أثينا ويعودون إلينا . إنهم لا يختلفون فى شىء عنا ، نحن بنى الإنسان العاديين إنهم لا يعرفون أرسطو وأفلاطون خيرا منا ، ومع ذلك فهم يسرون بيننا كما لو كانوا أنصاف آلهة بين دواب . . . » .

وفى خطاب آخر يقول :

« . . . لم يبق لأثينا شىء رفيع سوى أسماء البلاد المشهورة ، فالיום قد تلقت مصر وصانت الحكمة النافعة من هيباثيا ، قديما كانت أثينا موطن الحكمة ، أما اليوم فتجار العسل هم مصدر فخارها ^(١) » .

هذه الشهرة العلمية العظيمة التى تمتعت بها جامعة الإسكندرية القديمة كانت تسندها مكتبتها الكبيرة ، التى سبق أن تحدثنا عنها وعن ظروف نشأتها . وظلت الإسكندرية تتمتع بهذه المكتبة حتى نهاية القرن الرابع حين شن أسقف كنيسة الإسكندرية ثيوفيلوس أكبر حملة اضطهاد تعرض لها الوثنيون ، من أجل القضاء عليهم نهائيا .

وكان من أكبر أهدافه القضاء على مدرسة الإسكندرية الوثنية ، ولذلك اتجه إلى تدمير المكتبة وحرقها باعتبارها أكبر مركز للثقافة الوثنية . وتعتبر هذه الحملة أكبر كارثة حلت بمكتبة الإسكندرية ، ولو أنه من المحقق مقدار الأذى الذى لحق الكتب . فمن الثابت أن بعض الكتب قد نجا وأن الإسكندرية استمرت مركزا للمعرفة والتعليم فى القرنين الخامس والسادس ، حتى الفتح العربى . ولكن يبدو أن المكتبة المشهورة انتهى تاريخها فى

(١) أنظر خطابه رقم ٥٤ ، ١٣٦ : خطابه إلى هيباثيا : ١٠ ، ١٥ ، ١٦ ، ٣٣ ، ٨١ ، ١٢٤ ، ١٥٤ .

اضطهاد ثيوفيلوس ، ولا نسمع عن وجودها بعد ذلك ، وليس هناك من سبيل إلى ادعاء وجودها وأن العرب قاموا بحرقها بعد الفتح . بل لعل هناك ما يثبت أن العرب سمحوا باستمرار التعليم القديم في الأسكندرية إذ حضر يعقوب من إيديسا إلى الأسكندرية في سنة ٦٨٠ ليتم تعليمه بها ^(١) .

A. J. Butler, *The Arab Conquest of Egypt*, p. 401. ff; (١)
 E. A. Parsons, *The Alexandrian Library*, p. 273 f. ;
 W. L. westrman *Bull. Fac. Arts, Alexandria*, (1953) p. 12 ff.

المراجع

1. N.H. Baynes: The Byzantine Empire, London, 1958.
2. N.H. Baynes: Byzantine Studies and Other Essays, London, 1960.
3. H. I. Bell: Egypt From Alexander the Great to the Arab Conquest, Oxford, 1948.
4. H.I. Bell: Egypt under the Early Principate, in C.A.H., vol.X, Ch.X.
5. H.I. Bell: Jews and Christians in Egypt, London, 1919.
6. H.I. Bell: Egypt and the Byzantine Empire, in the Legacy of Egypt, pp.332-348, Oxford, 1941.
7. D. Van Berchem: L'Armée de Diocletien et la Reform Constantinienne, Paris, 1952.
8. Boak: A History of Rome.
9. J. B. Bury: History of the Later Roman Empire.
10. M. Cary: History of Rome, London, 1936.
11. V. Chapot: L'Egypt Romaine (dand G. Hanotaux, Histoire de la Nation Egyptienne, tome III) Paris 1933.
12. J. M. Creed and De Lacy O'Leary: The Egyptian Contribution to Christianity, in The Legacy of Egypt, pp.300- 332, Oxford, 1941.
13. Ch. Diehl: L'Egypte Chrétienne et Byzantine, tome III dans G. Hanotaux Histoire de la Nation Egyptienne, Paris, 1933.
14. R. M. French: The Eastern Orthodox Church, London, 1951.

15. T. Frank: *An Economic Survey of Ancient Rome*, vols.6, Ballimore , 1938.
16. Ed. Gibbon: *The Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. J.B. Bury, London, 1923.
17. E. R. Hardy: *Christian Egypt*, New York, 1952.
18. E. R. Hardy: *The Large Estates of Byzantine Egypt*, New York, 1932.
19. Heichelheim and Ley: *A History of the Roman People*.
20. A. C. Johnson and L.C. Lewis: *Byzantine Egypt, Economic Studies*, Princeton, 1949.
21. A. C. Johnson and West: *Currency in Roman and Byzantine Egypt*, New York, 1951.
22. A. C. Johnson: *Roman Egypt*, vol.II in *An Economic Survey of Ancient Rome*, ed. T. Frank.
23. A. C. Johnson: *Egypt and The Roman Empire*.
24. A. H. M. Jones: *Cities of the Eastern Roman Provinces*, Oxford, 1970. (2nd ed.)
25. A. H. M. Jones: *The Greek City from Alexander The Great to Justinian*, Oxford, 1938.
26. A. H. M. Jones: *Constantine and the Conversion of Europe*, London, 1948.
27. A. H. M. Jones: *The Later Roman Empire*, Oxford, 1964.
28. A. H. M. Jones: *A History of Rome Through The Fifth Century*, New York, 1968.
29. A. H. M. Jones: *The Decline of the Ancient World*, London, 1969
30. A. H. M. Jones and V. Eherenberg: *Documents Illustrating the Reign of Augustus*, Oxford, 1970
31. P. Jouguet: *La vie Municipale dans l'Egypte Romaine*, Paris, 1911.
31. P. Jouguet: *L'Egypte Greco- Romaine de la Conquête d'Alexandre à Diocletien*, dans *précis de l'Histoire d'Egypte*, tome 1, Le Caire, 1932.
32. P. Jouguet: *La Domination Romain en Egvpte aux deux premiers siècles après J. Chr* , Alexandrie 1947.
33. J. Lesquier: *L'Armee romaine d'Egypte d'August à Diocletien*, Le Caire 1918

34. I. Lot. La fin du monde Antique, Paris, 1951.
35. J. Maspero: Histoire des Patriarches d'Alexandrie, Paris, 1923.
36. J. Maspero: Organisation Militaire de L'Egypte Byzantine, Paris, 1952.
37. J. G. Milne: A History of Egypt Under The Roman Rule, London, 1924.
38. Th. Mommsen: The Provinces of The Roman Empire, trans. by W. P. Dickson, London, 1886.
39. H. A. Musurillo: The Acts of the Pagan Martyrs, or Acta Alexandrinorum, Oxford, 1954.
40. G. Ostrogorsky: History of the Byzantine State, trans. J. Hussey, Oxford, 1956.
41. M. Rostovtzeff: Social and Economic History of the Roman Empire, Oxford, 1970.
42. G. Rouillard: L'Administration Civile de l'Egypte Byzantine, Paris, 1928.
43. G. Rouillard: La vie Rurale dans l'Egypte Byzantine, Paris, 1953.
44. S. Runciman: Byzantine Civilization, London, 1961.
45. R. Taubenschlag: Law of Greco- Roman Egypt, Warsw, 1968.
46. A. Vasiliev: History of the Byzantine Empire, Oxford, 1952.
47. S. Le Roy Wallace: Taxation in Egypt from Augustus to Diocletian, New York, 1938.

المراجع العربية :

دكتور إبراهيم نصحي : حضارة مصر في العصر الروماني (تاريخ الحضارة المصرية - المجلد الثاني) .

د . إبراهيم نصحي : تاريخ الرومان .

د . عبد اللطيف أحمد علي : مصر والإمبراطورية الرومانية .

د . السيد الباز العريني : مصر البيزنطية .

د . مراد كامل : حضارة مصر في العصر البيزنطي (تاريخ الحضارة المصرية - ٢٠٥) .

المحتويات

الباب الأول

النظام الامبراطوري

١١	مقدمة
١٥	المصادر التاريخية : الفصل الأول
٣٣	العوامل التي أدت إلى سقوط الجمهورية : الفصل الثاني
٤٧	سقوط الجمهورية : الفصل الثالث
٤٩	الاتفاق الثلاثي الأول
٦٣	دكتاتورية قيصر
٦٩	التمهيد لاقامة الامبراطورية : الفصل الرابع
٧٧	تأسيس الامبراطورية : الفصل الخامس

الباب الثاني

مصر الرومانية

١٠٧	التاريخ السياسي لمصر في العصر الروماني : الفصل السادس
١٠٧	أ - القرنان الأول والثاني من الامبراطورية الرومانية

ب - مصر في فترة المحنة الكبرى للامبراطورية
الرومانية في القرن الثالث ١٤٧

الفصل السابع : معالم النظم والحضارة في مصر

في العصر الروماني ١٥٧
(١) تكوين المجتمع ١٥٧
ب - نظم الادارة ١٧٩
ج - الحياة الثقافية ١٩٩

الباب الثالث

مصر في العصر البيزنطي

الفصل الثامن : الدولة والدين في مصر البيزنطية ٢٤٣
الفصل التاسع : معالم النظم والحضارة في مصر البيزنطية ٢٦٥
أ - النظام الاداري ٢٦٥
ب - الحياة الاقتصادية ٢٧٢
ج - نشأة الرهبنة المسيحية في مصر ٢٨٦
د - الحياة الثقافية ٣٠١
المراجع ٣٠٨

١٩٥٥



